الإمتاع والمؤانسة

الجزء الأول

تأليف

أبو حيان التوحيدي

تحقيق

أحمد أمين وأحمد الزين

الكتاب: الإمتاع والمؤانسة.. الجزء الأول

الكاتب: أبو حيان التوحيدي

تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

التوحيدي ، أبو حيان

الإمتاع والمؤانسة.. الجزء الأول / أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٤٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٥٥ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٦٦٦ / ٢٠٢٠

الإمتاع والمؤانسة

الجزء الأول

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

أبو حيان التوحيدي من أولئك العلماء الأدباء الذين أُصيبوا في حياتهم بالبؤس والشقاء، وظل حياته يجاهد ويكافح في التأليف واحتراف الوراقة والنسخ وجوْب الأقطار، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه، فلم يحظَ من كل ذلك بطائل، وعاش كما يقول في بعض كتبه على نحو أربعين درهمًا في الشهر، أي ما يساوي جنيهًا واحدًا، مع أنه كما يقول رأى كل من حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوافر، وليس أكثرهم يدانيه علمًا أو يجاريه أدبًا. قصد ابن العميد وابن عباد وابن شاهويه وابن سعدان وأبا الوفاء المهندس وغيرهم. ومدح وأطرى، وبكى واشتكى، وهدد وأوعد، فما نفعه مدحه ولا ذمه، ولا إطراؤه ولا هجاؤه، فإن استفاد شيء مما عاناه أبو حيان فإنما هو الأدب بما كتب وألف، وبما هجا واستعطف.

ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه في حياته، فقد عجب ياقوت من أن مؤرخي الرجال لم يترجموا له مع أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ولم نعثر فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا نُتفًا قصيرة وأخبارًا ضئيلة.

وأراد هو أن ينتقم من الناس الذين كفروا صنيعه وجحدوا علمه وأدبه، فأحرق في آخر أيامه كتبه وقال: «إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم، فحُرمتُ ذلك كله ... ولقد اضطُرِرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم.»

قال السيوطي: «ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتِبت عنه في حياته وخرجت من قبل حرقها.»

وكان من شؤمه أنه لم يبقَ من كتبه التي ألفها – وتبلغ نحو العشرين – إلا القليل، ولم يُطبَع منها إلا المقابسات، والصداقة والصديق، ورسالة في العلوم. وما بقي منها مخطوطًا بل وما طُبِع منها مملوء بالتحريف والتصحيف إلى حد يقلل من قيمتها والانتفاع بها.

ولعل أقوم كتبه وأنفعها وأمتعها كتابه الذي نحن بصدده وهو «كتاب الإمتاع والمؤانسة».

فهو كتاب ضخم يقع في ثلاثة أجزاء أخذنا أنفسنا بنشره لتعميم نفعه.

ولتأليف أبي حيان لهذا الكتاب قصة ممتعة، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقًا لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله العارض، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ووصله به ومدحه عنده، حتى جعل الوزيرُ أبا حيان من سُمَّاره، فسامره سبعًا وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان.

ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكَّره بنعمته عليه في وصله بالوزير، مع أنه (أي أبا حيان) ليس أهلًا لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عادته وقلة مرانته وحقارة لبسته، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه ويستوحش منه ويوقع به عقوبته وينزل الأذى به.

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ونزل على حكمه، وفضَّل أن يدون ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر، فوافق أبو الوفاء على ذلك ونصحه أن يتوخى الحق في تضاعيفه وأثنائه والصدق في إيراده، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب ويصرح في موضع التصريح.

«فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة.»

من هو الوزير أبو عبد الله العارض الذي سامره أبو حيان؟

لقد بحثتُ عنه في مظانه فلم أُوفَّق إلى العثور عليه، وقبل ذلك عُنِي المرحوم أحمد زكي باشا بالبحث والسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان حظه حظي.

وأخيرًا رجحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صَمْصَام الدولة البويهي، وقد ورد اسمه هكذا في كل ما راجعت من كتب التاريخ أمثال: «تجارب الأمم» وذيله و«ابن الأثير»، ولم يلقبه أحد منهم بالعارض، وكلمة العارض كما في كتاب الأنساب للسمعاني معناها: «من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها إليهم، ويعرضهم على الملك إذا احتيج إلى ذلك»، فالظاهر أن الوزير أبا عبد الله لُقِّب هذا اللقب إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة أو كان هذا لقبًا لأسرته، ودليلي على ذلك أمور:

(١) أنه ورد في صدر هذا الكتاب أن أبا الوفاء ذكر لأبي حيان: أنك لما انكفأت من الرَّي إلى بغداد في آخر سنة ٣٧٠ مغيظًا من ابن عباد، وعدتك صلاح حالك وأن أوصلك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض. ثم جاء وصف أبي عبد الله هذا بالوزير.

ونحن إذا رجعنا إلى من استوزر فيما بين سنة ٣٧٠ وسنة ٣٧٥ لم نجد وزيرًا يكنى بأبي عبد الله إلا الوزير أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، فقد استوزره صَمْصَام الدولة سنة ٣٧٣ وقتله سنة ٣٧٥.

(٢) جاء في أثناء كتاب «الإمتاع والمؤانسة» أن أبا حيان قصَّ على الوزير أنه سمع رجلًا على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقية الوزير المشهور مصلوبًا بعد أن مات عضد الدولة: «سبحان الله! عضد الدولة تحت الأرض وابن بقية فوق الأرض.» فلما سمع الوزير ذلك قال: استأذنت الملك في دفن ابن بقية فدُفِن.

وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقية دُفِن في عهد صمصام الدولة، ولم يكن لصمصام الدولة وزير يكنى بأبي عبد الله غير ابن سعدان.

(٣) ومما يُستأنَس به أن أبا حيان كان متصلًا بالوزير ابن سعدان وألف له كتاب «الصداقة والصديق»، وقد ذكر في أوائله أن «السبب كان في إنشاء هذه الرسالة أني ذكرت شيئًا منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنماه إلى ابن سعدان سنة إحدى [وسبعين] وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة والأحوال على أَذْلالها جارية، فقال لي ابن سعدان: قد قال لي زيد عنك كذا وكذا. قلت: قد كان ذلك. قال: فدوِّن هذا الكلام وصله بصلاته … فجمعت ما في هذه الرسالة.»

فاتصال أبي حيان بابن سعدان وتأليفه له كتاب «الصداقة والصديق» يرجع الظن بأنه هو أبو عبد الله العارض.

نعم، كان من رجال صمصام الدولة من اسمه أبو الحسن بن عمارة العارض استخدمه صمصام الدولة في السفارة بينه وبين أعدائه أحيانًا،

ولكن يبعد أن يكون هو الذي أُلِّف له كتاب الإمتاع والمؤانسة، لأن كنيته أبو الحسن والذي أُلِّف له الكتاب أبو عبد الله، ولأن أبا الحسن لم يكن وزيرًا لصمصام الدولة، وفي الكتاب النص في مواضع متعددة على أنه ألفه لوزير.

(٤) ذكر في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» أصدقاء أبي عبد الله العارض وعدَّد منهم ابن زرعة وأبا الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازي وبهرام وابن شاهويه، وأنهم كانوا يلازمونه وأنهم أهل مجلسه، وعدَّد في كتاب الصداقة والصديق أصدقاء ابن سعدان فإذا هم هم،[1] فاتحاد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم في مجلس وزير يرجح الظن جدًّا بأن ابن العارض هو ابن سعدان.

(٥) جاء في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» أن الوزير سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه، فقال له: «سمعت بباب الطاق قومًا يقولون: اجتمع الناس اليوم على الشط، فلما نزل الوزير ليركب الزبزب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر، وأنه أجابهم بجواب مُرٍّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرم.»

وهذه الأوصاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شجاع في كتابه «ذيل تجارب الأمم» عن حادثة جرت لابن سعدان.

وابن سعدان هذا استوزره صمصام الدولة البويهي سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة، جاء في كتاب «ذيل تجارب

الأمم» لأبي شجاع: «وفيها [أي في سنة ٣٧٣] خُلِع على أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خِلع الوزارة، وكان رجلًا باذلًا لعطائه مانعًا للقائه، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبزبه،[٢] ومع ذلك فلا يخيب طالب إحسان منه في أكثر مطلبه ... فبسط يده في الإطلاقات والصلات ... وأحدث من الرسوم استيفاء العُشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتَّاب والحواشي من أموالهم وأرزاقهم ... وانضاف إلى ضيق خُلُقه ما اتفق في وقت نظره من غلاء سعر، فتطيرت العامة ورجموا زبزبه، وشغَّبوا الديلم عليه، وهجموا على نهب داره، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردَّهم.» [٣]

وقد ظل ابن سعدان في الوزارة إلى ٣٧٥ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به.

وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعيِّن أباه كاتبًا لوالدة صمصام الدولة لما مات كاتبها، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة: «إن ابن سعدان قد استولى على أمورك، وملك عليك خزائنك وأموالك، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه.» [٤] وتمت المكيدة ولم يُعيَّن أبوه، ثم قُبِض على ابن سعدان وأصحابه وأُودِعوا السجن، واستوزر صمصام الدولة هذا الواشي أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، ولم يكتفِ أبو القاسم بمحبس ابن سعدان فانتهز فرصة خروج ثائر على صمصام الدولة اسمه «أسفار بن كردويه» يريد خلعه، فدس أبو القاسم إلى

صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا الثائر، وأن الذي جرى كان من فعله وتدبيره، وأنه لا يُؤمَن ما يتجدد منه في محبسه، فأمر صمصام الدولة بقتله فقُتِل سنة ٣٧٥.

وكان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان في كتبه، فهو واسع الاطلاع، له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق، يدل على ذلك حواره الذي يحكيه أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات، فهو يسأل أسئلة عميقة وينقد الإجابة عنها نقدًا قيمًا.

وفوق ذلك كان له في وزارته منتدى يجمع كثيرًا من جلة العلماء والأدباء، منهم: ابن زرعة الفيلسوف النصراني، وابن مسكويه صاحب «تهذيب الأخلاق» و«تجارب الأمم»، وأبو الوفاء المهندس الذي سنتحدث عنه، وأبو سعد بهرام بن أردشير، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماجن المشهور، ومن الكتَّاب أبو عبيد الخطيب الكاتب وأبو حيان صاحبنا.

وكان له مجلس شراب يجلس إليه بعض هؤلاء فيتفاكهون ويتنادرون ويذهبون في فنون الحديث كل مذهب، ومجلس جد يتحاورون فيه ويتناقشون في الفلسفة والأخلاق والأدب.

وكان يباهي بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له، مثل المهلَّبي وابن العميد والصاحب بن عباد، فيقول في أصحابه هؤلاء:

«ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ... وأن جميع ندماء المهلبي لا يفون بواحد من هؤلاء، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل مَن فيهم، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون.» (٥) فلا عجب إذن أن يكون من نتاج ابن سعدان الوزير العالم هذا الكتاب الذي نحن بصدد؛ كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

وأما أبو الوفاء الذي وصل أبا حيان بابن سعدان والذي ألف أبو حيان له كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، ودوَّن له فيه كل ما دار بينه وبين الوزير في سبع وثلاثين ليلة، فهو محمد بن محمد بن يحيى البُوزجاني، ترجم له ابن النديم في «الفهرست» وابن خلكان في «وفيات الأعيان»، وقال فيه هذا الأخير: «إنه أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله فيه استخراجات غريبة لم يُسبَق بها، وكان شيخنا العلَّامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس – وهو القيم بهذا الفن – يبالغ في وصف كتبه، ويعتمد عليها في أكثر مطالعاته، ويحتج بما يقوله، وكان عنده من تآليفه عدة كتب ... وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان، وقدم العراق سنة ٣٤٨، وتُوفِّي سنة ٣٧٦.» وقد ذكر ابن خلكان أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير، ولكن الذي في ابن الأثير أنه عدَّ وفاته في حوادث سنة ٣٨٧، فإما أن ابن خلكان أخطأ في النقل أو أن الناسخ أخطأ في الكتابة.

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم، وقد وصفه ابن سعدان في جملة ما وصف من أصحابه، فقال: «وأما أبو الوفاء فهو والله

ما يُقعَد به عن المؤانسة الطيبة والمساعدة المطربة والمفاكهة اللذيذة والمواتاة الشهية، إلا أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغدادي إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد.» (٦)

إلى هنا رأينا أن الكتاب أُلِّف لأبي الوفاء المهندس، نقل فيه أبو حيان ما دار بينه وبين ابن سعدان، ولكن القفطي في كتابه «أخبار الحكماء» عند ترجمته لأبي سليمان المنطقي أورد كلامًا يناقض ما نقول، سواء في ذلك من أُلِّف له الكتاب ومن دار الحديث بينه وبين أبي حيان.

فقد ذكر: «إن أبا سليمان كان أعور، وكان به وَضَح، وكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب علم، وكان يشتهي الاطلاع على أخبار الدولة وعلم ما يحدث فيها ... وكان أبو حيان التوحيدي من بعض أصحابه المعتصمين به، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطَّلع على الأخبار، ومهما عَلِمه من ذلك نقله إليه وحاضره به، ولأجله صنَّف كتاب «الإمتاع والمؤانسة» نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي عندما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة.»٧ وأنا أرجح خطأ القفطي في الوجهين معًا.

فأما في الأول: فإن النسخة التي بيدي تذكر أنه ألفه لأبي الوفاء المهندس لا لأبي سليمان المنطقي، ويقول في صدر الكتاب إنه ألفه ردًّا

لجميل أبي الوفاء إذ كان هو الذي أوصله لأبي عبد الله. وعندما يأتي ذكر أبي الوفاء في ثنايا الكتاب، ويسأل أبو عبد الله أبا حيان عن رأيه فيه يمدحه ويثني عليه، ويقول: كيف أذمه وهو الذي أوصلني بك؟ وقد سبق أن أثبتنا أن أبا الوفاء كان من ندماء أبي عبد الله.

ودليل آخر وهو أن أبا حيان في بعض كلامه في الكتاب يستجدي من ألَّف له الكتاب، وقد كان أبو الوفاء المهندس في منزلة تسمح له بذلك، فإنه رجل جليل القدر يلقبه الوزير بشيخنا. أما أبو سليمان فكان فقيرًا كما ذكر ذلك أبو حيان في هذا الكتاب، وكانت صلة أبي حيان به صلة علمية لا صلة مالية، فمن البعيد جدًّا أن يستجْديه أبو حيان.

ودليل ثالث وهو أن الوزير أبا عبد الله سأل أبا حيان في الكتاب عن أبي سليمان هذا، فذكر له أوصافه، وفيها ما هو عيب لأبي سليمان كقوله: إنه يجتمع مع قوم للشراب، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء. فلو كان أبو حيان ألَّفه لأبي سليمان لكان بعيدًا كل البعد أن يذكر هذا الحديث.

ودليل رابع وهو أن أبا حيان ينقل في كتابه هذا عن أبي سليمان ويذكر آراءه وينقل بعض رسائله إلى الوزير، ولو كان يؤلف الكتاب لأبي سليمان لاستغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سليمان عن نفسه من أقواله ورسائله، ولكان أبو حيان في ذلك كمن ينقل إلى البئر ماءه وإلى الكنز ذهبه، وهذا غير مألوف ولا مستساغ.

لهذا كله نرجح خطأ القفطي في ما ذهب إليه من أنه ألَّفه لأبي سليمان المنطقي.

كما نرجح خطأه في الشق الثاني، وهو أن أبا حيان دوَّن فيه ما كان يدور بينه وبين أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي وزير صمصام الدولة.

ذلك لأن النسخة التي بين أيدينا يذكر فيها أبو حيان أنه دوَّن فيه ما دار بينه وبين أبي عبد الله العارض لا أبي الفضل عبد الله بن العارض، وقد راجعنا كتب التاريخ التي بين أيدينا وأحصينا فيها من تولى الوزارة لصمصام الدولة فلم نجد من بينهم أبا الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي الذي ذكره القفطي وكما تقول دائرة المعارف الإسلامية في مادة أبي حيان تبعًا له.

نعم، رأينا مَنْ يسمى أبا الفضل الشيرازي وكان يعيش في هذا العصر، ولكن اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازي لا أبو الفضل عبد الله الشيرازي كما يقول القفطي، وكان هذا كاتبًا لا وزيرًا وكان صديقًا لأبي علي الحسن التنوخي، ونقل عنه كثيرًا في كتابه «نشوار المحاضرة» ولقبه الكاتب لا الوزير، والذي أُلِّف له الإمتاع والمؤانسة وزير لا كاتب.

يُضاف إلى ذلك ما ذكرنا قبل من البراهين.

فالكتاب – في رأينا – كُتِب لأبي الوفاء المهندس لا أبي سليمان المنطقي، ودُوِّن فيه ما دار في مجلس ابن سعدان لا أبي الفضل الشيرازي.

وصف الكتاب

قال القفطي في وصفه: «وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو: ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيًّا وتوسَّطه محدِّثًا وختمه سائلًا ملحفًا.»٨

قسَّم أبو حيان كتابه إلى ليالٍ، فكان يدوِّن في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له وأجبته. وكان الذي يقترح الموضوع دائمًا هو الوزير، وأبو حيان يجيب عما اقترح. وكان الوزير يقترح أولًا موضوعًا حسبما اتفق وينتظر الإجابة، فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكارًا ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها، فقد يسأله سؤالًا يأتي في أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبي سليمان المنطقي، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم. وهكذا يستطرد من باب لباب، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالبًا أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالبًا «ملحة الوداع»، فيقول الوزير مثلًا: إن الليل قد دنا من فجره، هات ملحة الوداع. وهذه الملحة

تكون عادة نادرة لطيفة أو أبياتًا رقيقة، وأحيانًا يقترح الوزير أن تكون ملحة الوداع شِعرًا بدويًّا يشم منه رائحة الشيح والقيصوم وهكذا.

وأحيانًا يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة في رسالة، فقد سأله مرة عن المصادر التي تجيء على وزن تفعال، فأجابه أبو حيان عن بعضها ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء في اللغة منها.

وأحيانًا يتخذ الكلام شكل حوار، فأبو حيان مثلًا يروي عن ديوجانيس أنه سُئِل: متى تطيب الدنيا؟ فقال: «إذا تفلسف ملوكها وملك فلاسفتها.» فلم يرضَ الوزير عن هذا، وقال: إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرَّغ نفسه للدار الآخرة، فكيف يكون الملك رافضًا للدنيا وقاليًا لها وهو محتاج إلى سياسة أهلها والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفاسدها؟! وأطال في ذلك. وفي كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبي حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك.

وأحيانًا يطلب إليه الوزير أن يحضِّر له رسالة في موضوع، ثم يتلوها عليه في جلسة مقبلة كما فعل مرة، إذ كلفه أن يكتب له في المجون والمُلَح، ففعل أبو حيان وقرأها عليه في مجلس، قال أبو حيان: «فلما قرأتها على الوزير قال: ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوي هذه الوصايا والمُلَح.»

وآونة يثير الوزير مسائل أشكلت عليه في اللغة والفلسفة والاجتماع، يعرضها على أبي حيان ويطلب منه الجواب فيفعل.

ويحدث أحيانًا أن الوزير يدفع لأبي حيان برقعة فيها أسئلة يطلب إليه أن يفكر في الإجابة عنها، ويتصل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها، كما حدث مرة أنه دفع إليه رقعة بخطه فيها مطالب، وقال: باحث عنها أبا سليمان وأبا الخير ومَن تعلَم أن في محاورته فائدة. وكان في الرقعة أسئلة منها عن الروح وصفته ومنفعته، وما المانع أن تكون النفس جسمًا أو عرضًا أو هباء؟ وهل تبقى؟ وإن كانت تبقى فهل هي تعلم ما كان الإنسان فيه ها هنا ... إلخ؟ ويقول الوزير في آخر هذه الرقعة: «إن هذا وما أشبهه شاغل لقلبي وجاثم في صدري ومعترض بين نفسي وفكري، وما أحب أن أبوح به لكل أحد.» ويأمره بأن يكتم خطه، فإن أراد أن يعرض هذه المسائل مكتوبة على أبي سليمان فلينسخها بخطه هو، ثم سأل أبو حيان أبا سليمان وذكر إجابته عنها ونقلها إلى الوزير. وعلى هذا النمط يجري تأليف الكتاب.

وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعًا ظريفًا لا تخضع لترتيب ولا تبويب، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث، حتى لنجد في الكتاب مسائل من كل علم وفنٍّ، فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه.

فلما أراد أبو حيان أن يدوِّن لأبي الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه ونمَّق الحديث، وكان يدوِّن جزءًا ويرسله إلى أبي الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا …

وحدث هو نفسه عن ذلك كله في أول الجزء الثاني فقال: «قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمتَ لي القيام به وشرفتني بالخوض فيه، وسردتُ في حواشيه أعيان الأحاديث التي خدمت بها مجلس الوزير، ولم آلُ جهدًا في روايتها وتقويمها، ولم أجنح إلى تعمية شيء منها، بل زبرجت كثيرًا بناصع اللفظ مع شرح الغامض وصلة المحذوف وإتمام المنقوص، وحملته إليك على يد «فائق» الغلام، وأنا حريص على أن أتبعه بالجزء الثاني، وهو يصل إليك في الأسبوع إن شاء الله.»

وقد خاف أبو حيان من بعض ما ورد في الكتاب، فإنه في حديثه مع الوزير عاب أشخاصًا من رجالات الدولة الذين يستطيعون إيذاءه، فرجا أبا الوفاء أن يحفظ هذا الكتاب سرًّا فقال: «وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سألتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيَّابين، بعيدةً عن تناول أيدي المفسدين المنافسين، فليس كل قائل يسلم ولا كل سامع ينصف.»

وقد أنجز أبو حيان وعده وأرسل إليه الجزء الثاني على يد غلامه فائق أيضًا، ثم أرسل إليه الجزء الثالث وهو الأخير، وقال في أوله:

قد أرسلتُ إليك الجزأين الأول والثاني، وهذا الجزء وهو الثالث قد والله ألقيت فيه كل ما في نفس من جد وهزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة وأدب، واحتجاج واعتذار ... ولأنه آخر الكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام في خاص أمري.

وعلى هذا الوضع ينتهي الكتاب.

ولست أستبعد أن يكون أبو حيان قد تزيَّد فيه واخترع أشياء لم تجرِ في مجلس الوزير، فقد عُرِف عنه أمثلة من هذا القبيل، فقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبي الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعزوَّة إلى أبي عبيدة على لسان أبي بكر وعمر في حق علي بن أبي طالب، ولعل هذا التزيد كان من ضمن الأسباب التي دعته أن يرجو أبا الوفاء في أن يكون الكتاب سرًّا، فإنه ألف الكتاب في حياة الوزير وخشي أن الوزير يطَّلع عليه فيعلم مقدار ما تزيَّد.

أما أنه ألفه في حياة الوزير فالدليل عليه ما جاء في نسخة ميلانو: «أُنشِئت هذه الرسالة في رجب سنة ٣٧٤»، والوزير ابن سعدان ظل وزيرًا من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ كما تقدم.

وأيًّا ما كان فالكتاب ممتع مؤنس كاسمه، يلقي نورًا كثيرًا على العراق في النصف الثاني من القرن الرابع – أعني في العصر البويهي – وهو عصر مغبَّش بالظلام، فإنه يتعرض لكثير من الشئون الاجتماعية في ثنايا حديثه، فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد

وابن سعدان، ومحاسنهم ومساويهم، ويصف العلماء ويحلل شخصياتهم وما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي ومتَّى بن يونس القُنَّائي في المفاضلة بين المنطق اليوناني والنحو العربي، ورأي العلماء في الشُّعُوبية والمفاضلة بين الأمم ... إلى كثير من أمثال ذلك.

وفي الكتاب النص الوحيد الذي كشف لنا عن مؤلفي إخوان الصفاء، وقد نقله القفطي منه، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل ومن ألَّفها، وعن القفطي نقله كل من كتبوا عن إخوان الصفاء.

كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة، فهو يصف كثيرًا حالة الشعب في عصره وموقفهم من الأمراء والملوك، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك.

وكما يعرض أحيانًا للحياة الاجتماعية الشعبية فيذكر عدد القينات في الكرخ فيقول: «ولقد أحصينا في سنة ٣٦٠: ٤٦٠ جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحس. هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته ورُقَبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهرون بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط أو ثَمِل في حالٍ أو خلع العذار في هوًى.» وأطيل جدًّا لو وصفت ما في الكتاب من فوائد.

ثم إن أسلوبه في تقسيمه إلى ليالٍ وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار يجعله لذيذًا شيقًا، أو على حد تعبيره هو «ممتعًا مؤنسًا»، فهو أشبه شيء بألف ليلة وليلة، ولكنها ليست ليالي للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام، إنما هي ليالٍ للفلاسفة والمفكرين والأدباء، إذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة كالبحث في الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك، كما يتعرض لمشاكل البلغاء كالليلة البديعة التي جرى فيها الحديث عن النثر والنظم والمفاضلة بينهما ومزايا كلٍّ ونقصه وهكذا. فإن كان ألف ليلة وليلة يصور أبدع تصوير الحياةَ الشعبية في ملاهيها وفتنها وعشقها فكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حياة الأرستقراطيين أرستقراطيةً عقلية؛ كيف يبحثون وفيمَ يفكرون، وكلاهما في شكل قصصي مقسَّم إلى ليالٍ، وإن كان حظ الخيال في الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة وليلة.

وأسلوب أبي حيان في الكتاب أسلوب أدبي راقٍ كعهدنا في كل كتابته، يحب الازدواج ويطيل في البيان ويحتذي حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولًا، ولكن أغمضَ أسلوبه في هذا الكتاب تعرضه كثيرًا لمسائل فلسفية عميقة قد عزَّت على البيان ودقَّت عن الإيضاح، فإذا هو خرج عن هذه الموضوعات الدقيقة إلى موضوعات أدبية كوصف لفقره وبؤسه أو وصف للكرم وفوائده أو وصف للسان والبيان؛ جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع.

نُسَخ الكتاب

للكتاب فيما أعلم نسختان لا أعلم لهما في مكاتب العالم ثالثة.

فأما النسخة الأولى فكاملة، وهي تقع في خمسة أقسام.

وقد جاء في طرة الجزء الثاني ما نصه: «رُسِم لخزانة السلطان الأعظم، مالك رقاب الأمم، مولى ملوك العرب والعجم، باسط الأمن والأمان، ناشر العدل والإحسان، أبي المفاخر فخر الدنيا والدين سليمان بن غازي «محمد الأيوبي» خلَّد الله تعالى مملكته وسلطانه وأعلى في الخافقَيْن عزه وبرهانه!»

فالجزء الثاني كُتِب للعادل سليمان بن غازي الأيوبي.

وكان العادل سليمان أديبًا شاعرًا، جاء في «كشف الظنون» ذكر كتاب اسمه «الدر الثمين في شعر الثلاثة السلاطين» وهم: «العادل سليمان الأيوبي وولده الأشرف أحمد وولده الكامل خليل»، فسليمان هذا هو صاحب الخزانة المكتوب هذا الجزء برسمها.

وجاء في آخر هذا الجزء: «تمت الجزء الثاني من كتاب المؤانسة والإمتاع بحول الله وحسن توفيقه في شوال سنة خمسة عشر وثمانمائة، على يد أضعف العباد شرف بن أميره في حصن المحروسة حماها الله تعالى عن الآفات والعاهات، آمين يا رب العالمين!»

وخط الجزء الثاني (وهو في ثلاثة مجلدات) مخالف لخط الجزء الأول (وهو في مجلدين)، وإن كان الخطان قريبَي الشبه بعضهما ببعض. والجزء الأول غير مضبوط والثاني مضبوط بالضبط الكامل. وكلا الجزأين مملوء بالأخطاء الخطيرة بالزيادة والنقص والتحريف، ويظهر أن الكاتبَيْن من الخطاطين الذين يجيدون الخط ولا يحسنون الفهم. وكاتب الجزء الثاني يغلب على الظن أنه تركي لا يحسن العربية فهو يقول: «تمت الكتاب» لا «تم الكتاب»، ويقول: «في سنة خمسة عشر وثمانمائة» بدل «خمس عشرة»، وهذه مع الأسف هي وحدها النسخة التامة.

وهذه النسخة أخذها المرحوم أحمد زكي باشا بالفوتوغرافيا من مكتبة طوب قبو سراي لمَّا اطَّلع على الكتاب وعرف قيمته. وقد أحضر النسخة الفوتوغرافية معه إلى القاهرة واحتفظ بها في مكتبته الخاصة، وقد قرأ الكتاب ووضع في الصفحة الأولى من كل جزء فهرسًا بعدد الليالي وبعض الموضوعات، كما وضع أسماء الأعلام الواردة في الكتاب أمام كل صفحة، مما يدل على أنه كان يريد نشره ويريد ترجمة الأعلام التي وردت فيه، ولكن لم يتعرض لتصحيح شيء مما فيه من أغلاط.

وقد تُوفِّي رحمه الله وهي في مكتبته الخاصة، فاشتراها السيد حمدي السفرجلاني الدمشقي وباعها لدار الكتب المصرية.

والنسخة الثانية نسخة فوتوغرافية أُخِذت من أصل في ميلانو، وليست كاملة وإنما هي قطع ثلاث: قطعتان من الجزء الثاني وقطعة من

الجزء الثالث وهي مشوشة غير مرتبة، وقد استحضرها زكي باشا أيضًا واحتفظ بها لنفسه، ثم بِيعت لدار الكتب.

ولم يُذكَر في أية قطعة من القطع تاريخ نسخها. وخطها واضح وجميل أيضًا ومضبوطة، ولكنها في جملتها لا تقل في الأخطاء عن سابقتها.

وقد كان في نية السيد حمدي السفرجلاني نشر المخطوطة قبل بيعها لدار الكتب، فاستنسخ نسخة منها وقرأها مع بعض أفاضل دمشق، منهم الدكتور حسني سبح والسيد رشدي الحكيم وخليل مردم بك، واستظهروا بعض تصحيحات لما وجدوه في هذه النسخة من تحريف.

وبقيت بعد ذلك مملوءة بالأغلاط كثيرة الجمل والألفاظ التي تشبه الألغاز، حتى لا يخلو سطر منها من وقفات تستدعي الجهد الشديد في تصحيحها. فعُرِض على لجنة التأليف نشره فوافقت على ذلك، وعهدت إلى كاتب هذه السطور والأستاذ أحمد الزين بتصحيحه، وقد بذلنا معًا جهدًا كبيرًا في تصحيح المحرَّف من ألفاظه، وتفسير غريبه، وشرح المشكل من عباراته، وتكميل الناقص من جمله، وضبط الملتبس من كلماته، والتعريف بكثير ممن ورد ذكرهم فيه من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة، وهذا هو جهدنا نقدمه للقراء.

ومع هذا فربما نكون قد أخطأنا الصواب أو أغفلنا بعض المحرَّف، وقد أثبتنا ألفاظه المحرَّفة في حواشي صفحاته. ويُلاحَظ أننا في أكثر الأحيان نثبت اللفظ المحرَّف وحده غير منبهين على أنه محرَّف اتِّكالًا على فهم القارئ، وفي بعض الأحيان ننبه على أنه تحريف وأن صوابه ما أثبتنا، كما

يُلاحَظ أننا قسمنا كل ليلة من ليالي هذا الجزء إلى موضوعات، مثبتين في أول كل موضوع رقمًا يدل عليه.

فنحن ننشر الجزء الأول من الكتاب اعتمادًا على نسخة طوب قبو سراي وحدها، حتى إذا وصلنا إلى الجزء الثاني أمكننا الانتفاع بنسخة ميلانو.

ولعلنا بهذا النشر نحسن إلى أبي حيان بالتعريف بقيمته والإشادة بذكره، بعد أن أساء إليه الزمان فأماته في حياته وأخمد اسمه بعد وفاته، كما نحسن إلى عصره فنلقي عليه بعض الضوء وقد اكتنفه الظلام وعفت على آثاره الأيام. والسلام.

أحمد أمين

هوامش

(١) انظر الصداقة والصديق، ص٣١.

(٢) الزبزب: ضرب من السفن.

(٣) ص٨٥.

(٤) ص١٠٣.

(٥) انظر رسالة الصداقة والصديق، ص٣٣.

(٦) الصداقة والصديق، ٣٢.

(٧) أخبار الحكماء، ص٢٨٣.

(٨) أخبار الحكماء ٢٨٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو حَيَّانَ التوحيديُّ: نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين، ووصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين، وظَفِر بالفوز والنعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه وعلى آله الطاهرين.

أما بعد، فإني أقول منبِّهًا لنفسي ولمن كان من أبناء جنسي: من لم يُطِع ناصحه بقبول ما يَسمع منه، ولم يُملِّك صديقَه كلَّه[١] فيما يمثِّله له، ولم يَنْقَد لبيانه[٢] فيما يُرِيغُه[٣] إليه ويُطلِعه عليه، ولم يرَ أن عقل العالِم الرشيد فوق عقل المتعلِّم البليد، وأن رأي المجرِّب البصير مقدَّمٌ على رأي الغَمْر٤ الغَرِير؛ فقد خسر حظه في العاجل، ولعله أيضًا يخسَر حظه في الآجل، فإن مصالح الدنيا معقودةٌ بمراشد الآخرة، وكليات الحس في هذا العالم في مقابلة موجودات العقل في ذلك العالم، وظاهر ما يُرى بالعِيان مُفْضٍ إلى باطن ما يَصدُق عنه الخبر. وبالجملة الداران متفقتان في الخير المغتبَط به والشر المَنْدُوم عليه، وإنما يختلفان بالعمل المتقدِّم في إحداهما والجزاء المتأخِّر في الأخرى. وأنا أعوذ بالله الملك الحق الجبار العزيز الكريم الماجد أن أَجهل حظي، وأَعمَى عن رُشْدي، وأُلقِي بيدي إلى التهلُكة، وأَتجانَف[٥] إلى ما يسوءني أولًا ولا يسرني آخرًا! هذا، وأنا في ذيل الكهولة وبادئة الشيخوخة، وفي حال مَن إنْ لم تَهدِه التجارب في ما سلف من أيامه في حالَي سفره ومُقامه، وفقره وغَنائه، وشدته ورخائه، وسرَّائه وضرائه، وخِيفته ورجائه؛ فقد انقطع الطمع من

فلاحه، ووقع اليأس من تدارُكه واستصلاحه. فإلى الله أَفزَع من كل رَيْثٍ وعَجَل، وعليه أتوكل في كل سُؤْل وأمل، وإياه أستعين في كل قول وعمل.

قد فهمتُ أيها الشيخ[٦] حفِظ الله روحك، ووَكَل السلامة بك، وأَفرَغ الكرامة عليك، وعَصَب كل خير بحالك، وحَشَد كل نعمة في رِحابك، ورَحِم هذه الجماعة الهائلة – من أبناء الرجاء والأمل – بعنايتك، ولا قطَعك من عادة الإحسان إليهم، ولا ثَنَى طَرْفك عن الرقة لهم، ولا زهَّدك في اصطناع حَالِيهم وعاطلهم، ولا رَغِب بك عن قبول حقهم لبعض باطلهم، ولا ثَقَّل عليك إدْناء قريبهم وبعيدهم، وإنالةَ مستحِقِّهم وغير مستحِقِّهم أكثرَ مما في نفوسهم وأقصى ما تَقدِر عليه من مواساتهم؛ من بِشْرٍ تُبْديه، وجاهٍ تَبذُله، ووعدٍ تُقدِّمه، وضمانٍ تؤكِّده، وهشاشةٍ تَمزُجها ببشاشة، وتَبسُّمٍ تخلطه بفكاهة، فإن هذه كلَّها زكاة المروءة، ورِباط النعمة، وشهادةٌ بالمَحْتِد[٧] الزكي، والعِرْق الطيِّب، والمنشأ المحمود، والعادة المَرْضيَّة. وهي مؤذِنةٌ بأن المِنحة راهنة،[٨] والموهبة قاطنة، والشكر مكسوب، والأجر مَذْخور، ورضوان الله واقع. وأسأل الله بعد هذا كله ألَّا يُسْهِم[٩] وجهي عندك، ولا يُزِلَّ قدمي في خدمتك، ولا يُزِيغَني[١٠] إلى ما يقطع مادة إحسانك وعائدة رأيك ونافع[١١] نيتك وجميل معتقدك، بمَنِّه ولطفه!

فهمتُ جميع ما قلته لي بالأمس فهمًا بليغًا، ووعيته وعيًا تامًّا، وبان لي الرشد في جملته وتفصيله، والصلاح في طرفيه ووسطه، والغنيمة في

ظاهره وباطنه، والشفقة من أوله إلى آخره. وأنا أعيده ها هنا بالقلم، وأرسمه بالخط وأقيِّده باللفظ، حتى يكون اعترافي به أَرْسَى وأَثْبت، وشهادتي على نفسي أقوى وأَوْكد، ونُكُولي عنه أبعد وأصعب، وحُكْمك به لي وعليَّ أَمْضَى وأنفذ.

قلتَ لي أدام الله تعالى توفيقك في كل قول وفعل، وفي كل رأي ونظر: إنك تعلم يا أبا حيان أنك انْكَفَأْت من الرَّيِّ[١٢] إلى بغداد في آخر سنة سبعين[١٣] بعد فوت مأمولك من ذي الكفايتَيْن[١٤] – نضَّر الله وجهه – عابسًا على ابن عبَّاد،[١٥] مَغِيظًا منه، مقروح الكبد لما نالك به من الحرمان المُر والصدِّ[١٦] القبيح، واللقاء الكريه، والجفاء الفاحش، والقَذْع١٧ المؤلم، والمعاملة السيئة، والتغافل عن الثواب على الخدمة، وحبس الأجرة على النَّسْخ والوِراقة، والتجهُّم المتوالي عند كل لحظة ولفظة.

وذكرتَ في الجملة شقاءً اتصل بك في سفرك ذلك، وعناءً نال منك في عُرْض[١٨] أحوالك، ولَعَمري إن السفر فَعُول لهذا كله ولأكثر منه! فأَرْعَيتك بصري، وأَعَرتك سمعي، وساهمتُك في جميع ما وقرته في أذني بالجزع والتوجع والاستفظاع[١٩] والتفجع، وضمِنت لك تلافي ذلك كله بحاقِّ[٢٠] الشفقة وخالص الضمير، ووعدتُك صلاح الحال عن ثبات النية، وصحة العقيدة، وقلتُ: أنا أرعى حقك القديم حين التقينا بأَرَّجان[٢١] وأنا على باب ابن شاهَوَيْه[٢٢] الفقيه، وعَهْدَك الحديث حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمانٍ وخمسين، وأُوصِلُك إلى الأستاذ أبي

عبد الله العارض[٢٣] – أدام الله تأييده – وأخطب لك قبولًا منه، وتخفيفَ الإذن عليك، وامتلاء الطرْف بك، ونيل الحظوة بخدمتك وملازمتك. وفعلتُ ذلك كله حتى استكتَبك «كتاب الحيوان» لأبي عثمان الجاحظ لعنايتك به، وتوفرك على تصحيحه، ثم حضَنتُ[٢٤] لك هذه الحال إلى يومنا هذا. وهو الوزير العظيم الذي افتقرت الدولة إلى نظره وأمره ونهيه، وإلى أن يكون هو المُبْرِم والناقض، والرافع والواضع، والكافي والوافي، والمقرِّب لخَدَمها ونصحائها، والمزحزح لحَسَدَتها وأعدائها، والراعي لرعيَّتها ودَهْمائها، والناهض بأثقالها وأعبائها. أعانه الله على ما تولاه، وكفاه المهم في دنياه وأخراه، بمنِّه وقدرته!

نعم، ورتبتُ ذلك كله، ولم أقطع عنك عادتي معك في الاسترسال والانبساط، والبر والمواساة، والمساعدة والمواتاة،[٢٥] والتعصب والمحاماة.

أفكان من حقي عليك في هذه الأسباب التي ذكرتُها، وفي أخواتها التي تركتُها كراهةَ الإطالة بها أنك تخلو بالوزير – أدام الله أيامه – ليالي متتابعةً ومختلفة، فتحدثه بما تحب وتريد، وتُلقي إليه ما تشاء وتختار، وتكتب إليه الرُّقْعة بعد الرقعة، ولعلك في عُرْض ذلك تعدو طَوْرَك بالتشدُّق،[٢٦] وتجوز حدك بالاستحقار، وتتطاول إلى ما ليس لك، وتغلَط في نفسك، وتنسى زلة العالِم، وسَقْطة المتحرِّي، وخَجْلة الواثق. هذا وأنت غِرٌّ لا هيئة لك في لقاء الكبراء، ومحاورة الوزراء. وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك، وإلى مِران سوى مرانك، ولِبْسةٍ لا

تشبه لبستك. وقلَّ من قُرِّب من وزيرٍ خَدَم فأجاد، وتكلَّم فأفاد، وبُسِط فزاد إلَّا سَكِر، وقلَّ من سَكر إلا عَثر، وقلَّ من عَثر فانتعش. وما زَهِد في هذه الحال كثيرٌ من الحكماء الأولين والعُبَّاد الربَّانيين إلا لِغِلظها وصعوبتها، ومكروه عاقبتها، وشدة الصبر على فوارضها ورواتبها،(٢٧) وتفسُّخ(٢٨) المَتْن بين حوادثها ونوائبها.

والعجب أنك مع هذه الخِلَّة(٢٩) تظن أنها مطويَّة عني وخافية دوني، وأنك قد بلغت الغاية وادِعَ القلب، وملكت المكانة ثانيَ العِنان، وقد انقطعتْ حاجتك عني وعمن هو دوني، ووقع الغِنى عن جاهي وكلامي ولطفي وتوصيلي، وجهلتَ أن من قدَر على وصولك يقدر على فصولك،(٣٠) وأن من صَعِد بك حين أراد ينزل بك إذا شاء، وأن من يُحسِن فلا يُشْكر يجتهد في الاقتصاد حتى يُعذَر.

وبعدُ، فما أُطيل، ولعل لهب المَوْجِدة يزداد، ولسان الغيظ يغلو، وطباع الإنسان تحتدُّ، والندم على ما أسلفتُ من الجميل يتضاعف، ولست أنت أول مَن بُرَّ فعَقَّ، ولا أنا أول من جُفِيَ فنَقَّ. (٣١) وهذا فراقُ بيني وبينك، وآخر كلامي معك، وفاتحة يأسي منك، قد غسلت يدي من عهدك بالأُشْنان(٣٢) البارقيِّ، وسلوت عن قربك بقلب معرِض وعزمٍ حي، إلَّا أن تطلعني طِلْعَ(٣٣) جميع ما تحاورتما وتجاذبتما هُدْب الحديث عليه، وتصرفتما في هزله وجِده، وخيره وشره، وطيِّبه وخبيثه، وباديه ومكتومه، حتى كأني كنت شاهدًا معكما ورقيبًا عليكما أو متوسطًا بينكما. ومتى لم تفعل هذا فانتظر عُقبى استيحاشي منك، وتوقَّعْ قلة

غُفُولي عنك، وكأني بك وقد أصبحتَ حَرَّان حيران يا أبا حيان، تأكل أصبعك أسفًا، وتَزْدَرد ريقك لهفًا على ما فاتك من الحَوْطة لنفسك، والنظر في يومك لغدك، والأخذ بالوثيقة في أمرك. أتظنَّنَّ بغَرَارتك[٣٤] وغَمَارتك،[٣٥] وذَهابك في فُسُولتك[٣٦] التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمُجْتَدين الأدنياء الأردياء؛ أنك تقدر على مثل هذه الحال، وأنام منك على حسن الظن بك، والثقة بصَدَرك ووِردك، وأطمئنُّ إلى حكِّك وجَرْدك، وأَتَعَامَى عن حرك وبردك؟ هيهات! رَقدتَ فَحَلَمت، فخيرًا رأيت وخيرًا يكون.

على هذا الحد كان مقطع كلامك في مَوْجِدتك، وإلى ها هنا بلغ فيض عَتْبك ولائمتك، وفي دون ذلك تنبيه للنائم، وإيقاظٌ للساهي، وتقويمٌ لمن يقبل التقويم، وقد قال الأول:

ألا إنما[٣٧] يكفي الفتى عند زَيْغه   من الأَوَد[٣٨] البادي ثِقافُ المقوِّمِ

فقلت لك: أنا سامع مطيع، وخادم شكور، لا أشتري سخطك بكل صفراء[٣٩] وبيضاء في الدنيا، ولا أَنْفِر من التزام[٤٠] الذنب والاعتراف بالتقصير، ومِثلي يهفو ويَجْمَح، ومثلك يعفو ويصفح، وأنت مولًى وأنا عبد، وأنت آمرٌ وأنا مؤتمِر، وأنت مُمْتثَلٌ وأنا ممتثِل، وأنت مصطنِع وأنا صنيعةٌ، وأنت منشِّئ وأنا مُنَشَّأ، وأنت أول وأنا آخِر، وأنت مأمول وأنا آمِلٌ. ومتى لم تغفر لي الذنب البِكْر، والجناية العذراء، والبادرة النادرة، فقد أعنتني على ما كان مني، ودللتَ على ملَلِك لي، وأنك كنت مترصِّدًا

لهذه الهفوة، ومعتقدًا في مقابلتها هذه الجفوة، وكرمُك يأبى عليك هذا، ومُثُولي بين يديك خدمةً لك يَحظُره عليك.

هذا، وأنا أفعل ما طالبتني به من سرد جميع ذلك، إلا أن الخوض فيه على البديهة في هذه الساعة يشُقُّ ويصعُب بعقِب ما جرى من التفاوض، فإنْ أذنتَ جمعتُه كله في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل، والحلو والمر، والطريِّ والعاسي،[٤١] والمحبوب والمكروه، فكان من جوابك لي: افعل، ونِعم ما قلتَ! وهو أحب إليَّ، وأقرب إلى إرادتي، وأَحْصَر لما أُرِيغ[٤٢] منه، وأَدخَل في الحجة عليك ولك، وأَغسَل للوَسَخ الذي بيني وبينك، وأَزهَر للسراج الذي طَفِئ عني وعنك، وأَجذَب لعِنان الحجة إن كانت لك، وأَنطَق عن العذر إن اتضح بقولك، وإذا عزمت فتوكل على الله. وليكن الحديث على تباعد أطرافه واختلاف فنونه مشروحًا، والإسناد عاليًا متصلًا، والمتن تامًّا بيِّنًا، واللفظ خفيفًا لطيفًا، والتصريح غالبًا[٤٣] متصدِّرًا،[٤٤] والتعريض قليلًا يسيرًا، وتَوَخَّ الحقَّ في تضاعيفه وأثنائه، والصدقَ في إيضاحه وإثباته، واتَّقِ الحذف المُخِلَّ بالمعنى، والإلحاق المتصل بالهَذَر، واحذر تزيينه بما يَشينه، وتكثيرَه بما يقلِّله، وتقليله عما لا يُسْتَغنى عنه، واعمِدْ إلى الحسن فزد في حسنه، وإلى القبيح فانْقُص من قبحه، واقصِد إمتاعي بجُمعَة[٤٥] نظمه ونثره، وإفادتي من أوله إلى آخره، فلعل هذه المثاقَفة[٤٦] تَبقَى وتُرْوَى، ويكون في ذلك حُسن الذكرى. ولا تُومِئْ إلى ما يكون الإفصاح عنه أحلى في السمع، وأعذب في النفس، وأَعْلَق بالأدب. ولا تُفْصح عما تكون الكناية عنه أَستَر للعيب، وأَنفَى للريب، فإن الكلام صَلِفٌ تَيَّاه لا

يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان، وخطره كثير، ومتعاطيه مغرور، وله أَرَنٌ(٤٧) كأَرَن المُهْر، وإباءٌ كإباء الحَرُون، وزهوٌ كزهو المَلِك، وخَفْقٌ كخَفْق البرق. وهو يَتَسهَّل مرةً ويتعسَّر مرارًا، ويَذِلُّ طورًا ويَعِزُّ أطوارًا. ومادته من العقل، [والعقلُ] سريع الحُئُول،(٤٨) خفيُّ الخداع، وطريقُه على الوهم، والوهم شديد السَّيَلان، ومجراه على اللسان، واللسان كثير الطغيان، وهو مركب من اللفظ اللغوي، والصَّوْغ(٤٩) الطِّباعي، والتأليف الصناعي، والاستعمال الاصطلاحي، ومُسْتملاه من الحِجَا، ودَرْيُه(٥٠) بالتمييز، ونَسْجُه بالرِّقَّة، والحِجَا في غاية النشاط. (٥١) وبهذا البَوْن يقع التباين، ويتسع التأويل، ويجول الذهن، وتتمطَّى(٥٢) الدعوى، ويُفْزَع إلى البرهان، ويُبْرَأ من الشبهة، ويُعْثَر بما أشبه الحجة وليس بحجة، فاحذر هذا النعت وروادفه، واتَّقِ هذا الحُكم وقَوائفَه. (٥٣)ولا تعشق اللفظ دون المعنى، ولا تَهْوَ المعنى دون اللفظ. وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في جانب. فإن صناعتهم يُفْتَقر فيها أشياء يُؤاخَذ بها غيرهم، ولستَ منهم فلا تتشبه بهم، ولا تجرِ على مثالهم، ولا تنسُج على منوالهم، ولا تدخل في غِمارهم، ولا تكثِّر ببياضك سوادَهم، ولا تقابل بفُكاهتك براعتهم، ولا تجذب بيدك رِشاءَهم، ولا تحاول بباعك مطاولتهم. (٥٤) واعرف قدرك تسلم، والزَم حدَّك تأمن، فليس الكَوْدَن(٥٥) من العتيق في شيء، ولا الفقير من الغني على شيء، أما سمعتَ قول الناس: ليس الشاميُّ للعراقيِّ(٥٦) بصاحب، ولا الكرديُّ من الجنديِّ بساخر، فإن طال(٥٧) فلا تُبَلْ، وإن تشعَّب فلا تكترث، فإن

الإشباع في الرواية أشفَى للغليل، والشرح[٥٨] للحال أبلغ إلى الغاية، وأظفر بالمراد، وأجرَى على العادة.

فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، أقول أيها الشيخ – عطف الله قلبك عليَّ، وألهمك الإحسان إليَّ – في جواب جميع ما قلتَه واجدًا عليَّ وعاتبًا، وقابضًا، وباسطًا، ومرشدًا، وناصحًا؛ ما يُعرَف الحق فيه، ويستبين الصواب منه، غيرَ خائنٍ لك، ولا جانحٍ إلى مخالفتك، ولا مُريغٍ[٥٩] للباطل معك، ولا جاحدٍ لأياديك القديمة والحديثة، ولا منكرٍ لنعمتك الكافية الشافية، ولا غاطٍ[٦٠] على فواضلك المجتمعة والمتفرقة، ولا تاركٍ لشيء هو عليَّ من أجل شيء هو لي، ولا مُعْرِض عن شيء هو لي بسبب شيء هو عليَّ، بل أجهِّز دِقَّه وجِلَّه إليك حتى تراه بِسِدِّه[٦١] وغباره، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردائه وإزاره، كأني لم أسمع قول الأول:

«والكفر[٦٢] مَخْبَثةٌ لنفس المنعِمِ» «والشكر مَبعثةٌ لنفس المفضِلِ»

أأنا أدعك واجدًا عليَّ، وأرقد وأنت ماقتٌ لي، وأجد حسَّ نعمة أنت وهبتَها إليَّ، وأَلَذُّ عيشًا أنت أذقتني حلاوته؟! أأنسى أياديك وهي طوق رقبتي، وتُجاهَ عيني، وحشو نفسي، وراحةُ حِلمي، وزاد حياتي، ومادة روحي؟! هيهات! هذا بعيد من القياس، وغير معهود بين أحرار الناس، الذين لهم اهتمام بصون أعراضهم، وحرصٌ على إكرام أنفسهم، قد عَبِقوا[٦٣] بفوائح الفتوة، وعَلِقوا بحبائل المروءة، وشدَوْا[٦٤] من

الحكمة أشرف الأبواب، واعْتَزَوْا من الأدب إلى أعز حَرم،(٦٥) وحازوا شرفًا بعد شرف، وانحازوا عن نَطَف بعد نَطَف،(٦٦) ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة، وعَزَفوا(٦٧) أنفسهم عن زهراتها بتجربة صادقة.

فأول ما أبدؤك به أنني طننت ظنًّا لا كيقين أن شيئًا مما كنتُ فيه مع الوزير – أدام الله أيامه، وقَصَم أعداءه – ليس مما يهمك، ولا هو مما يَقْرَع سمعَك سماعُك له، وحسبت أيضًا أنني إن بدأتُ بشيء منه رَذَلْتني عليه، وتنقَّصتني به، وزَرَيْت عليَّ فيه، وأنك ربما قلت: لمَ بدأتَ بما لم أسألك عنه ولم أرخِّص لك فيه؟ هلَّا كظمت على جِرَّتك،(٦٨) وطويتَ ما بين جنبَيْك، وما عليَّ مما يدور بين الصاحب وخادمه والرؤساء، والناظرين في أمور الدَّهْماء،(٦٩) والمتصفحين لأحوال العامة والخاصة، ولهم أسرار وعيوبٌ لا يقف عليها أقرب الناس إليهم، وأعز الناس عليهم. وأنت أيضًا فلَم تسألني عنه، فكان في تقديري أنك قد عرفتَ وصولي في وقت دون وقت، وأنك قد حملتَ أمري على الخدمة التي ليس للعلم بها فائدة، ولا في الإعراض عنها فائتة.

وإذ جرى الأمر على غير ما كان في حسابي وتَلَبَّس(٧٠) بظني، فإني أهدي ذلك كله بغَثَاثته وسَمانته، وحلاوته ومرارته، ورقته وخَثَارته في هذا المكان، ثم أنت أبصر بعد ذلك في كتمانه وإفشائه، وحفظه وإضاعته، وستره(٧١) وإشاعته. ووالله ما أرى هذا أمرًا صعبًا إذا وصل إلى مرادك، ولا كُلْفةً شاقَّةً إذا أكسبني مرضاتك! وإنْ كان ذلك يمر بأشياء كثيرةٍ ومختلفةٍ، متعصِّية غريبةٍ، منها ما يَشِيط(٧٢) به الدم المحقون،

ويُنْزَع من أجله الرُّوح العزيز، ويُسْتصغَر معه الصَّلْب، ولا يُقْنَع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر. وإن كان فيها أيضًا غير ذلك مما يُضحِك السن، ويُفكِّه النفس، ويدعو إلى الرشاد، ويدل على النصح، ويؤكد الحُرْمَة، ويَعْقِد الذِّمام، وينشُر الحكمة، ويشرِّف الهمة، ويَلْقَح العقل، ويزيد في الفهم والأدب، ويفتح باب اليُمن والبركة، ويُنَفِّق بضاعة أهل العلم في السوق الكاسدة، ويوقظ العيون الناعسة، ويَبُلُّ الشَّنَّ[٧٣] المتغضِّف، ويُندِّي الطين المترشِّف، ويكون سببًا قويًّا على حسن الحال وطلب العيش، فإن هذا العاجلة محبوبة، والرفاهية مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكل حولٍ وقوةٍ مخطوبة، والدنيا حلوةٌ خَضِرة، وعذبةٌ نَضِرة. ومن شَفَّ[٧٤] أملُه شَقَّ عملُه، ومن اشتد إلحاحه توالَى غدوُّه ورواحه، ومن أَسَرَه رجاؤه طال عناؤه وعَظُم بلاؤه، ومن التهب طمعُه وحرصُه ظهر عجزُه ونقصُه.

وفي الجملة:

مـــن لـــم يكـــن لله متَّهِمًـــا   لـم يُمْـسِ محتاجًـا إلـى أحـدِ

ولا بدَّ من فتى يعين على الدهر، ويُغني عن كرام الناس فضلًا عن لئامهم، ويذلِّل قَعود الصبر، ويُجِمُّ راحلة الأمل، ويُحلِي مر اليأس. والعُزلة محمودةٌ إلا أنها محتاجة إلى الكفاية، والقناعة مَزَّة[٧٥] فَكِهةٌ ولكنها فقيرةٌ إلى البُلْغة، وصيانة النفس حسنة إلا أنها كُلْفة محرجة إن لم تكن لها أداةٌ تُجِدُّها،[٧٦] وفاشيةٌ[٧٧] تَمُدُّها، وتركُ خدمة السلطان غيرُ

الممكن ولا يُستطاع إلا بدِينٍ متين، ورغبةٍ في الآخرة شديدة، وفِطامٍ عن دار الدنيا صعب، ولسانٍ بالحلو والحامض يَلَغ.

قال ابن السَّمَّاك: (٧٨) لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْف، ولم يُسَلَّ سيف: لقمةٌ أَسْوَغ من لقمة، ووجه أصبح من وجه، وسِلْك(٧٩) «أنعم من سلك.» وليس كل أحد له هذه القوة، ولا فيه هذه المُنَّة،(٨٠) والإنسان بَشَر، وبِنْيَته متهافتة، وطينته منتشرة، وله عادةٌ طالبة، وحاجةٌ هاتكة، ونفسٌ جَموح، وعينٌ طَموح، وعقلٌ طفيف،(٨١) ورأي ضعيف، يهفو لأول ريح، ويَسْتخِيل(٨٢) لأول بارق، هذا إذا تخلص من قُرَناء السوء، وسَلِم من سوارق(٨٣) العقل، وكان له سلطان على نفسه، وقَهْرٌ(٨٤) لشهواته، وقَمْعٌ لهوائجه،(٨٥) وقبولٌ من ناصحه، وتهيُّؤٌ في سعيه، وتبوُّءٌ في مَعَانٍ(٨٦) حظه، وائتمامٌ بسعادته، واستبصارٌ في طلب ما عند ربه، واستنصافٌ من هواه المُضِلِّ لعقله المرشِد، هذا قليلٌ وصعب، ولو قلتُ معدومٌ أو محال في هذا الزمن العسير والدهر الفاسد لَمَا خفتُ عائقًا يعوقني، ولا حسودًا يردُّ قولي. قال ابن السَّمَّاك: الله المستعان على ألسُنٍ تَصِف، وقلوبٍ تعترف، وأعمالٍ تختلف. وقال معاوية لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، ورآه لا يَلِي له عملًا ولم يقبل منه نائلًا: يا ابن أخي، هي الدنيا فإمَّا أن تَرضَع معنا، وإمَّا أن تَرْتَدِع عنا.

وربما قال بعض المتكلِّفين: قد قال بعض السلف: ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا من ترك الآخرة للدنيا، ولكنَّ خيركم من أخذ من هذه وهذه. وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن. وربما قال آخر من

المتقدمين: اعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا. وهذا أيضًا كلامٌ منمَّق، لا يرجع إلى معنًى محقَّق، أين هو من قول المسيح – عليه السلام – حين قال: الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب، متى بَعُد أحدكم من أحدهما قَرُب من الآخر، ومتى قرب من أحدهما بعُد من الآخر؟ وأين هو من قول الآخر: الدنيا والآخرة ضَرَّتان متى أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى، ومتى أسخطتَ إحداهما أرضيتَ الأخرى؟

وهذا لأن الإنسان صغير الحجم، ضعيف الحَوْل، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذِ حظوظ بدنه وإدراكِ إرادته وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه. فإن صَفُق وجهُه وقال: نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار، فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من هذه، ومن تخَنَّث(٨٧) وتَلَيَّث لم يكن رجلًا ولا امرأة، ولا يكون أبًا ولا أمًّا، وهذا كما نرى.

ونرجع فنقول: ونعوذ بالله من الفقر! خاصة إذا لم يكن لصاحبه عِياذٌ من التقوى، ولا عمادٌ من الصبر، ولا دِعامةٌ(٨٨) من الأنَفة، ولا اصطبارٌ على المرارة.

وقد بُلِينا بهذا الدهر الخالي من الدَّيَّانين الذين يصلحون(٨٩) أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتَّسعون في أحوالهم، ويوسِّعون على غيرهم من سَعَتهم، وكانوا

يهتمون بذخائر الشكر المعجَّل في الدنيا، يحرصون[٩٠] على ودائع الأجر المؤجَّل في الأخرى، ويتلذَّذون بالثناء، ويهتزون للدعاء، وتَملِكهم الأَرْيَحِيَّة عند مسألة المحتاج، وتعتريهم الهِزَّة معها والابتهاج، وذلك لعشقهم الثناء الباقي، والصنيع الواقي، ويرَوْن الغنيمة في الغرامة، والربح في البذل، والحظ في الإيثار، والزيادة في النقص، أعني بالزيادة الخلَف المنتظَر من الله، وبالنقص العطاء.

ورأيت الناس يعيبون ابن العميد حين قال: أنا أعجب من جهل الشاعر الذي قال:

أنـــت للمـــال إذا أمســـكتَه فـــإذا أنفقتَـــه فالمـــال لـــك

قال: ولو كان هذا صحيحًا كان لا ينبغي أن يُكْتَسَب المال، لأنه ليس في ترك كسبه أكثرُ من إخراجه بالإنفاق. هذا لقولهم[٩١] بحكمته وعقله وتحصيله، وصوابُ الجاهل لا يُسْتَحْسن، كما يُسْتَقْبح خطأ العاقل. نعم، وكانوا إذا وَلُوا عدلوا، وإذا ملكوا أفضلوا،[٩٢] وإذا أعطَوْا أجزلوا، وإذا سُئِلوا أجابوا، وإذا جادوا أطابوا، وإذا عالوا[٩٣] صبروا، وإذا نالوا[٩٤] شكروا، وإذا أنفقوا واسَوْا، وإذا امتُحِنوا تَأَسَّوْا. وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة، وإلى ضرائب[٩٥] مأمونة، وإلى ديانات قوية، وأماناتٍ ثخينة. [٩٦] وكان لهم مع الله أسرار طاهرة، وعلانيةٌ مقبولة، ومع عباد الله معاملةٌ جميلة، ورحمةٌ واسعة، ومَعْدَلَةٌ فاشية. وكانت تجارتهم في العلم والحكمة، وعادتهم جارية على الضيافة والتَّكرِمة، وكانت شيمتهم الصفح والمغفرة، وربحهم[٩٧] من هذه الأحوال النجاة والكرامة في الأولى

والعاقبة. وكانوا إذا تلاقَوْا تواصَوْا بالخير، وتناهَوْا عن الشر، وتنافسوا في اتخاذ الصنائع، وادِّخار البضائع (أعني صنائع الشكر وبضائع الأجر)، فذهب هذا كله وتاه[٩٨] أهله. وأصبح الدين وقد أُخلِق لبوسُه، وأُوحِش مأنوسُه، واقْتُلِع مغروسُه. وصار المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، وعاد كل شيء إلى كَدِره وخاثره، وفاسدِه وضائره. وحصل الأمر على أن يقال: فلانٌ خفيف الروح، وفلان حسَن الوجه، وفلان ظريف الجملة، حلو الشمائل، ظاهر الكَيْس، قوي الدَّسْت[٩٩] في الشِّطْرَنْج، حسَن اللعب في النَّرْد، جيدٌ في الاستخراج، مدبِّر[١٠٠] للأموال، بَذُولٌ للجُهْد، معروفٌ بالاستقصاء، لا يُغْضِي عن دَانِق، ولا يتغافل عن قيراط، إلى غير ذلك مما يأنَف العالِم من تكثيره، والكاتب من تسطيره.

وهذه كلها كنايات عن الظلم والتَّجْدِيف،[١٠١]والخساسة والجهل وقلة الدين وحب الفساد، وليس فيها شيءٌ مما قدمنا وصفه عن القوم الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرقة والرحمة والاصطناع والعدل والمعروف.

وأرجعُ عن هذه الشَّكيَّة الطويلة اللاذعة، والبلية العامة الشاملة، إلى عين ما رسمتَ لي ذِكرَه، وكلَّفتني إعادته، عائذًا بالله في صرف الأذى عني، وسَوْق الخير إليَّ، ولائذًا بكرمك الذي رِشْتَني[١٠٢]به إلى الساعة، وكفَيْتَنِي به مئونة الخدمة لغيرك من هذه الجماعة، والأعمال بخواتيمها، والصُّدُور بأعجازها. وأنت أولى الناس بالصفح والتجاوز عني إذا عرفت براءتي في كل ما يتعلق بي من ذِمامك، ويجب عليَّ من الحق في

مودتك، والاعتصام بحبلك، والانْتِجاع[١٠٣]من عُشْبك، والارْتِغاء[١٠٤] من لبَنِك.

هوامش

(١) كله: مفعول لـ «يملِّك»، يريد بهذه العبارة تمام الطاعة لصديقه حتى كأن صديقه مالك له كله يتصرف فيه كيف يشاء.

(٢) في الأصل: «ولم ينفذ لسانه.»

(٣) يريغه: يريده ويطلبه.

(٤) الغمر بالفتح والضم: من لم يجرب الأمور، والجاهل الأبله.

(٥) «وأتجافَى»، وهو تحريف. والتجانُف إلى الشيء: الميل إليه.

(٦) يريد بالشيخ أبا الوفاء المهندس، وهو الذي وصل أبا حيان بالوزير أبي عبد الله العارض كما يُفهم مما يأتي.

(٧) «بالمجد».

(٨) راهنة: دائمة.

(٩) السُّهُوم: تغير الوجه وعبوسه من الهم. وكنَّى به عن تغير الحال.

(١٠) يزيغني: يميلني.

(١١) «ويافع».

(١٢) الرَّي: مدينة فارسية قديمة، كانت قصبة بلاد الجبال، وكان اسمها الفارسي راغة ومنه أُخِذ اسمها العربي، وهي الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران.

(١٣) أي وثلاثمائة.

(١٤) ذو الكفايتَيْن: لقب لأبي الفتح علي بن أبي الفضل محمد المعروف بابن العميد. ويَعنون بالكفايتين كفاية السيف وكفاية القلم. وقد قام مقام أبيه ابن العميد واستوزر لركن الدولة البويهي، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦هـ.

(١٥) ابن عباد هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد، وُلِد سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وتُوفِّي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالري. وكان وزيرًا لمؤيَّد الدولة أبي منصور بويه الديلمي، ثم وزر لأخيه فخر الدولة أبي الحسن علي. وهو أول من لُقِّب بالصاحب من الوزراء، لأنه صحب مؤيَّد الدولة بن بويه منذ الصبا.

(١٦) «والقصد».

(١٧) القدع بالمهملة: المنع والزجر، وبالذال المعجمة: الشتم. والمعنى يستقيم على كلا الوجهين.

(١٨) في عرض أحوالك: أي في أكثرها. وعرض الشيء أكثره ومعظمه.

(١٩) «والاستقطاع».

(٢٠) حاقُّ الشفقة: أي صادقها وكاملها.

(٢١) أرجان: مدينة بين فارس وخوزستان، وهي من كور الأهواز، وتُعْرَف الآن باسم «بابهان».

(٢٢) ابن شاهويه هو أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن شاهويه الفارسي الفقيه الشافعي، تولى القضاء ببلاد فارس، وتُوفِّي سنة ثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور.

(٢٣) أبو عبد الله العارض هو – في رأينا – أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، كان وزيرًا لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٥، والعارض لقب له وهو كما في الأنساب للسمعاني «من يعرِّف العسكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها إليهم، ويعرض العسكر على الملك إذا احتِيج إلى ذلك»، والظاهر أنه لُقِّب بهذا إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة أو كان هذا لقبًا لأسرته. (راجع الأدلة على هذا الرأي في المقدمة.)

(٢٤) حضنت لك هذه الحال: أي كفلتها لك وحفظتها عليك.

(٢٥) المواتاة: الموافقة.

(٢٦) التشدق هو التوسع في الكلام من غير احتياط واحتراز، وهو أيضًا استهزاء الرجل بالناس يَلوي شدقه بهم وعليهم.

(٢٧) «وروايتها».

(٢٨) التفسخ: الضعف والعجز عن النهوض. والمتن: الظهر.

(٢٩) «الجملة». والخلة بالكسر: الثلمة. يريد ما فيه من العيوب والنقائص.

(٣٠) فصولك: أي خروجك من عند الوزير، يقال: «فَصَل القوم من البلد فصولًا» إذا خرجوا منها.

(٣١) نقَّ: من النقيق، وهو في الأصل صياح الضفدع. والمراد هنا التحدث بما أسداه من النعم وما يلقاه من الكفران.

(٣٢) الأشنان: غاسول كانت تُغْسَل به الثياب والأيدي، وهو نبات لا ورق له وله أغصان دِقاق فيها ما يشبه العُقَد، وهي رَخْصة كثيرة المياه.

(٣٣) يقال: «أطلعته طلع أمري» بكسر الطاء، أي أبثثته سري.

(٣٤) الغرارة: الغفلة.

(٣٥) الغمارة: الجهل والبلاهة.

(٣٦) الفسولة: الضعف والخسة وقلة المروءة.

(٣٧) «أيما» بالياء.

(٣٨) الأود: العوج. والثقاف: ما تُسوَّى به الرماح.

(٣٩) يريد بالصفراء الذهب، وبالبيضاء الفضة.

(٤٠) «إكرام».

(٤١) العاسي: اليابس.

(٤٢) أريغ: أطلب وأريد.

(٤٣) «عاليًا».

(٤٤) «متصورًا».

(٤٥) الجمعة: المجموعة.

(٤٦) يريد بالمثاقفة المطارحة في العلم والأدب ومذاكرتهما.

(٤٧) الأرن بالتحريك: النشاط.

(٤٨) الحئول: التحول.

(٤٩) «والصرع».

(٥٠) دريه: أي دَرَيَانه وعلمه.

(٥١) الظاهر أن هنا كلامًا سقط من الناسخ.

(٥٢) تتمطى: تتطاول.

(٥٣) قوائفه: أي توابعه، يقال «قاف أثره» إذا تبعه.

(٥٤) «مطاوعتهم».

(٥٥) الكودن: الفرس الهجين والبِرْذَوْن. والعتيق من الأفراس: الكريم الرائع منها.

(٥٦) يشير بهذه الجملة إلى ما وقع بين الشام والعراق من العداوة أيام علي ومعاوية وما تبع ذلك.

(٥٧) طال: أي الكلام.

(٥٨) «والسرج».

(٥٩) المريغ: المريد.

(٦٠) غطى على الشيء بتخفيف الطاء: كغطى عليه بتشديدها.

(٦١) السِّدُّ: الصحيح من الكلام. وكنى بالغبار عما يثور حول الكلام من اعتراض ونحوه، ومنه قولهم: «كلام لا غبار عليه.»

(٦٢) هذا الشطر عجز بيت لعنترة العبسي، وصدره: نُبِّئْت عمرًا غير شاكر نعمتي.

(٦٣) «عتقوا بفرائح».

(٦٤) شدوا: أخذوا، يقال «شدا من العلم شيئًا» إذا أخذه كأنه ساقه أو جمعه. وفي الأصل «شذوا» بالمعجمة.

(٦٥) «خدم».

(٦٦) النطف بالتحريك: العيب والفساد.

(٦٧) «عرفوا». وعزف عن الشيء: أعرض عنه وزهد فيه.

(٦٨) «جريك». وجرة البعير معروفة، شبه بها الحديث المختزَن يفشيه صاحبه.

(٦٩) «الذبهما». والدهماء: جماعة الناس.

(٧٠) «ولكبس».

(٧١) «ونشره وأشكر عته».

(٧٢) يشيط: يذهب هدرًا.

(٧٣) «السن» بالسين المهملة. والشن بالمعجمة: القِربة الخَلَق. والمتغضِّف: أي المتكسر المتغضِّن من اليبوسة.

(٧٤) شف أمله: زاد، ويجوز أن يُفسَر بمعنى أسقمه الأمل وأضناه لعلوه وبُعد مناله.

(٧٥) «مرة». والمزَّة: الخمرة اللذيذة الطعم.

(٧٦) تجدها: أي تجددها.

(٧٧) الفاشية: ما انتشر من المال. وفي الأصل «غاشية».

(٧٨) «ابن السمائل»، وهو تحريف. وابن السماك هو أبو العباس محمد بن صبح الكوفي الزاهد الواعظ المشهور، لقي جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم، وقدم من بغداد زمن هارون الرشيد، وتُوفِّي سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة.

(٧٩) السلك: الخيط، وكنى به عن الثوب، لأنه من الخيوط.

(٨٠) «المقة». والمنة بضم الميم: القوة.

(٨١) الطفيف: الناقص والقليل.

(٨٢) في الأصل: «ويستحيل» بالحاء، وهو تصحيف. ويستخيل لأول بارق: أي يخال المطر عند أول بارق.

(٨٣) يريد بسوارق العقل: الشهوات التي تذهب به وتجعله في حكم غير الموجود كأنها تسرقه. والذي في الأصل «سرادق»، وهو تصحيف.

(٨٤) «وفهم».

(٨٥) لهوائجه: أي لِمَا يهيج به من النزعات والمطامع.

(٨٦) المعان: المَبَاءة والمنزل.

(٨٧) في الأصل: «تحنث»، وهو تصحيف. ويريد بالتخنث والتليث اللينَ والتشدد تشبهًا بالمخنثين والليوث.

(٨٨) «دماثة». والدعامة: العماد.

(٨٩) «لا يصلحون»، وقوله «لا» زيادة من الناسخ.

(٩٠) «يخوضون».

(٩١) هذا لقولهم: أي عيب الناس لابن العميد في كلامه السابق، لما يصفونه به من الحكمة والعقل ... إلخ.

(٩٢) أفضلوا: أنعموا.

(٩٣) في الأصل: «اعتزلوا». وعالوا: افتقروا، من العيلة بفتح أوله.

(٩٤) «قالوا».

(٩٥) الضرائب: الطبائع والسجايا، الواحدة ضريبة.

(٩٦) ثخينة: قوية، كما يقال في عكس ذلك: هو رقيق الدين، أي ضعيفه.

(٩٧) «وزكحم».

(٩٨) تاه أهله: هلكوا. وفي الأصل «وباه».

(٩٩) الدست: الحيلة، وهو أيضًا ما يكون فيه الغلب في الشطرنج، تقول: الدست لي، والدست عليَّ.

(١٠٠) «مثير».

(١٠١) التجديف: الكفر بنعمة الله. وفي الأصل: والتخويف.

(١٠٢) راشه يريشه: جعل له ريشًا، شبه ما بذله له من المعروف بالريش للطائر.

(١٠٣) الانتجاع: طلب المعروف.

(١٠٤) في الأصل: «الارتقاء» بالقاف، وهو تصحيف. والارتغاء: أخذ رغوة اللبن واحتساؤها.

الليلة الأولى

وصلتُ أيها الشيخ – أطال الله حياتك – أول ليلة إلى مجلس الوزير أعز الله نصره، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أَزْرَه! فأمرني بالجلوس، وبسط لي وجهه الذي ما اعتراه منذ خُلِق العبوس، ولطَّف كلامه الذي ما تبدَّل منذ كان لا في الهَزْل ولا في الجِدِّ، ولا في الغضب ولا في الرضا.

ثم قال بلسانه الذَّلِيق،[1] ولفظه الأنيق: قد سألتُ عنك مراتٍ شيخنا أبا الوفاء، فذكر أنك مُراعٍ لأمر البِيمَارِسْتان من جهته، وأنا أَرْبَأ بك عن ذلك، ولعلي أعرِّضك لشيء أنْبَه من هذا وأَجدَى، ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرَّف[2] منك أشياء كثيرةً مختلفة تَرَدَّد في نفسي على مَرِّ الزمان لا أحصيها لك في هذا الوقت، لكني أَنْثُرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يَسْنح ويَعرِض، فأجبني عن ذلك كلِّه باسترسال وسكون بال، بملء فيك، وجَمِّ خاطرك، وحاضر علمك. ودَعْ عنك تفنُّن البغداديِّين[3] ...[4] مع عفو لفظك، وزائد رأيك، ورِبْح[5] ذهنك. ولا تَجْبُن جبن الضعفاء، ولا تتأطَّر[6] تأطُّر الأغبياء، واجزِم إذا قلت، وبالِغ إذا وصفت، واصْدُقْ إذا أَسْندت، وافصِل إذا حكمت، إلا إذا عرض لك ما يوجب توقُّفًا أو تَهادِيًا.٧ وما أَحْسنَ ما قال الأول:

لا تَقْـدَح الظِّنَّـةُ فـي حكمـه   شـيمتُه عـدلٌ وإنصـافُ
يَمضـي إذا لـم تَلْقـه شـبهةٌ   وفـي اعتـراضِ الشـكِّ وَقّـافُ

وقد قال الأول:

أُبـالي الـبلاءَ وإنـي امـرؤٌ   إذا مـا تبيَّنـتُ لـم أَرتَـبِ[٨]

وكن على بصيرة أني سأستدل مما أسمعه منك في جوابك عما أسألك عنه على صدقك وخلافِه، وعلى تحريفك وقِرافِه. [٩]

فقلتُ قبلُ: كلُّ شيء أريد أن أُجَاب إليه يكون ناصري على ما يُراد مني، فإني إن مُنِعْتُه نَكَلْتُ، وإن نَكَلْتُ قلَّ إفصاحي عما أطالَب به وخِفْتُ الكساد، وقد طمعتُ بالنَّفَاق،[١٠] وانقلبتُ بالخيبة، وقد عقدتُ خِنْصَري على المسألة. فقال حرس الله روحه: قل عافاك الله ما بدا لك، فأنت مُجاب إليه ما دمتَ ضامنًا لبلوغ إرادتنا منك، وإصابة غرضنا بك.

قلت: يُؤْذَن لي في كاف المخاطَبة وتاء المواجَهة، حتى أتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض، وأركب جَدَد[١١] القول من غير تَقيَّة[١٢] ولا تَحاشٍ ولا مُحاوَبة[١٣] ولا انْحِياش. [١٤]

قال: لك ذلك، وأنت المأذون فيه، وكذلك غيرك، وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة؟ إن الله تعالى – على علوِّ شأنه، وبَسْطةِ مُلْكه، وقدرته على جميع خلقه – يُوَاجَه بالتاء والكاف، ولو كان في الكناية بالهاء رِفْعةٌ وجَلالةٌ وقَدْر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحقَّ بذلك

ومقدَّمًا فيه، وكذلك رسولُهﷺ والأنبياء قبله عليهم السلام وأصحابُه رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان رحمة الله عليهم، وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزَّك الله، ويا عمرُ أصلحك الله، وما عاب هذا أحد، وما أَنِف منه حسيب ولا نسيب، ولا أباه كبيرٌ(١٥) ولا شريف. وإني لأعجب من قومٍ يرغبون عن هذا وشبهه، ويحسبون(١٦) أن في ذلك ضَعَةً أو نقيصةً أو حَطًّا أو زِرايةً، وأظنُّ أن ذلك لعجزهم وفُسُولتهم(١٧) وانخزالهم(١٨) وقلتهم وضُئُولتهم وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم، وأن هذا التكلُّف والتجبُّر يمحوان عنهم ذلك النقص، وذلك النقص ينتفي بهذا الصَّلَف، هيهات! لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخُيَلاء ومن مَقابح الزَّهْو والكبرياء.

فقلت: أيها الوزير، قد خالطتُ العلماء، وخدمت الكبراء، وتصفَّحتُ أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، فما سمعتُ هذا المعنى من أحد على هذه السِّيَاقة الحسنة والحجة الشافية والبلاغ المبين، وقد قال بعض السلف الصالح: «ما تَعاظَم أحد على مَن دونه إلا بقدر ما تَصاغَر لمَن فوقه.» والتصاغر دواء النفس، وسجية أهل البصيرة في الدنيا والدين، ولذلك قال ابن السَّمَّاك(١٩) للرشيد وقد عجِب من رقته، وحسن إصاخته لموعظته، وبليغ قبوله لقوله، وسرعة دمعته على وجنته: «يا أمير المؤمنين، لَتواضعُك في شرفك أشرفُ من شرفك، وإني أظن أن دمعتك هذه قد أطفأتْ أوديةً من النار وجعلتْها بردًا وسلامًا.»

قال: [٢٠] هذا باب مفترَقٌ فيه، ورجَعْنا إلى الحديث [فإنه شهي، سيَّما إذا كان من خطرات[٢١] العقل]، قد خُدِم بالصواب في نغمةٍ ناغمة، وحروف متقاومة، ولفظٍ عذب، ومأخذٍ سهل، ومعرفة بالوصل والقطع، ووفاء بالنثر والسَّجع، وتباعدٍ من التكلف الجافي، وتقاربٍ في التلطف الخافي، قاتل الله ذا الرُّمَّة[٢٢] حيث يقول:

لهـا بَشَـرٌ مثـل الحريـر ومنطـقٌ رخيم الحواشي لا هراءٌ[٢٣] ولا نَزْرُ

وكنتُ أنشد أيام الصبا هذا[٢٤] بالذال، وكان ذلك من سوء تلقين المعلم، وبالعراق رُدَّ عليَّ وقيل: هو بالزاي. وقد أجاد القَطاميُّ٢٥ أيضًا وتغزَّل في قوله:

فهُنَّ[٢٦] ينبذن من قول يُصِبن به مواقعَ الماء من ذي الغُلَّة الصادي

قلتُ: ولهذا قال خالد بن صفوان حين قيل له: أتَمَلُّ الحديث؟ قال: إنَّما يُمَلُّ العتيق. [٢٧] والحديث معشوق الحس بمعونة العقل، ولهذا يُولَع به الصبيان والنساء. فقال: وأي معونة لهؤلاء من العقل ولا عقل لهم؟ قلتُ: ها هنا عقلٌ بالقوة وعقلٌ بالفعل، ولهم أحدهما وهو العقل بالقوة، وها هنا عقلٌ متوسط بين القوة والفعل مُزْمِع،٢٨ فإذا برز فهو بالفعل، ثم إذا استمر[٢٩] العقل بلغ الأفق. ولفرط الحاجة إلى الحديث ما وُضِع[٣٠] فيه الباطل، وخُلِط بالمُحال، ووُصِل بما يُعجِب ويُضحِك، ولا يئول إلى تحصيل وتحقيق، مثل «هزار أفسان»[٣١] وكل ما دخل في جنسه من ضروب الخرافات. والحس شديد اللَّهَج[٣٢] بالحادث

والمُحْدَث والحديث، لأنه قريب العهد بالكون، وله نصيب من الطَّرَافة، ولهذا قال بعض السلف: [٣٣] «حادثوا هذه النفوس فإنها سريعة الدُّثُور»، كأنه أراد اصْقُلوها واجلُوا الصدأ عنها، وأعيدوها قابلةً لودائع الخير، فإنها إذا دَثَرت - أي صَدِئت، أي تغطَّت، ومنه الدِّثار الذي فوق الشعار - لم يُنتفَع بها. والتعجب كله منوطٌ بالحادث، وأما التعظيم والإجلال فهما لكل ما قَدُم إما بالزمان وإما بالدهر، ومثال ما يقدُم بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر التي بَعُد العهد بمبادئها، وسيمتد العهد جدًّا إلى نهاياتها، وأما ما قدُم بالدهر فكالعقل والنفس والطبيعة. فأما الفَلَك وأجرامه المزدهرة في المعانقة العجيبة، ومناطقه الخفية، فقد أخذتْ من الدهر صورةً إلهية، وأحدثت فيما سلف منها صورةً زمانية.

فقال: بقي أن يتصل به[٣٤] نعت العتيق والخَلَق. فكان من الجواب أن العتيق يقال على وجهين: فأحدهما يشار به إلى الكرم والحُسن والعظمة، وهذا موجودٌ في قول العرب «البيت العتيق»، والآخَر يشار به إلى قِدَم من الزمان مجهول. فأما قولهم «عبد عتيق» فهو داخل في المعنى الأول، لأنه أُكْرِم بالعتق وارتفع عن العبودية فهو كريم، وكذلك «وجه عتيق» لأنه أعتقتْه الطبيعة من الدَّمامة والقبح، وكذلك «فرس عتيق».

وأما قولهم «هذا شيء خَلَق» فهو مضمَّن معنيين: أحدهما يشار به إلى أن مادته بالية،[٣٥] والآخَر أن نهاية زمانه قريبة. وكان ابن عباد قال لكاتبه مرة - أعني ابن حسولة[٣٦]- في شيء جرى: «نَعَم، العالَم عتيق

ولكن ليس بقديم»، أي لو كان قديمًا لكان لا أول له، ولمَّا كان عتيقًا كان له أول، ومن أجل هذا الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم، واستحسنوا هذا الإطلاق. وقد سألتُ العلماء البُصَراء عن هذا الإطلاق فقالوا: ما وجدنا هذا في كتاب الله عزَّ وجلَّ ولا كلام نبيهﷺ ولا في حديث الصحابة والتابعين. وسألت أبا(٣٧)سعيد السِّيرافي الإمام: هل تعرف العرب أن معنى القديم ما لا أول له؟ فقال: هذا ما صح عندنا عنهم ولا سبق إلى وهمنا هذا منهم، إلا أنهم يقولون «هذا شيء قديم» و«بنيان قديم» ويسرِّحون(٣٨) وهْمهم في زمانٍ مجهول المبدأ.

فقال: قد مر في كلامك شيء يجب البحث عنه، ما الفرق بين الحادث والمُحْدَث والحديث؟ فكان من الجواب أن الحادث ما يُلْحَظ نفسُه، [والمُحْدَث ما يُلْحَظ] (٣٩) مع تعلُّقٍ بالذي كان عنه محدثًا، والحديث كالمتوسط بينهما مع تعلُّقٍ بالزمان ومن كان منه.

وها هنا شيء آخر وهو الحَدَثانُ والحِدْثان، فأما الأول فكأنه لما هو(٤٠) مضارعٌ للحادث، وأما الحِدْثان فكأنه اسم للزمان فقط، لأنه يقال: «كان كذا وكذا في حِدْثان ما وَلِي الأمير»، أي في أول زمانه، وعلى هذا يدور أمر(٤١) الحدث والأحداث والحادثات والحوادث و«فلان حِدْثُ مُلوكٍ»، كله من ديوان واحد ووادٍ(٤٢) واحد وسَبْك واحد.

قال: ما الفرق بين حَدُث وحَدَث؟ قلتُ: لا فرق بينهما إلا من جهة أن حَدُث تابع لقدُم، لأنه يقال: أخذه ما قدُم(٤٣) وما حدُث. فإذا

قيل لإنسان: حدِّث يا هذا، فكأنه قيل له: صِلْ شيئًا بالزمان يكون به في الحال، لا تقدُّم له من قبل.

ثم رجعتُ فقلتُ: ولفوائد الحديث ما صنَّف «أبو زيد»[٤٤] رسالة لطيفة الحجم في المنظر، شريفة الفوائد في المَخْبَر، تجمع أصناف ما يُقتبَس من العلم والحكمة والتجربة في الأخبار والأحاديث، وقد أحصاها واستقصاها وأفاد بها، وهي حاضرة. فقال: احملها واكتبها، ولا تَمِلْ إلى البخل بها على عادة أصحابنا الغِثاث. قلتُ: السمع والطاعة.

ثم رويتُ أن عبد الملك بن مروان قال لبعض جلسائه: قد قضيتُ الوطر من كل شيء إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزُّهْر على التِّلال[٤٥] العُفْر.[٤٦]

وأحسن من هذا ما قال عمر بن عبد العزيز، قال: والله إني لأشتري [المحادثة] [٤٧] من عُبيد الله[٤٨] بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين. فقيل: يا أمير المؤمنين، أتقول هذا مع تحرِّيك وشدة تحفُّظك وتنزُّهك؟! فقال: أين يُذْهَب بكم؟ والله إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف دنانير! إن في المحادثة تلقيحًا للعقول، وترويحًا للقلب، وتسريحًا للهمِّ، وتنقيحًا للأدب.

قال: صدق هذا الإمام في هذا الوصف، إن فيه[٤٩] هذا كلَّه.

قلتُ: وسمعتُ أبا سعيد[٥٠] السيرافيَّ يقول: سمعتُ ابن السَّرَّاج[٥١] يقول: دخلنا على ابن الرومي[٥٢] في مرضه الذي قَضَى فيه، فأنشدَنا قوله: [٥٣]

ولقــــد ســــئمتُ مـــآربي	فكـــأنَّ أطيبهـــا خبيـــثُ
إلَّا[٥٤] الحــــديثَ فإنــــه	مِثــلُ اســمه أبـدًا حــديثُ

وقال سليمان بن عبد الملك: قد ركبنا الفَارِه،[٥٥] وتبطَّنَّا الحسناء، ولبسنا اللَّيِّن، وأكلنا الطيب حتى أَجَمْناه،[٥٦] وما أنا اليوم [إلى شيء] [٥٧] أحوجُ مني إلى جليس يضع عني مئونة التحفُّظ ويحدثُني بما لا يَمجُّه السمع، ويَطرَب إليه القلب.» وهذا أيضًا حقٌّ وصواب، لأن النفس تَمَلُّ كما أن البدن يَكِلُّ. وكما أن البدن إذا كلَّ طلب الراحة، كذلك النفس إذا ملَّت طلبت الرَّوْح.[٥٨] وكما لا بدَّ للبدن أن يستمدَّ[٥٩] ويستفيد بالجَمام[٦٠] الذاهب بالحركة الجالبة للنَّصَب والضجر، كذلك لا بدَّ للنفس من أن تطلب الرَّوْح عند تكاثُف المَلَل الداعي إلى الحرج،[٦١] فإن البدن كثيف النفْس ولهذا يُرَى بالعين، كما أن النفس لطيفة البدن ولهذا لا توجد إلا بالعقل. والنفس صفاء البدن، والبدن كدَرُ النفس.

فقال: أحسنتَ في هذه الروايات على هذه التوشيحات، وأعجبني[٦٢] ترحُّمك على شيخك أبي سعيد فما كلُّ أحد يَسمح[٦٣]

بهذا في مثل هذا المقام، وما كل أحد يأبه لهذا الفعل. هات مُلْحَة الوداع حتى نفترق عنها، ثم نأخذ ليلة أخرى في شجون الحديث.

قلتُ: حدثنا ابن سيف الكاتب الراوية، قال: رأيتُ جَحْظَة(٦٤) قد دعا بنَّاءً ليبني له حائطًا فحضر،(٦٥)فلما أمسى اقتضى البنَّاءُ الأجرة فتَماكَسا،(٦٦) وذلك أن الرجل طلب عشرين درهمًا، فقال جحظة: إنما عملتَ يا هذا نصفَ يوم وتطلب عشرين درهمًا؟! قال: أنت لا تدري، إني قد بنيت لك حائطًا يبقى مائة سنة. فبينما هما كذلك وَجَب الحائط وسقط، فقال جحظة: هذا عملك الحَسَن؟ قال: فأردتَ أن يبقى ألف سنة؟ قال: لا، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك! فضحك أضحك الله سنَّه!

هوامش

(١) اللسان الذليق: الحاد البليغ.

(٢) «ولا تفرق».

(٣) يريد بتفنن البغداديين: استطرادهم في الكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن.

(٤) هنا كلمة مطموسة بالأصل لا تمكن قراءتها.

(٥) ربح ذهنك: أي فضلته.

(٦) التأطر: التحبُّس والتثنِّي، شبه به وقوف الغبي وتردده في جواب ما يُسأل عنه.

(٧) التهادي: المشي الرفيق في تمايل.

(٨) في الأصل: «أرتئب»، وهو تحريف.

(٩) قرافه: أي ارتكابه، يقال: قارف الذنب واقترفه، إذا خالطه.

(١٠) النفاق ضد الكساد.

(١١) الجدد بالتحريك: ما استوى من الأرض لا وَعْث فيه ولا جبل ولا أَكَمة، شبه به القول الذي لا عوج فيه ولا التواء.

(١٢) «بقية».

(١٣) لعله: مواربة.

(١٤) الانحياش: الانقباض.

(١٥) «كثير».

(١٦) «يخشون».

(١٧) الفسولة: الخسة والضعف.

(١٨) انخزالهم: أي انقطاعهم وتخلفهم عن طلب المعالي.

(١٩) انظر التعريف بابن السماك [حاشية رقم ٧٨ في المقدمة].

(٢٠) قال: أي الوزير.

(٢١) عبارة الأصل «خاصة سيَّما إذا كان من طيران العقل.»

(٢٢) ذو الرمة هو غيلان بن عقبة بن نهيس، أحد فحول الشعراء الأمويين، تُوفِّي سنة سبع عشرة ومائة عن أربعين سنة.

(٢٣) رخيم الحواشي: ناعمها، والهراء: المنطق الكثير، والنزر: القليل.

(٢٤) هذا: أي قوله في البيت السابق «نزر».

(٢٥) القطامي لقب غلب على عمير بن شبيم التغلبي من بني جشم بن بكر، وهو شاعر إسلامي مُقلٌّ، وكان نصرانيًّا.

(٢٦) «فهل».

(٢٧) العتيق: القديم.

(٢٨) استعار الإزماع هنا لمعنى التهيؤ والاستعداد للظهور.

(٢٩) استمر: أي قوي واستحكم، من المرة بكسر الميم وتشديد الراء، وهي القوة.

(٣٠) ما وضع: أي وضع، ف «ما» هنا زائدة، وهو تعبير شائع الاستعمال في كلام المؤلف.

(٣١) في الأصل: «حسبان»، وهو تحريف. وهزار أفسان كتاب في الخرافات نقل ابن النديم معنى هذا الاسم ألف خرافة. ويستفاد مما ذكره من السبب في تأليفه أنه أصل لكتاب «ألف ليلة وليلة» المعروف، فقد ذكر أن بعض الملوك كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد، فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها «شهرزاد»، فلما حصلت معه ابتدأت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة … إلخ.

(٣٢) «الكمهج».

(٣٣) يُرْوَى هذا الحديث عن الحسن.

(٣٤) به: أي بالحديث الذي سبق الكلام فيه.

(٣٥) «سايلة»، وفيه تحريف وقلب.

(٣٦) في الأصل: «ابن حسول». وقد جاء اسمه في معجم الأدباء: أبا القاسم بن حسولة، ومرة يسميه أبا القاسم الحسولي، وذكر في بعض المواضع أنه كان يعرض الأوراق على الصاحب بن عباد، فالظاهر أنه هو المراد.

(٣٧) في الأصل: «أنا»، وهو تحريف. وأبو سعيد السيرافي هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، النحوي المعروف، سكن بغداد وتولى القضاء بها، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، وتُوفِّي سنة ثمان وستين وثلاثمائة.

(٣٨) «ويشرحون» بالشين.

(٣٩) هذه العبارة ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها.

(٤٠) لما هو: أي موضوع لما هو.

(٤١) وردت هذه الكلمة في الأصل بعد قوله «الحدث»، كما أن راءها كُتِبت في الأصل «نونًا». واستقامة الكلام تقتضي ما أثبتنا.

(٤٢) في الأصل: «وهو»، ولا معنى له.

(٤٣) أخذه ما قدُم وما حدُث: أي أخذته الهموم والأفكار القديمة والحديثة.

(٤٤) الراجح أنه يريد أبا زيد أحمد بن سهل البلخي، كان من المتكلمين الفلاسفة الأدباء، وكان يقال له «جاحظ خراسان»، ألف كتبًا كثيرة منها: كتاب فضيلة علم الأخبار، وكتاب النوادر في فنونٍ شتى، ولعل أحد هذين الكتابين هو الذي يشير إليه أبو حيان. وكان أبو حيان يُعجَب به، وقد قال فيه: «إنه لم يتقدم له شبيه في الأعصر الأُوَل، ولا يُظَنُّ أنه يوجد له نظير في مستأنَف الدهر.» مات سنة ٣٢٢ عن سبع أو ثمانٍ وثمانين سنة.

(٤٥) في الأصل: «الكلال»، وهو تحريف لا يستقيم به المعنى. وفي رواية: «على الكثبان»، وهو بضم الكاف بمعنى التلال كما أثبتنا.

(٤٦) في الأصل: «العقر» بالقاف، وهو تصحيف.

(٤٧) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل.

(٤٨) هو أحد الفقهاء السبعة، كان إمامًا عالمًا وكان أعمى، قال البخاري إنه مات سنة ٩٤ وهذا لا يتفق وخلافة عمر بن عبد العزيز، وقال ابن المديني سنة ٩٩ وهذا متفق مع هذه القصة.

(٤٩) فيه: أي في الحديث.

(٥٠) انظر التعريف بأبي سعيد السيرافي [حاشية رقم ٣٧ في الليلة الأولى].

(٥١) هو أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج، أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد، وأخذ عنه جماعة منهم أبو سعيد السيرافي، وله التصانيف المشهورة في النحو، وتُوفِّي سنة ست عشرة وثلاثمائة.

(٥٢) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي الشاعر المعروف، وُلِد سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد، وتُوفِّي سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقيل غير ذلك.

(٥٣) ورد من هذا اللفظ في الأصل القاف والواو وحدهما.

(٥٤) «بلا».

(٥٥) في الأصل: «القاره» بالقاف، وهو تصحيف. والفاره من الدواب: النشيط الحادُّ القوي.

(٥٦) أجمناه: أي كرهناه ومللناه من المداومة عليه.

(٥٧) لم ترد هذه التكملة التي بين مربعين في الأصل، وقد أثبتناها عن «عيون الأخبار».

(٥٨) الروح بفتح الراء: الراحة.

(٥٩) «يستند».

(٦٠) الجمام بفتح الجيم: الراحة.

(٦١) «الجرح».

(٦٢) يُلاحَظ أنه لم يرد في هذه النسخة عند ذكر أبي سعيد السيرافي قوله «رحمه الله»، فلعله قد سقط من الناسخ هناك.

(٦٣) «كسمح».

(٦٤) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك الشاعر المعروف، كان من ظرفاء عصره وكان صاحب فنون ونوادر، وُلِد سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة، وتُوفِّي سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وقيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة بواسط، ودُفِن ببغداد.

(٦٥) في الأصل: «وحضر بنا»، و«بنا» لا معنى لها.

(٦٦) تماكسا: أي تشاحًّا في الأجرة، يقال: ماكسه في البيع ونحوه، إذا شاحَّه فيه واستحطَّه الثمن واستنقصه إياه.

الليلة الثانية

ثم حضرتُ ليلة أخرى، فقال: أول ما أسألك عنه حديث أبي سليمان [١] المنطقيِّ كيف كان كلامه فينا؟ وكيف كان رضاه عنا ورجاؤه[٢] بنا؟ فقد بلغني أنك جارُه ومُعاشِرُه، ولصيقه ومُلازِمُه، وقافي خطوِه وأثرِه، وحافظ غاية خبره.

فقلتُ: والله أيها الوزير ما أعرف اليوم ببغداد - وهي الرُّقعة الفسيحة الجامعة، والعَرْصة[٣] العريضة الغاصَّة - إنسانًا أشكَرَ لك، وأحسنَ ثناءً عليك، وأذهبَ في طريق العبودية معك؛ منه. ولقد سَكَر[٤] الآذان وملأ البقاع بالدعاء الصالح رفعه الله إليه، والثناء الطيب أشاعه الله. وقد عمل رسالةً في وصفك ذكر فيها ما آتاك الله وفضَّلك به من شرف أعراقك، وكرم أخلاقك، وعلوِّ همتك، وصدق حدسك، وصواب رأيك، وبركة نظرك، وظهور غَنائك، وخِصب فِنائك، ومحبة أوليائك، وكمَد أعدائك، وصَباحة وجهك، وفصاحة لسانك،[٥] ونُبْل حَسَبك،[٦] وطهارة غيبك،[٧] ويُمْن نقيبتك، ومحمود شيمتك، ودقيق ما أودع الله فيك، وجليل ما نشر الله عنك، وغريب ما يُرَى منك، وبديع ما يُنتَظر لك من المراتب العليَّة، والخيرات الواسعة، والدولة الوادعة، وهي تصل إلى مجلسكم في غد أو بعده إن شاء الله. وكان هذا منه [قيامًا] [٨] بالواجب، فإنك نَعَشْت روحه وكان خَفَت، وبصَّرتَه وكان عَشِي، وأنبتَّ جناحه وكان قد حُصَّ[٩] بالرسم الذي وصل إليه، لأنه كان قَنِط منه وهو

قَنُوطٌ، وسمعته يقول مرارًا: من يذكرني وقد مضى المَلِك[١٠]– رضوان الله عليه – ومن يَخلُفه في مصلحتي، ويجري على عادته معي؟ ومن يسأل عني ويهتم بحالي؟ هيهات! فُقِد والله بالأمس من[١١] يطول تلفُّتُنا إليه، ويدوم تلهُّفُنا عليه.

إن الزمان بمِثلِه لَبخيلُ

كان والله شمس المعالي، وغرة الزمن، وحامل الأثقال، وملتقَى[١٢] القُفَّال، ومحقِّق الأقوال والأفعال، ومُجري لُجُم[١٣] الأحوال على غاية الكمال. كان والله فوق المتمنَّى، وأعلى من أن يلحق به نظير، أو يوجد له مماثل. لذَّتُه لمحٌ[١٤] في تهذيب الأمور، وهواه وَقْفٌ على صلاح من في إصلاحه صلاح ونفي من في نفيه تطهير. ولولا أن عمرالفتى الأَرْيَحِيِّ قصير لكِنَّا لا نُبْتَلَى بفقده، ولا نتحرق على فَوْت ما كان لنا بحياته، الدنيا ظَلُوم والإنسان فيها مظلوم.

فلما وصل إليه ذلك الرسم – وهو مائة دينار – وحاجتُه ماسَّة إلى رغيف، وحولُه وقوَّتُه قد عجزا [١٥] عن أجرة مسكنه، وعن وجه غدائه وعَشائه؛ عاش.

ومما زاد في حديث الرسم أنه وصل إليه مع العذر الجميل، والوعد العريض الطويل. ولو رأيته وهو يترفَّل ويتحنَّك[١٦] لعجبتَ.

فقال: سررتَني لسروره بما كان مني، وإن عشتُ كففتُ الزمان عن ضيمه، وفَلَلْتُ[١٧]عنه حدَّ نابه. ولولا الضَّمانة[١٨] مانعةٌ[١٩] عن نفسه،

ومُتَمنِّع معها بنفسه؛ لغَشِي هذا المجلس فيكم[٢٠] فاستأنس وآنس، ولكنه على حال لا مُحتمَل له عليها، ولا صبر عليه معها. أتحْفظ ما قال البديهيُّ فيه؟ قلت: نعم. قال: أنشِدنيه. فرويتُ:

أبــو ســليمان عــالِمٌ فَطِــن   مــا هــو فــي عِلمِــه بمنــتقَصِ
لكــنْ تطيَّــرتُ عنــد رؤيتــه   مــن عَــوَرٍ مُــوحِش ومــن بَــرَصِ
وبابنِــه مِثــلُ مــا بوالــده   وهــذه قصــة مــن القصــصِ

فقال: قاتله الله! فلقد أَوجَع وبالَغ، ولم يحفظ ذِمام العلم، ولم يقضِ حق الفتوة. حدِّثني عن درجته في العلم والحكمة، وعرِّفني محله فيهما من محلِّ أصحابنا ابن زرعة[٢١] وابن الخَمار[٢٢] وابن السمح[٢٣] والقومسي[٢٤] ومسكويه[٢٥] ونظيف[٢٦] ويحيى بن عدي[٢٧] وعيسى بن علي.[٢٨] فقلتُ: وصف هؤلاء أمر متعذِّر، وبابٌ من الكُلفة شاقٌّ، وليس مثلي من جَسَر عليه وبلغ الصواب منه، وإنما يصفهم من نال درجة كلِّ واحد منهم، وأشرف بعد ذلك عليهم فعرف حاصلَهم وغائبهم، وموجودَهم ومفقودهم.

فقال: هذا تحايلٌ لا أرضاه لك، ولا أُسْلمه في يدك، ولا أحتمله منك، ولم أطلب إليك أن تعرِّفهم[٢٩] بما هو معلوم الله منهم، ومُوهَبُه[٣٠] لهم، ومَسُوقُه إليهم، ومخلوعه عليهم، على الحد الذي لا مزيد فيه ولا نقص. إنما أردتُ أن تذكر من كل واحد ما لاح منه لعينيك،

وتجلَّى لبصيرتك، وصار له به صورةٌ في نفسك، فأكثر وصف الواصفين للأشياء على هذا يجري وإلى هذا القدر ينتهي.

فقلتُ: إذا قُنِع مني بهذا فإني أخدُم بما[٣١]عندي، وأبلغ فيه أقصى جهدي. أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظرًا، وأقْعرهم غوصًا، وأصفاهم فكرًا، وأظفرهم بالدرر، وأوقفُهم على الغُرَر. مع تقطُّع في العبارة، ولُكْنةٍ ناشئة من[٣٢] العُجْمة، وقلة نظرٍ في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحُسن استنباط للعويص، وجُرأة على تفسير الرمز، وبخلٍ بما عنده من هذا الكنز.

وأما ابن زرعة فهو حَسَن الترجمة، صحيح النقل، كثير الرجوع إلى الكتب، محمود النقل إلى العربية، جيد الوفاء بكل ما جلَّ من الفلسفة، ليس له في دقيقها منفذ[٣٣] ولا له من لغزها مأخذ، ولولا توزُّع[٣٤] فكره في التجارة، ومحبَّتُه[٣٥] في الربح، وحرصُه على الجمع، وشدَّته على المنع؛ لكانت قريحته تستجيب له، وغائمته[٣٦] تَدُرُّ عليه، ولكنه مُبدَّد مُندَّد، وحب الدنيا يُعمِي ويُصِمُّ.

وأما ابن الخَمار ففصيح، سَبْط الكلام، مديد النَّفَس، طويل العِنان، مَرْضيُّ النقل، كثير التدقيق، لكنه يخلط الدُّرَّة بالبعرة،[٣٧] ويُفسد السمين بالغَثِّ، ويَرْقَع الجديد بالرَّثِّ. ويَشِين[٣٨] جميع ذلك بالزَّهْو والصَّلَف، ويَزِيد في الرَّقْم[٣٩] والسَّوْم، فما يجديه[٤٠] من الفضل يرتجعه بالنقص،

وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف، وما يصفِّيه بالصواب يكدِّره بالإعجاب. ومع هذا يُصْرَع(٤١) في كل شهر مرة أو مرتين.

وأما ابن السمح فلا ينزل بفنائهم، ولا يُسْقَى من إنائهم، لأنه دونهم في الحفظ والنقل والنظر والجَدَل، وهو بالمتَّبع(٤٢) أشبه، وإلى طريقة الدَّعِيِّ أقرب. والذي يحطُّه عن مراتبهم شيئان: أحدهما بلادة فهمه، والآخَر حرصُه على كسبه، فهو مستفرَغ مُحِّ(٤٣) البال مأسور العقل، يأخذ الدانق(٤٤) والقيراط والحبة والطَّسُّوج والفَلْس بالصرف والوزن والتطفيف. والقلب متى لم يُنَقَّ من دنس الدنيا لم يَعْبَقْ بفوائح الحكمة، ولم يتفوَّحْ(٤٥) برَدْع الفلسفة، ولم يَقبَل شعاعَ الأخلاق الطاهرة المفضية إلى سعادة الآخرة.

وأما القُومَسيُّ أبو بكر فهو رجل حسَن البلاغة، حلو الكناية، كثير الفِقَر العجيبة، جمَّاعةٌ للكتب الغريبة، محمود العناية في التصحيح والإصلاح والقراءة، كثير التردد(٤٦) في الدراسة. إلا أنه غير نصيح في الحكمة، لأن قريحته ترابية، وفكرتَه سحابية، فهو كالمقلِّد بين المحققين، والتابع للمتقدمين، مع حبٍّ للدنيا شديد، وحسد لأهل الفضل عتيد.

وأما مِسْكَوَيْه ففقير بين أغنياء، وعَيِيٌّ(٤٧) بين أَبْيِناء،(٤٨) لأنه شاذٌّ. وأنا أعطيته في هذه الأيام «صفو الشرح» لإيساغوجي وقاطيغورياس من تصنيف صديقنا بالرَّيِّ. قال: ومن هو؟ قلت: أبو القاسم الكاتب غلام

أبي الحسن العامري. وصحبه معي، وهو[٤٩] الآن لائذ بابن الخَمار، وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ، ولكنه مُحَسٌّ[٥٠] في هذا الوقت للحسرة التي لحقتْه فيما فاته من قبل.

فقال: يا عجبًا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ورأى من كان عنده وهذا حظه! قلتُ: قد كان هذا، ولكنه كان مشغولًا بطلب الكيمياء مع أبي الطيِّب الكيميائيِّ الرازيِّ، مملوك[٥١] الهمة في طلبه والحرص على إصابته، مفتونًا[٥٢] بكتب أبي زكرياء وجابر بن حيَّان، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خِزانة كتبه. هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته[٥٣] الضرورية والشهوية. والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة،[٥٤] والفُرَص بُرُوق تأتلق،[٥٥] والأوطار في غرضها تجتمع وتفترق، والنفوسُ على فواتها تذوب وتحترق. ولقد قَطَن العامريُّ[٥٦] الرَّيَّ خمس سنين جُمْعَة[٥٧] ودرَّس وأملى وصنَّف وروى، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ولا وعى مسألة، حتى كأنه بينه وبينه سَدٌّ. ولقد تجرَّع على هذا التواني الصَّابَ والعلقم، ومضغ بفمه حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كلُّه. وبعدُ، فهو ذكيٌّ حسَن الشِّعر نقيُّ اللفظ، وإن بقي فعساه يتوسط هذا الحديث، وما أرى ذلك مع كَلَفه بالكيمياء، وإنفاق زمانه وكدِّ بدنه[٥٨] وقلبِه في خدمة السلطان، واحتراقِه في البخل بالدَّانَق والقيراط والكِسْرة والخرقة. نعوذ بالله من مدح الجُود باللسان وإيثار الشُّحِّ بالفعل، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل! وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بُلِيَ به، والبلاء المعصوبُ[٥٩] بناصية من غُلِب عليه.

وأما عيسى بن عليٍّ فله الذَّرْع الواسع والصَّدْر الرحيب في العبارة، حجَّة في النقل والترجمة، والتصرف في فنون اللغات، وضروب المعاني والعبارات. وقد تصفَّح ما لم يتصفح كثير من هذه الجماعة، وقلَّب بخزائن الكبراء والسادات، وأُعِين(٦٠) بالعمر الطويل والفراغ المديد. ولكنه مع هذا الفضل الكثير بخيل بكلمة واحدة، ونَصيحٌ(٦١) على ورقة فارغة، لسودائه الغالبة عليه، ومزاجِه المتشيِّط(٦٢) بها.

وأما نظيف فإنه متوسط، لا يَسْفُل(٦٣) عن أقلهم حظًّا ولا يعلو على أكثرهم نصيبًا. ويده في الطب أطول، ولسانه في المجالس أجوَل، ومعه رفق وحِذْق في الجدل.

وأما يحيى بن عدي فإنه كان شيخًا ليِّن العريكة، فَرُوقَة،(٦٤) مشوَّه(٦٥) الترجمة، رديء العبارة، لكنه كان متأتِّيًا(٦٦) في تخريج المختلفة. (٦٧) وقد برع في مجلسه أكثر هذه الجماعة، ولم يكن يلوذ(٦٨) بالإلهيات، كان ينبهر(٦٩) فيها، ويَضِلُّ في بِساطها، ويَستعجم عليه ما جَلَّ فضلًا عما دقَّ منها، وكان مبارك المجلس.

فقال: ما قصَّرتَ في وصف هذه الطائفة، وتقريب البغية التي كانت داخلة(٧٠) في نفسي منهم.

حدِّثني عن مذاهبهم في النَّفْس وما يقولون فيها، وإلى أين ينتهون من يقينهم بشأنها، وكيف ثقتهم ببقائها بعد فَناء أبدانها.

فقلتُ: علمتَ أني لا أجد [٧١] ما أريد من حديث النفس عند أصحابنا الباقين، أعني أبا الوفاء عليَّ بن يحيى السامريَّ والمعرِّيَّ والقُوهِيَّ والصوفيَّ وغلامَ زحل [٧٢] والصَّاغانيَّ، وكذلك غيرهم أعني ابن عبدان وابن يعقوب وابن لالا وابن بُكُش[٧٣] وابن قوسين[٧٤] والحرَّانيَّ، لأن هؤلاء ليسوا يحرثون هذه الأرض، ولا يَرقُمون هذا البَزَّ، ولا يجهِّزون هذا المتاع ولا يتعاملون به؛ هذا ينظر في المرض والصحة والداء والدواء، وهذا يعتبر الشمس والقمر، وليس فيهم من يذكر كلمة في النفس والعقل والإله، حتى كأنه محظور عليهم أو قبيح عندهم.

وقلتُ: إن هؤلاء القوم – أعني الطائفة الأولى – متفقون في الاعتراف بأنها جوهر باقٍ خالد. فأما اليقين فما الحكم به لهم، لأنهم لو كانوا على ذلك – أعني واجدين لليقين، ذائقين لحلاوته – لمَا كدحوا للدنيا التي تزول عنهم ويزولون عنها مضطرِّين. فلو أنهم كانوا على ثلج[٧٥] من النفس، ويقظة من العقل، واستبصار من القلب، وسكون من البرهان؛ لمَا تعجَّلوا هذه اللذَّات المنقوصة، والأوطار الفاضحة، والشهوات الخسيسة، مع التَّبِعات الكثيرة والأوزار الثقيلة. ولا عجب فإنه إذا كانت الرَّكَاكَة[٧٦] العائقة تمنع الإنسان من العَدْو والسَّفَر ومن سرعة الخَطْو لأن الحركة قد بَطَلت بالرَّكاكة الداخلة عليه في أعضائه وآلاتِه، فأيُّ عجب من أن تكون النفس التي استعبدتْها الشهوات الغالبة،[٧٧] والعقيدة الرديئة، والأفعال القبيحة؛ مَعُوقةً ممنوعةً من الصعود إلى مَعانق الفَلَك، ومَخارق النجوم، وعالَم الرُّوح، ومَقعد الصدق، ومقام الأمن، ومحلِّ الكرامة، ومَرَاد الخُلد، وبلد الأبد، ومَعانِ[٧٨] السَّرْمَد.

قال: هذا كلام تامٌّ، وسأسألك بعد هذا عن النفس وما تحفظ عنهم فيها. لكن تَمِّم لي ما كنا فيه، كيف عِلْم أبي سليمان بالنجوم وأحكامها؟ قلتُ: لا يتجاوز التقويم. ثم قال: فما تقول في الأحكام؟ قلتُ: أنشدت منذ أيام:

علـم النجـوم علـى العقـول وبـالُ   وطِـلاب حـقٍّ لا يُنـال محـالُ

وقلتُ أيضًا: علم الأحكام لا يجوز في الحكمة أن يكون مدرَكًا مكشوفًا مخاطَبًا به معروفًا، ولا يجوز أن يكون مقْنُوطًا منه مُطَّرحًا مجهولًا، بل الحكمة توجب أن يتوسط هذا الفنُّ بين الإصابة والخطأ حتى لا يُستغنَى عن اللِّيَاذ(٧٩) بالله أبدًا، ولا يقع اليأس من قِبَله أبدًا. وعلى هذا سخَّر الله الإنسان وقَيَّضه،(٨٠) وخيَّره بين الأمور وفوَّضه، ومَنَع(٨١) من الثقة والطمأنينة إلا في معرفته وتوحيده وتقديسه وتمجيده والرجوع إليه. انظر إلى حديث الطب فإن هذه الصناعة توسَّطت الصواب والخطأ، لتكون الحكمة سارية فيها، واللطف معهودًا بها، لأن الطب كما يبرأ به العليل قد يَهْلِك معه العليل، فليس بسبب أن بعض المُدَبَّرين بالطب هلك لا ينبغي أن يُنْظَر في الطب، وليس بسبب أن بعض المرضى بَرَأ بالطب وجب أن يُعَوَّل عليه. انظر إلى هذا التوسط في هذه الحال، ليكون التدبير الإلهي والأمر الرُّبوبيُّ نافذَيْن في هذه الخلائق بوساطة ما بينه وبينها، ولتكون المصلحة بالغة غايتها. وهذه سياسة دار الفَناء الجامعة لسكَّانها على البأساء والنعماء. وهكذا، فانظر إلى حديث البحر وركوب البأس المتيقَّن فيه، وجَوْب الطول والعرض وإصابة الربح

وطلب العلم، كيف توسَّط بين السلامة والعَطَب، والنجاة والهَلَكة. فلو استمرت السلامة حتى لا يوجد من يَغرَق ويَهْلِك لكان في ذلك مَفْسَدَة عامة، ولو استمرت الهَلَكة حتى لا يوجد من يَسْلم وينجو لكان في ذلك مفسدة عامة، فالحكمة إذن ما توسَّط هذا الأمرُ حتى يشكر اللهَ من ينجو، ويُسْلم نفسه لله من يهلك.

قلتُ: وبعد هذا، فهذا العلم[٨٢] عويص غامض عميق، وقد فُقِد العلماء به المُلْهَمون فيه. ومُعَوَّل أهله على الحَدْس والظَّنِّ، وعلى بعض التجارب القديمة التي تَكذِب مرَّة وتَصْدُق مرة، وبالصدق يَعتبِر الإنسان وبالكذب يَعْرَى من فوائده، فالنقص قد دخله والخلل قد شَمِله، وليس يجب أن يُوهَب له زمانٌ عزيز، فوراءه ما هو أهم منه وأجدر، وأرشد وأهدَى.

قال: هذا حسن. حدِّثني بالذي أفدتَ اليوم. قلتُ: قال أبو سليمان: العلم صورة المعلوم في نفس العالِم، وأنفُس العلماء عالمةٌ بالفعل، وأنفُس المتعلِّمين عالمة[٨٣] بالقوة، والتعليم هو إبراز ما بالقوة إلى الفعل، والتعلُّم هو بروز ما هو بالقوة إلى الفعل. والنفس الكليَّة عالمةٌ بالفعل، والنفس الجزئية عالمة بالقوة، وكل نفس جزئية تكون أكثر معلومًا وأحكَمَ مصنوعًا فهي أقرب إلى النفس الكليَّة تشبُّهًا بها وتَصَيُّرًا لها. [٨٤]

قال: هذا في الحُسن نهاية، وقد اكتهل الليل وهذا يحتاج إلى بدء زمان، وتفريغ قلب، وإصغاءٍ جديد. هاتِ خاتمة المجلس.

قلتُ له: قرأنا يوم الجمعة على أبي عبيد الله المرزبانيِّ لعبد الله بن مُصْعَب:

إذا استمتعتُ منك بلحظ طرفي حَيِي نصفي ومات عليك نصفي
تلـذَّذُ مقلتي ويذوب جسمي وعيشي منك مقرونٌ بحتفي
فلو أبصرتني والليل داجٍ وخدِّي قد توسَّط بطن كفِّي
ودمعي يستهلُّ من المآقي إذن لرأيتَ ما بي فوق وصفي

وانصرفتُ.

هوامش

(١) أبو سليمان هو محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السجستاني أكبر علماء بغداد في عصر أبي حيان في المنطق والحكمة والفلسفة، كان مجلسه حافلًا بالعلماء والحكماء، واسع الاطلاع في الفلسفة اليونانية، وكان به عَوَرٌ وبرص يمنعانه من غشيان مجالس الأمراء والوزراء، وهو أكبر شيوخ أبي حيان في الفلسفة. مات على أغلب الظن في السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع الهجري.

(٢) ورجاؤه بنا: أي رجاؤه المعقود بنا. وفي الأصل: «وأرجاؤه»، والألف زيادة من الناسخ.

(٣) العرصة: الساحة الواسعة.

(٤) سكر الآذان: ملأها. وفي الأصل: «شكر» بالشين، وهو تحريف.

(٥) في الأصل: «رخم لسانك»، وقوله «رخم» من زيادات النساخ، إذ لا معنى لها ولا تستقيم مع السياق.

(٦) «وتقلحسك».

(٧) «عيبك».

(٨) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، والسياق يقتضي إثباتها.

(٩) يقال «حص الريش والشعر»، إذا انتثرا. وكنى بحص الجناح عن الفقر، وبنباته عن الغنى.

(١٠) الظاهر أنه يريد بالملك «عضد الدولة» البويهي.

(١١) عبارة الأصل «مر بطول تلقيننا»، وهي محرفة في جميع ألفاظها.

(١٢) في الأصل «ومكتنى الأقفال»، وهو تحريف. والقُفَّال: المسافرون، سُمُّوا بذلك تفاؤلًا بقفولهم إلى أوطانهم، أي رجوعهم إليها.

(١٣) استعمل اللجم في معنى الخيل مجازًا. وفي الأصل: «لخماء»، وهو تحريف.

(١٤) اللمح: النظر الخفيف. والمراد بهذا اللفظ وصفه بالفطنة والأَلْمَعِية، حتى إنه لينظر إلى الأمور نظرًا خفيفًا فيكفيه ذلك عن التأمل والإمعان.

(١٥) ورد في الأصل بعد قوله «عجزا» تاء وكاف وميم، ولم نتبين الصواب في هذه الحروف الثلاثة، ولعلها زيادة من الناسخ.

(١٦) يترفل: أي يجر ذيله ويتبختر، ويتحنك: أي يدير العمامة من تحت حنكه. كنى بالترفل والتحنك عن السرور والابتهاج بما وصل إليه من صلة الوزير.

(١٧) «قلت».

(١٨) الضمانة: العاهة في الجسد. وفي الأصل: «الجمانة»، وهو تحريف.

(١٩) مانعة عن نفسه: أي إن هذه العاهة مانعة لنا عن مجالسته، ومتمنِّع معها بنفسه: أي إنه هو ممتنع بنفسه مع هذه العاهة عن مجالستنا.

(٢٠) «بكم».

(٢١) ابن زرعة هو أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة، عالم نصراني من علماء بغداد، برز في المنطق والفلسفة، ونقل عدة مصنفات إلى العربية، وتُوفِّي كما روى القفطي سنة ٣٩٨.

(٢٢) ابن الخمار هو أبو الخير الحسن بن سوار، كان كذلك نصرانيًّا طبيبًا فيلسوفًا، نقل كتبًا كثيرة من السريانية إلى العربية.

(٢٣) ابن السمح هو أبو علي بن السمح، من مناطقة بغداد، مات سنة ٤١٨.

(٢٤) القومسي هو أبو بكر القومسي المتفلسف، قال أبو حيان: إنه كتب لنصر الدولة عامين.

(٢٥) مسكويه هو أبو علي أحمد بن محمد مسكويه الخازن، كان عارفًا بالفلسفة، ألَّف كتاب تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم، وكان قيِّمًا على خزانة كتب ابن العميد ثم قيِّمًا على خزانة كتب عضد الدولة، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظُم عنده شأنه، ومات سنة ٤٢١.

(٢٦) نظيف هو القس نظيف النفس الرومي، كان عالمًا جيد النقل من اليوناني إلى العربي، وكان من أفاضل الأطباء، وعيَّنه عضد الدولة في البيمارستان الذي أنشأه ببغداد.

(٢٧) يحيى بن عدي أبو زكريا، كان نصرانيًّا منطقيًّا، أخذ الفلسفة عن أبي نصر الفارابي وبشر بن متى، وله مؤلفات كثيرة، مات سنة ٣٦٤.

(٢٨) عيسى بن علي هو أبو القاسم عيسى بن الوزير الكبير علي بن عيسى الجراح، كان عيسى عالمًا فاضلًا، قرأ المنطق على يحيى بن عدي، كما درس الفقه والأدب على علماء عصره، وعمل في ديوان الرسائل، ومات ببغداد سنة ٣٩١. وقد نقل عنه أبو حيان كثيرًا من أقواله في الحكمة في المقابسات.

(٢٩) «نعنفهم».

(٣٠) موهبه لهم: أي ما أعده الله لهم، يقال: أوهبت له الشيء، إذا أعددته له.

(٣١) في الأصل: «جما»، وهو تحريف.

(٣٢) «مع».

(٣٣) «منيدا».

(٣٤) «تورع».

(٣٥) «ونخبته».

(٣٦) في الأصل: «وغايته تندو»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين. والغائمة السحابة.

(٣٧) «البقرة».

(٣٨) «ويشن».

(٣٩) يزيد في الرقم: أي يزيد في حديثه ويكذب. ويريد بالزيادة في السوم: المغالاة، وأصل السوم في المبايعة عرض السلعة للبيع.

(٤٠) في الأصل: «يبديه»، وسياق العبارة يقتضي ما أثبتنا بدليل مقابلته بقوله بعد «يرتجعه ... إلخ.»

(٤١) «يصرح» بالحاء.

(٤٢) «بالمسبع».

(٤٣) مح البال: أي خالصه.

(٤٤) الدانق سدس الدرهم، والقيراط نصف دانق، والحبة وزن شعيرتين، والطَّسُّوج ربع الدانق.

(٤٥) في الأصل: «ولم يتفرخ بربع»، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يرجحه قوله قبلُ: «لم يعبق بفوائح.» وردع الطيب: أثره في الثوب والبدن.

(٤٦) «التبرد».

(٤٧) وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحرفين الأخيرين من النقط.

(٤٨) «أنبياء».

(٤٩) في الأصل: «وهو الآن لا يكيلين الخمار.» وما أثبتناه عن معجم الأدباء في ترجمة ابن مسكويه.

(٥٠) «محب في هذا الوقت للحيرة»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٥١) «المملوك».

(٥٢) «مقترنًا».

(٥٣) «في الحاجات به»، وفي هذه الكلمة حروف زائدة من الناسخ. والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(٥٤) «قائمة».

(٥٥) «تكثلق».

(٥٦) العامري هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامري، فيلسوف معاصر لابن سينا، وكانت بينهما مباحثات في الفلسفة، ومن جملة كتب ابن سينا كتاب الأجوبة لسؤالات سأله عنها أبو الحسن العامري. ويقول أبو حيان في المقابسات إنه كان من أعلام عصره، وكان متبحرًا في الفلسفة اليونانية منكبًّا على كتب أرسطو وله على بعضها شروح، وقد اتصل بابن العميد وقرأا معًا عدة كتب، وتُوفِّي نحو سنة ٣٨٠.

(٥٧) جمعة: أي مجموعة.

(٥٨) «وكذبكنه».

(٥٩) «المنصوب» بالنون.

(٦٠) «وأهين».

(٦١) نصيح على ورقة فارغة: أي إنه بلغ من شدة بخله بعلمه أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه حتى في ورقة فارغة يأخذها منه، وهم يصفون البخيل بالنصح على ماله لأنه لا ينخدع عنه فيجود به. أو لعله شحيح.

(٦٢) المتشيط: الملتهب. وبها: أي بسبب السوداء.

(٦٣) «لا يسلل».

(٦٤) الفروقة: الشديد الفزع.

(٦٥) في الأصل: «موشى»، وفيه قلب وتحريف.

(٦٦) متأتيًا: أي مترفِّقًا متلطِّفًا.

(٦٧) في تخريج المختلفة: أي المسائل المختلفة.

(٦٨) «يكون».

(٦٩) الانبهار: تتابع النفَس واطِّراده من التعب والإعياء.

(٧٠) وردت هذه الكلمة في الأصل مؤخَّرة عن هذا الموضع، والسياق يقتضي إثباتها هنا.

(٧١) هنا في الأصل راء وجيم بعد قوله «لا»، ولعلهما زيادة من الناسخ.

(٧٢) غلام زحل: لقب لأبي القاسم عبيد الله بن الحسن، كان منجِّمًا حاذقًا، تُوفِّي سنة ٣٧٦.

(٧٣) في الأصل: «بكس» بالسين. وقد ورد اسمه في أخبار الحكماء للقفطي بالشين.

(٧٤) ابن قوسين: طبيب مشهور في زمانه، كان يهوديًّا وأسلم، وعمل مقالة في الرد على اليهود.

(٧٥) ثلج النفس: راحتها واطمئنانها وسكونها إلى الشيء.

(٧٦) الركاكة: الضعف. أو لعل صوابه: «الزمانة»، إذ الركاكة كثيرًا ما تُستعمَل في ضعف العقل والرأي، والمراد هنا ما يخص البدن كما يقتضيه سياق ما يأتي.

(٧٧) «العالية».

(٧٨) المعان: المنزل.

(٧٩) «الكيام».

(٨٠) في الأصل: «وقيض له»، واللام زيادة من الناسخ.

(٨١) ورد في الأصل قبل هذه الكلمة «حاء وياء»، ولم نتبين الصواب فيهما، ولعلهما من زيادات النساخ لاستقامة الكلام بدونهما.

(٨٢) يريد علم النجوم وأحكامها.

(٨٣) في الأصل: «علامة».

(٨٤) يقال: تصيَّر أباه، إذا نزع إليه في شبهه به.

الليلة الثالثة

قال لي ليلة أخرى: حدَّثني أبو الوفاء عنك حديث الخراساني، فأريد أن أسمعه منك. قلتُ: كنتُ قائمًا عشية على زَنْبرية[1] الجسر في [الجانب] الشرقي والحاجُّ يدخلون، وجِمالُهم قد سدت عرض الجسر، أنتظر جوازَها وخفَّة الطريق منها، فرأيت شيخًا من أهل خراسان ذكَر لي أنه من أهل سَنْجان[2] واقفًا خلف الجمال يسوقها ويحفظ الرحال التي عليها، حتى نظر إلى الجانب الغربي فرأى الجذع عليه ابنُ بقية – وكان وزيرًا صلبه الملك لذنوب كانت له – فقال: لا إله إلا الله، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلَّ المفكِّر في عِبَرها وغِيَرها! عضد الدولة تحت الأرض وعدوُّه فوق الأرض!

قلتُ: هكذا حدَّثني أبو الوفاء، ولذلك استأذنتُ في دفنه، وكان كلام الشيخ سببًا في ذلك.

قال: بلغني أن أبا سليمان يزور في أيام الجمعة رسل سجستان لَمَّا[3] ويظل عندهم طاعمًا ناعمًا، ويأنس بأنك معه، فمن يحضر[4] ذلك المكان؟ فقلت: جماعة، وآخِر من كان في هذا الأسبوع الماضي ابن جَبَلة الكاتب، وابن برمويه،[5] وابن الناظر[6] أبو منصور وأخوه، وأبو سليمان، وبندار[7] المغنِّي،[8] وغزال الراقص، وعَلَم٩ وراء الستارة.

فقال: ما الذي حفظتَ من حديث[١٠] عنهم، وما يجوز أن يُلْقَى إلينا منهم؟ فقلتُ: سمعتُ أشياء، ولستُ أحب أن أَسِم نفسي بنقل الحديث وإعادة الأحوال فأكون غامزًا وساعيًا ومفسدًا. قال: معاذ الله من هذا! إنما تدل على رشد وخير، وتُضِلُّ[١١] عن غيٍّ وسوء، وهذا يَلزم كلَّ من آثر الصلاح الخاصَّ والعامَّ لنفسه وللناس، واعتقد الشفقة، وحَثَّ على قبول النصيحة.والنبي قد سمع مثل هذا وسأل عنه، وكذلك الخلفاء بعده، وكلُّ أحد محتاج إلى معرفة الأحوال إذا رجع إلى مرتبة عاليةٍ أو محطوطة.

فقلتُ: وجدتُ ابن برمويه[١٢] يذكر أشياء هي متعلقة بجانبك، ويرى أنها لو لم تكن لكان مجلسُك أشرف، ودولتك أعزَّ، وأيَّامك أَدْوَم، ووليُّك أحمد، وعدوُّك أكمد. قال: [١٣] ما هذا الاسترسال كلُّه [إلى] ابن شاهويه؟[١٤] وما هذا الكَلَف ببهرام؟[١٥] وما هذا التعصُّب لابن مكيخا؟[١٦] وما هذا السكون إلى ابن طاهر؟[١٧] وما هذا التعويل على ابن عبدان؟[١٨] وما من هؤلاء أحد إلَّا يَرِيش[١٩] عدوَّه ويَبْريه، ويُضِلُّ صاحبه ويُغْويه. [٢٠] أما ابن شاهويه فشيخُ إزراء،[٢١] وصاحب مَخْرَقة[٢٢] وكذبٍ ظاهر، كثيرُ الإيهام، شديدُ التمويه، لا يرجع إلى وُدٍّ صادق، ولا إلى عَقد صحيح وعهدٍ محفوظ. وإنما كان الماضي يقرِّبه لغرض كان له فيه من جهة هؤلاء المخرِّبين القرامطة، وكان أيضًا مذموم[٢٣] الهيئة، فكان لا يَنْبس[٢٤] إلَّا بما يقوِّيه ويحرس حاله، واليوم هو رَخِيُّ اللَّبَب،[٢٥] جاذب لكلِّ سبب، وليس هناك كفاية ولا صيانة،[٢٦] ولا ديانة ولا مروءة.

وبعد، فهو مشئوم نَكِد، ثقيل الرُّوح، شديد البُهْت،[٢٧] قوله الإفساد، وعادته تأجيل[٢٨] المَهْنَأ، والشَّمَاتة بالعاثر،[٢٩] والتشفي من المنكوب.

وأمَّا بَهْرَام فرجل مجوسي معجَب ذميم، لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ، غرضه[٣٠] أن يتبجَّح في الدنيا بجاهه، ولا يبالي أين صار بعاقبته، وهو يَحُضُّ[٣١] مع ذلك عليه في كل ما هو مديره ومدبِّره.

وأما ابن مكيخا فرجل نصرانيٌّ أرعنُ خسيس، ما جاء يومًا بخير قطُّ لا في رأي ولا في عمل ولا في توسُّط، وأصحابنا يلقِّبونه بقَفَا، وهو «منهمك[٣٢] بين اللذائذ»، همُّه أن يتحسَّى دَنَّ الشراب في نفَس أو نفَسين، ثم يسقط كالجِذع اليابس لا لسان ولا إنسان.

وأما ابن طاهر فرجل يدَّعي للناس أنه لولا مكانته وكفايته وحسَبُه ورأيه ومشورته لكانت هذه الوزارة سرابًا، وهذه المملكة خرابًا، هذا مع الشر[٣٣] الذي في طبعه وعادته. فإن جرى خيرٌ انتَحَله وزعم أنه من نتائج رأيه،[٣٤] وإن وقع شرٌّ عصبه برأس صاحبه وادَّعى أنه استبدَّ[٣٥] به، ومع هذا فهو يعيب[٣٦] هذه المُراءاة.

وما أدري كيف استكفَى[٣٧] هذه الجماعة حوله؟ وكيف يُظاهَر[٣٨] هو بها ويسكن إليها؟ وما فيهم إلَّا من وَكْدُه الرجس والإفساد والأَخْذُ بالمصانَعة وإغراء الأولياء بما يعود بالوبال على البريء والسقيم وعلى الزكيِّ والظَّنين. [٣٩] هؤلاء سباع ضارية، وكلاب عاوية، وعقارب لسَّاعة، وأفاعٍ نهَّاشة، وقى الله هذا الإنسان الحرَّ[٤٠] المباركَ الكريمَ الرحيم! فإنه

شريف النفس طاهر الطَّوِيَّة،(٤١) ليِّنُ العريكة، كثيرُ الديانة، وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع الناس، قال الشاعر: (٤٢)

ومن لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ ومن لا يظلم النَّاسَ يُظلَمِ

وقال:

ومن لا يَذُدْ عن حوضه النَّاسَ أو يكن له جانب يشتدُّ إنْ لان جانبُ
يَطَأْ حوضَه المستوردون وتَغْشَه شوائبُ لا تَبقَى عليها النقائبُ(٤٣)

وما ضاع قولُهم: لا تكن حلوًا فتُؤْكَل، ولا مُرًّا فتُعَاف. ليس الحَذَر يقي٤٤ فكيف التَّهوُّر؟ أها هنا لِحًى تُسحَب كلَّ يوم، وطوارق تُتوقَّع كلَّ ليلة؟! والتوكل والاستسلام يليقان(٤٥) بأهل الدِّين في طلب الآخرة، فأما أصحاب الدنيا وأرباب المراتب فيجب أن يدَعوا الهُوَيْنا جانبًا، ويشمروا للنفع والضر والخير والشر، ويكون ضُرُّهم أكثر وشرُّهم أغلب، ورَهَبوت خير من رَحَموت.

ولهذا قال الأعرابي:

أنا الغلام الأعسرْ الخير فيَّ والشَّرّْ

والشر فيَّ أكثرْ

وهذا معنى بديع، ولم يُرِد أن البداءة بالشرِّ خير من الخير، وإنما أراد أني أتَّقي بالشر، وإذا أقبل الشر قلتُ له: مرحبًا، وأدفع الشر ولو بالشر، والحديد بالحديد يُفْلَح.(٤٦) وقد قال الآخر: (٤٧)

وفـــي الشـــر نجـــاة حيـــ ـــــن لا ينجيـــك إحســـانُ

وقال ابن دارة:

إذا كنـتَ يومًـا طالـب القـوم فـاطَّرِحْ مقـالتهم واذهـب بهـم كـلَّ مـذهبِ

وقـاربْ بـذي حلـم وباعِـدْ بجاهـل جَلُوب عليك الشرَّ من كلِّ مَجْلَب

فإن حَدِبوا[٤٨] فاقْعَسْ وإن هم تقاعسوا ليستمسـكوا ممـا يريـدون فاحْـدَب

وإن حلبـوا خِلْفَـين[٤٩] فاحلُـب ثلاثـة وإن ركبـوا يومًـا لـك الشـرَّ فاركـبِ

وقال الحجاج بن يوسف أبو محمد – وهو من رجالات العرب وقد قهر العجم بالدهاء والزكانة – «لو أخذتُ من الناس مائة ألف كان أرضى عني من أن أفرق فيهم مائة ألف.» كان الناس بالأمس مزمومين[٥٠] مخطومين، يقوم كل واحد بنفسه على نفسه، ويتَّهم غدَه لما جناه في أمسه، لأن المَلك السعيد ساسهم، وقوَّم زيغَهم، وقلَّم أظفارهم، وشغلهم بالحاجة عن البطر والأشَر، وبالكفاية عن القلق والضجر، وتقدَّم[٥١] إليهم بترك الخوض فيما لا مرجوع له بخير. وكانوا لا يشكرون الله على نعمته عليهم به، وإحسانِه إليهم بمكانه، فسُلِبوه فتنفَّس خناقُهم، واتسع نِطاقُهم، فامتطى كل واحد هواه، ويوشك أن يقع في مَهْواة.

قال: وها هنا أشياء أخرى غير هذه، ولكن من يسمع ويقبل؟ ومع هذا فالأمور صائرةٌ إلى مصايرها، كما أنها صادرة عن مصادرها.

فقال له ابن جبلة: ما عندي إلا أن الوزير – أبقاه الله – عارفٌ بهم، ومستبطِن لأمرهم، مع العِشرة القديمة، والملابَسة المتصلة، والخبرة

الواقعة. ولكن [لا بدَّ] (٥٢) لمن كان في محله ورفعته من جماعةٍ يقرِّبهم، ويَرجع إليهم، ويَسمع منهم، وينظر بأعينهم، ويُصغِي بآذانهم، ويتناول بأيديهم. فقال له مجاوبًا: إن كان عارفًا(٥٣) بهم، ومستبطنًا لأمرهم، وخبيرًا بشأنهم. فلِمَ سلَّطهم وبسَطَهم، وحدَّد أنيابهم، وقوَّى أسنانهم، وفتَح أشداقهم، وطوَّل أعناقهم، وقطَّع أرباقَهم، وأبطَرهم فأسكرَهم حتى صاروا يجهلون أقدارهم، وينسون ما كانوا فيه من القلة والذلة؟ هلَّا(٥٤) رتَّب كلَّ واحد منهم فيما تظهر به كفايتُه، ولا يرفعه إلى ما يُظَنُّ معه الظن الفاسد! ولِمَ يضحك في وجوههم، ويُغضِي(٥٥) على جنايتهم؟ أما بلغه أن ابن يوسف قال: (٥٦) تشبُّثه بابن شاهويه لأنه قد أعدَّه للهرب إلى القرامطة إن دَهَمه أمر، وأُنسُه ببهرام إنما هو لاستمداد(٥٧) الفساد منه، وتقديمُه لابن طاهر للسرقة على يده، وفرحُه بابن مكيخا(٥٨) للسخرية به، وتقريبُه لابن الحجَّاج للسُّخْف، ولَهَجُه بابن هارون للهُزْء واللعب؟

قال له ابن جبلة: من أراد أن يحسِّن القبيح عند رضاه، ويقبِّح الحَسَن عند سُخْطه فعل. ولا يخلو أحد تهُبُّ ريحه،(٥٩) ويعلو شأنه، وينفُذُ أمره ونهيه من حاسد وقارِف،(٦٠) ومُدخِل ومُرجِف. على هذه الأمور بُنِيت الدار، وعليها جرت الأقدار. إن كنت تنكر هذا الرهط فاعرف له(٦١) الرهط الآخر، فإنك تعرف بذلك حُسن اختياره، وجميل انتقائه، ومحمود رأيه.

قال: من هم؟ قال: أبو الوفاء المهندس، وابن زرعة المتفلسف، وابن عبيد الكاتب، ومسكويه، والأهوازيُّ، والعسجديُّ، فأين(٦٢) هؤلاء

الغامطة؟[٦٣] قومٌ همُّهم أن يأكلوا رغيفًا ويشربوا قدحًا، لا هم ممن يُقتبَس من علمهم ولا هم[٦٤] يتكلفون له نصحًا، وهيبته[٦٥] تعوقهم عن ذكر شيء في الدولة من تلقائهم، إلا أن يكون شيء يتعلَّق بهم على معنى خاص، فهو يَنود[٦٦] هكذا وهكذا حتى يبلغ منهم ما قَدر عليه.

فلما سمع الوزير هذا كله قال: سألقي إليك في جواب هذه المسألة ما تخدمني به إن لاقيتَهم في مجلس آخر على وجه يُخفِي٦[٦٧] أنك له ملقَّن مُحَمَّل كأنك ساهٍ عنه غيرُ حافل به. وقد تقطَّع الليل، ويُحتاج في هذا الحديث إلى استئناف زمان بعد استيفاء جِمام.

ثم أنشدتُ قول الشاعر:

إني لأصفح عن قومي وألبَسُهم ... على الضغائن حتى تبرأ المِئَرُ

ثم قال: ما المئر؟ قلت: هي الضغائن التي ذكرها في حشو البيت، واحدها مِئْرَةٌ. كأنه أراد: وألبَسُهم على الضغائن [حتى تبرأ الضغائن] [٦٨] فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورةَ القافية لمَّا كان معناهما واحدًا.

قال: لمن هذا البيت؟ قلت: لا أحفظ اسم شاعره، ولكن أحفظ معه أبياتًا. قال: هاتها. فأنشدتُ أول ذلك:

يا أيُّها الرجل المُزْجِي أذيَّته[٦٩] ... هل أنت عن قولك العوراءَ مزدجِرُ؟

إني إذا عُدَّ مِبْطاءٌ[٧٠] إلى أمد ... لا يستطيع حِضاري[٧١] المقرف البَطِرُ

لاقى قناتيَ مِصْرارًا عَشَوْزَنَةً[٧٢] ... لا قادح قد تبغَّاها ولا خَوَرُ

إنِّي لأصفح عن قومي وألبَسُهم على الضغائن حتى تبرأ المِئَرُ

قال: اكتبها. قلت: أفعلُ، وانصرفتُ. فما أعاد عليَّ بعد ذلك شيئًا مما كان.

هوامش

(١) في الأصل: «زبيرة». والزنبريتان هما السفينتان اللتان في الجسر في الجانب الشرقي من بغداد يعبر عليهما السالكون كما في عيون الأنبا ١ / ١٧٩.

(٢) في الأصل: «سحاب». ولم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من الكتب المؤلفة في أسماء البلاد. وسنجان: قرية بمرو.

(٣) اللَّمُّ: الجمع، يريد أنه يزورهم مجتمعين.

(٤) «يخطر».

(٥) في الأصل: «ابن زمويه». وقد ورد ذكر ابن برمويه في كتاب ذيل تجارب الأمم، وهو الحسن بن برمويه، كان كاتبًا لوالدة صمصام الدولة، وكان ممن تآمروا على الإيقاع بابن سعدان وقتله، ثم استوزر ابن برمويه لصمصام الدولة مشتركًا في الوزارة مع أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف.

(٦) في الأصل: «ابن المناظر». وهو من رجال صمصام الدولة.

(٧) في الأصل: «بكدان»، وهو تحريف.

(٨) «المفكي».

(٩) علم: اسم جارية.

(١٠) في الأصل: «حديثنا»، والنون والألف زيادة من الناسخ.

(١١) «تصل».

(١٢) «زمويه».

(١٣) قال: أي ابن برمويه المحدث عنه.

(١٤) ابن شاهويه هذا هو غير ابن شاهويه الفقيه الذي مر ذكره في مقدمة الكتاب، أما هذا فكان عاملًا كبيرًا من عمال صمصام الدولة، قام بالدعوة له بعمان حتى أذعنت له سنة ٣٧٤، ثم غضب عليه صمصام الدولة وحبسه مع ابن سعدان، ثم نجا من القتل بأعجوبة، ثم عُفِي عنه سنة ٣٧٥.

(١٥) هو أبو سعيد بهرام بن أردشير، كان من رجالات صمصام الدولة، وكان صديقًا لابن سعدان. يقول ابن سعدان في وصفه: «إني أرى حديثه آنق من المنى إذا أُدْرِكَت والدنيا إذا مُلِكَت، وإن تمازجنا بالعقل والروح والرأي والتدبير ... ليزيد على حال توءمَيْن تراكضا في رحم وتراضعا من ثدي ونُوغِيا في مهد.» وقد قُبِض عليه مع ابن سعدان وقُتِل معه سنة ٣٧٥.

(١٦) في الأصل «ابن مكيخاج» والجيم زائدة، وما أثبتناه عن ذيل تجارب الأمم. وقد كان أبو علي بن مكيخا صاحب ديوان الخزائن لعضد الدولة، كما عمل من بعده لصمصام الدولة.

(١٧) هو أبو عبد الله بن طاهر، كان نائبًا عن أبي نصر سابور، كما كان من رجالات صمصام الدولة، قُتِل سنة ٣٨٠.

(١٨) «ابن عمان».

(١٩) يريش عدوه ... إلخ: كناية عن تقويته للعدو وإعانته على النكاية، وأصله من راش السهم يريشه إذا ألزق به الريش ليكون أسرع إلى الهدف.

(٢٠) في الأصل: «يصل صاحبه ويقويه»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٢١) الإزراء: الغش والتلبيس. يقال: أزْرَى به، إذا أدخل عليه أمرًا يريد أن يلبِّسه عليه.

(٢٢) المخرقة: الحمق والكذب.

(٢٣) مذمومًا بالهيئة.

(٢٤) ينبس: يتكلم.

(٢٥) رخي اللبب: أي متسع الحال، وهو مجاز. وأصل اللبب ما يُشَدُّ من سيور السرج في اللَّبَّة من صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل.

(٢٦) «صناعة».

(٢٧) البهت: الكذب والباطل.

(٢٨) في الأصل: «تعجيل»، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا. والمهنأ مصدر ميمي.

(٢٩) «بالغار»، وهو تصحيف.

(٣٠) «عرضه».

(٣١) يحض مع ذلك ... إلخ: أي يغري الناس بالوزير ويفسد قلوبهم عليه.

(٣٢) وردت هذه العبارة في الأصل محرَّفة الحروف، مهمل أكثرها من النقط. وما أثبتناه أقرب إلى الرسم الوارد في الأصل، كما أن سياق الكلام الآتي يقتضيه.

(٣٣) «السر».

(٣٤) «يتابج زلته».

(٣٥) «أسيد».

(٣٦) في الأصل: «عيب لهذه».

(٣٧) «استكفيت»، والتاء زيادة من الناسخ.

(٣٨) يظاهَر: يعاوَن.

(٣٩) الزكي: الطاهر النقي، والظنين: المتهم.

(٤٠) «الحير».

(٤١) «ظاهر الخوية».

(٤٢) الشاعر زهير بن أبي سلمى.

(٤٣) شوائب: أي عيوب تخالط أخلاقه، والنقائب: السجايا والأخلاق، الواحدة نقيبة.

(٤٤) في الأصل: «ليت الحذر وقى.» وقوله بعدُ: «فكيف ... إلخ» يقتضي ما أثبتنا.

(٤٥) «يلتقيان»، وهو تحريف.

(٤٦) يفلح: يُشق.

(٤٧) في الأصل: «نجاة لك»، وقوله «لك» زيادة من الناسخ.

(٤٨) حدبوا: من الحدب بالتحريك، وهو خروج الظهر ودخول الصدر والبطن. والقعس بالتحريك: عكسه.

(٤٩) الخلف: الضرع.

(٥٠) في الأصل: «مرموقين محطوطين»، وهو تحريف، وسياق الكلام الآتي بعدُ يقتضي ما أثبتنا. ومزمومين مخطومين: من الزمام والخطام.

(٥١) تقدم إليه بكذا: أمره به.

(٥٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، ولا تستقيم العبارة بدونها.

(٥٣) «فارقًا بهم مشكبطنًا»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٥٤) «على».

(٥٥) «يقضي».

(٥٦) «طال».

(٥٧) «الاستبداد».

(٥٨) «ابن مكينجاج».

(٥٩) تهب ريحه: كناية عن نهوض الحظ وقيام الدولة.

(٦٠) قارف: أي كاذب ظالم. والمدخل: العائب، من الدخل بالتحريك وسكون الخاء بمعنى العيب.

(٦١) له: أي للوزير.

(٦٢) «فالآن».

(٦٣) الغامطة: الذين لا يشكرون النعمة. ويشير بهذا الوصف إلى الجماعة المتقدم ذكرهم وهم ابن شاهويه وبهرام ... إلخ، يريد: أين هؤلاء من هؤلاء؟

(٦٤) «لا هو».

(٦٥) «عتقهم».

(٦٦) ينود: يتحرك ويتمايل. والمراد أنه يلوِّح هكذا وهكذا بالكلام.

(٦٧) «الخفي».

(٦٨) هذه العبارة التي بين مربعين ساقطة من الأصل، ولا يستقيم الكلام بدونها، فإن قوله: «وألبسهم على الضغائن» من لفظ البيت، فلا يصح أن يقال فيه: «كأنه أراد.»

(٦٩) «أدبته».

(٧٠) «مد ميطاء».

(٧١) الحضار بكسر الحاء، والمحاضرة: المغالبة في الحضر بضمها، وهو العَدْو السريع. والمقرف من الخيل: ما أمه عربية وأبوه أعجمي. والبطر بكسر الطاء: من البطر بالتحريك، وهو هنا بمعنى التحير والدهش والانبهار، يريد أنه يتحير ويدهش حين يسابق أسرع منه فيقصر عن مسابقته بسبب ذلك، ويقال للبعير القطوف إذا جارى بعيرًا واسع الخطو فقصرت خطاه عن مباراته: «قد أبطره ذرعه»، أي حمله على أكثر من طَوْقه.

(٧٢) ورد هذا البيت في الأصل هكذا:

لاقى قناتي مصارًا عسورته   لا قارح قد تبعناها ولا خور

وفي بعض ألفاظه تحريف ظاهر. ومصرارًا: أي ذات صرير، أي صوت. والعرب يصفون القناة الجيدة بأنها تصوِّت عند غمزها، كما يدل على ذلك بيت عمرو بن كلثوم الآتي. والعشوزنة: الصلبة الشديدة الغليظة، قال عمرو بن كلثوم يصف قناة:

عَشَــــوْزَنَة إذا غُمِـــزت أَرَنَّـــتْ   تَشُـــجُّ قفـــا المثقِّـــف والجبينـــا

والقادح: أُكَالٌ يقع في الشجر، والصدع في العود.

الليلة الرابعة

قال لي بعد ذلك في ليلة أخرى: كيف رضاك عن أبي الوفاء؟[١] قلت: أرضى رضًا بأتمِّ شكر وأحمدِ ثناء. أخذ بيدي، ونظر في معاشي، ونشَّطني وبشَّرني، ورعى عهدي، ثم ختم هذا كلَّه بالنعمة الكبرى، وقلَّدني بها القلادة الحسنى، وشملني بهذه الخدمة، وأذاقني حلاوة هذه المزيَّة، وأَوْجَهَني عند نظرائي.

قال: هاتِ شيئًا من الغَزَل. فأنشدتُه:

كلانا سواء في الهوى غير أنها ... تجلَّدُ أحيانًا وما بي تجلُّدُ

تخاف وعيد الكاشحين وإنما ... جنوني عليها [حين] أُنْهَى وأُبْعَدُ

ثم قال: غالب ظني أن نصرًا غلام خواشاذه[٢] ما هرب من فِنائي إلا برأيك وتجسيرك، فإن ذلك عبد ولا جُرأة له على مثل هذا النُّدود والشذوذ، فقد قال لي القائل إنك من خُلْصانه.

فقلت: والله الذي لا إله إلا هو ما كان بيني وبينه ما يقتضي هذا الأنس وهذا الاسترسال، إنما كنا نلتقي على زَنبرية[٣] باب الجسر بالعشايا وعند البيمارِستان وعلى باب أبي الوفاء. وإنما ركنت إليه لمُرَقَّعَتِه[٤] وتاسومته عندما كنت رأيتُه عند صاحبه بالرَّيِّ سنة تسع وستين وهو متوجِّه إلى قابوس بجرجان في المذلَّة الدائمة والحال المربوطة،[٥]

ولو نَبَس لي بحرف من هذا[٦] أو كنت أشعر بأقل شيء منه، لكنت أقوله لأبي الوفاء قضاءً لحقِّه، ووفاءً بما له في عنقي من مِنَنه، وخوفًا من هذا الظن بي، وقصورًا عن اللائمة لي.

قال: أفما تعرف أحدًا تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه؟ قلت: ما رأيته إلا وحده، وكم كان زمان التلاقي؟ كان أقل من شهر، أفي هذا القدر يتوكَّد الأنس، وترتفع الحشمة، وتستحكم الثقة، ويقع الاسترسال والتشاور؟ هذا بعيد.

قال: هذا المتخلِّف[٧] كنتُ قد قرَّبتُه ورتَّبتُه، ووعدته ومنَّيته، وتقدمتُ إلى أبي الوفاء بالإقبال عليه، والإحسان إليه، وإذكاري بأمره في الوقت بعد الوقت حتى أزيده نباهة وتقديمًا، فترك هذا كلَّه وطوى الأرضَ كأنه هارب من حبس، أو خائف من عذاب، ويقال في الأثر: إن بعض الصفيحيِّين[٨] قال: لله قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل. ما أكثر من يفر من هذه الكرامة، ويقوى – على تَرفٍ جمٍّ – على الهوان، ويصبر على البلاء، ويقلَق في العافية! إن السجايا لمختلفة وإن الطباع لمتعادية. قلَّما يُرى شخصان يتشاكلان في الظاهر إلا يتباينان في الباطن.

قلت: كذلك هو.

قال: حدِّثني لِمَ امتنعتَ من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبل فيما رسمنا له أن يتوجه فيه؟ ولقد أطلتُ التعجب من هذا وكررتُه على أبي الوفاء.

فقلتُ: منعني من ذلك ثلاثة أشياء: أحدها أن ابن موسى لم يكن من شكلي «ولا أشدَّ للضد»[٩] هُونًا[١٠] من مصاحبة الضد،[١١] لأنه سوداوي وجَعْد. والآخَر أنه قيل: ينبغي أن تكون عينًا عليه. وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيتُه [لائقًا] [١٢] بحالي، فكيف إذا قُرِنتُ برجل باطليٍّ١٣ لو مرَّ بوهمه أمري لدَهْدَهَني[١٤] من أعلى جبل في الطريق. والآخَر أني كنت أفِد مع هذا كله على ابن عباد، وهو رجل أساء إليَّ وأوحشني، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أنقلب إليه ثانيًا، وكنت أكره ذلك، وما كنت[١٥] آمَنُ ما يكون منه ومني، والمجنون[١٦] المطاع مهروب منه بالطباع.

وبعد، فليس لي [حاجةٌ] [١٧] في مثل هذه الخدمة، لأن صدر العمر خلا مني عاريًا من هذه الأحوال، وكان وسطه أضعف حملًا، وأبعد من القيام به والقيام عليه.

فقال: ما كان عندي هذا كله.

قال: إني أريد أن أسألك عن ابن عباد، فقد انتجعتَه وخبرته وحضرت مجلسه، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته، وعن علمه وبلاغته، وغالبِ ما هو عليه ومغلوبِ ما لديه، فما أظن أني أجد مثلك في الخبر عنه، والوصف له. على أني قد شاهدته بهَمَذان لمَّا وافى ولكني لم أَعْجُمه، لأن اللُّبْث كان قليلًا، والشغل كان عظيمًا، والعائق كان واقعًا.

فقلتُ: إني رجل مظلوم من[١٨] جهته، وعاتبٌ عليه في معاملتي، وشديد الغيظ لحرماني، وإن وصفتُه أَرْبَيْتُ[١٩] منتصِفًا،[٢٠] وانتصفتُ منه مسرفًا.[٢١] فلو كنتُ معتدل الحال بين الرضا والغضب، أو عاريًا منهما جملة، كان الوصف أصدق، والصدق به أَخْلَق. على أني عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتُها نفَسي الغزير، ولفظي الطويلَ والقصير، وهي في المسوَّدة ولا جسارة لي على تحريرها، فإن جانبه مَهيب، ولمكره دبيب، وقد قال الشاعر:

إلى أن يغيبَ[٢٢] المرء يُرْجَى ويُتَّقَى ولا يعلـم الإنسـانُ ما في المغيَّـبِ

قال: دع هذا كلَّه، وانسخ لي الرسالة من المسوَّدة، ولا يمنعنَّك ذاك فإن العين لا ترمقُها والأذن لا تسمعها واليد لا تنسخها.

وبعد، فما سألتك إلا وصفه بما جُبِل عليه، أو بما كسب٢[٢٣] هو بيديه من خير وشر. وهذا غير منكر ولا مكروه، لأمر الله تعالى. فإنه مع علمه الواسع، وكرمه السابغ، يصف المحسن والمسيء، ويُثني على هذا ويَنْثُو[٢٤] على ذاك. فاذكر لي من أمره ما خفَّ اللفظ به، وسبق الخاطرُ إليه، وحضر السببُ له.

قلتُ: إن الرجل كثير المحفوظ، حاضر الجواب، فصيح اللسان. قد نَتَف من كل أدبٍ خفيفٍ أشياء، وأخذ من كل فن أطرافًا. والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجَّنة بطرائقهم، ومناظرته مشوبة[٢٥] بعبارة الكتَّاب. وهو شديد التعصب على أهل الحكمة

والناظرين في أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعَدد، وليس [عنده] (٢٦) بالجزء الإلهي خبر، ولا له فيه عين(٢٧) ولا أثر. وهو حسَن القيام بالعروض والقوافي، ويقول الشعر وليس بذاك. وفي بديهته غزارة. وأما رويَّته(٢٨) فخوَّارة. وطالِعُه الجوزاء، والشِّعْري قريبة منه. ويتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزَّيْدية. ولا يرجع إلى الرِّقَّة والرأفة والرحمة، والناس كلُّهم مُحْجِمون عنه لجرأته وسلاطته، واقتداره وبسطته، شديد العقاب، طفيفُ الثواب، طويل العتاب، بذيء اللسان، يعطي كثيرًا قليلًا (أعني يعطي الكثيرَ القليل)، مغلوبٌ بحرارة الرأس، سريعُ الغضب، بعيد الفَيْئَة،(٢٩) قريب الطِّيَرة، حسودٌ حقودٌ حديدٌ، وحسدُه وقفٌ على أهل الفضل، وحِقْدُه سارٍ إلى أهل الكفاية، أما الكتَّاب والمتصرِّفون فيخافون سطوته، وأما المنتجِعون(٣٠) فيخافون جفوته. وقد قتَل خلقًا، وأهلك ناسًا، ونفَى أمة، نخوةً وتعنُّتًا وتجبُّرًا وزَهْوًا. وهو مع هذا يخدعه الصبيُّ، ويَخلُبه الغبيُّ، لأن المَدخَل عليه واسع، والمَأتَى إليه سهل، وذلك بأن يقال: مولانا يتقدم بأن أُعار شيئًا من كلامه، ورسائلِ منثورِه ومنظومه، فما جُبْتُ الأرض إليه(٣١) من فَرْغَانة ومصر وتَفْلِيس إلا لأستفيد كلامَه وأَفْصُح به، وأتعلم البلاغة منه. لكأنما رسائل مولانا سور قرآن، وفِقَره فيها آيات فرقان، واحتجاجُه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان، فسبحان من جمع العالَم في واحد، وأبرز جميع قدرته في شخص! فيلين عند ذلك ويذوب، ويَلْهَى عن كل مهمٍّ له، وينسى كل فريضة عليه، ويتقدم إلى الخازن(٣٢) بأن يُخرج إليه رسائلَه مع الورَق(٣٣)

والورِق، ويسهِّل[٣٤] له الإذنَ عليه، والوصولَ إليه، والتمكُّن من مجلسه، فهذا هذا.

ثم يعمل في أوقات كالعيد والفَصْل شعرًا، ويدفعه إلى أبي عيسى بن المنجِّم، ويقول: قد نحلتُك هذه القصيدة، امدحني بها في جملة الشعراء، وكن الثالث من الهَمَج[٣٥] المُنْشدين.[٣٦] فيفعل أبو عيسى – وهو بغداديٌّ محكَّك[٣٧] قد شاخ على الخدائع وتَحَنَّك – ويُنشِد. فيقول له عند سماعه شعرَه في نفسه، ووصْفَه بلسانه، ومدْحَه من تحبيره: أعِدْ يا أبا عيسى، فإنك – والله – مُجِيد، زِهْ يا أبا عيسى والله، قد صفا ذهنُك، وزادت قريحتُك، وتنقَّحتْ قوافيك. ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا في العيد الماضي، مجالسُنا تُخرِّج الناس وتَهَب لهم الذكاء، وتزيد لهم الفطنة، وتحوِّل الكَوْدَن[٣٨] عتيقًا، والمحمَّرَ[٣٩] جوادًا. ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سَنِيَّة، وعطيَّة هنيَّة. ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يَقْرِض مِصْراعًا، ولا يَزِن بيتًا، ولا يذوق عَرُوضًا.

قال يومًا: من في الدار؟ فقيل له: أبو القاسم الكاتب وابن ثابت. فعمل في الحال بيتَين، وقال لإنسان بين يديه: إذا أذنتُ لهذين فادخل بعدهما بساعة وقل: «قد قلتُ[٤٠] بيتَين، فإن رسمتَ لي إنشادَهما أنشدتُ»، وازعم أنك بُدِهْتَ بهما، ولا تجزع من تأفُّفي بك، ولا تفزع من نُكْري عليك. ودفَع البيتَين إليه، وأمره بالخروج إلى الصحن، وأذن للرجلين حتى وصلا. فلما جلسا وأَنِسا[٤١] دخل الآخر[٤٢] على

تَفِيئتِهما٤٣ ووقف للخدمة، وأخذ يَتلمَّظ يُرِي أنه يَقْرِض شعرًا، ثم قال: يا مولانا، قد حضرني بيتان، فإن أنت أذنتَ لي أنشدتُ. قال: أنت إنسان أخرَق سخيف لا تقول شيئًا فيه خير، اكفني أمرَك وشِعرَك. قال: يا مولانا، هي بديهتي فإن نَكِرْتَني(٤٤) ظلمتَني، وعلى كل حال فاسمع، فإن كانا بارعَيْن وإلَّا فعامِلْني بما تحب.(٤٥) قال: أنت لجوج، هاتِ. فأنشَد:

يـا أيهـا الصـاحب تـاجَ العـلا   لا تجعلنِّـي نُهْـزَةَ الشـامتِ

بمُلحـدٍ يُكنَـى أبـا قاسـم   ومُجْبَـر(٤٦) يُعْـزَى إلـى ثابـتِ

قال: قاتلك الله! لقد أحسنتَ وأنت مسيء. قال لي أبو القاسم: فكدتُ أتفقَّأ غيظًا لأني علمت أنها من فَعَلاته المعروفة، وكان ذلك الجاهل لا يَقْرِض بيتًا. ثم حدثني الخادمُ الحديث بنصه.

والذي غلَّطه في نفسه وحَمَله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه، أنه لم يُجْبَهْ قطُّ بتخطئة، ولا قُوبل بتسوئة، ولا قيل له: أخطأتَ أو قصَّرتَ أو لحنتَ أو غَلِطتَ أو أخللْتَ، لأنه نشأ على أن يقال [له]: أصاب سيدُنا، وصدَق مولانا، ولله دَرُّه! ولله بلاؤه! ما رأينا مثلَه، ولا سمعنا مَن يقاربه، مَن ابنُ عبدِكان مضافًا إليه؟! ومَن ابنُ ثوابةَ مَقيسًا عليه؟! ومن إبراهيم بن العباس الصُّوليُّ [إذا جُمِع بينهما؟!] مَن صريع الغواني؟! مَن أَشْجَع السُّلميُّ إذا سلَك طريقهما، ومَتَح برشائهما، وقَدَح بزَنْدِهما؟! قد استدرك مولانا على الخليل في العَروض، وعلى أبي عمرو بن العلاء في اللغة، وعلى أبي يوسف في القضاء، وعلى الإسكافيِّ في

الموازنة، وعلى ابن نُوبختَ في الآراء والديانات، وعلى ابن مُجاهد في القراءات، وعلى ابن جرير في التفسير، وعلى أرسطوطاليس في المنطق، وعلى الكِنْديِّ في الجُزْء،(٤٧) وعلى ابن سيرين في العبارة، وعلى أبي العَيْناء في البديهة، وعلى ابن أبي خالد في الخطِّ، وعلى الجاحظ في الحيوان، وعلى سهل بن هارون في الفِقَر، وعلى يوحنَّا في الطب، وعلى ابن رَبَّن(٤٨) في الفردوس، وعلى عيسى بن دَأْب في الرواية، وعلى الواقديِّ في الحفظ، وعلى النجار في البَدَل،(٤٩) وعلى ابن ثوابة في التفقُّه،(٥٠) وعلى السَّرِيِّ السَّقَطيِّ في الخَطَرات والوساوس، وعلى مُزَبِّد(٥١) في النوادر، وعلى أبي الحسَن العَروضيِّ في استخراج المعمَّى، وعلى بني بَرْمَك في الجود، وعلى ذي الرِّياستَيْن في التدبير، وعلى سَطِيح في الكهانة، وعلى ابن المحيَّا خالد بن سنان العَبْسيِّ في دعواه.(٥١) هو والله أولى بقول أبي شريح أوس بن حَجَر التميمي في فَضَالَة بن كلْدة:

الأَلْمعِيُّ الذي يظُنُّ بك الظنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا

قد يَسبِق المدحُ إلى من [لا] (٥٣) يستحقه، ويصير المال إلى من لا يليق به أن يكون مَيِّلًا،(٥٤) حتى إذا وُجِد من كان لذلك مستحقًّا مُنِحَه ووُفِّر عليه.

فتراه عند هذا الهَذَر وأشباهِه يتلوَّى ويتبسَّم، ويطير فرحًا ويتقسَّم ويقول: ولا كذا! (٥٥) ثمرةُ السَّبْق لهم، وقصَّرْنا أن نَلحقهم، أو نَقْفُو أثرَهم ونشُقَّ غُبارَهم أو نَرِد غِمارهم. وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحايل،

ويَلوِي شِدْقَه، ويبتلع ريقَه، ويَرُدُّ كالآخذ، ويأخذ كالمتمنِّع، ويَغضَب في عَرْض الرضا، ويرضى في لَبُوس الغضب، ويتهالك ويتمالك، ويتقابل[٥٦] ويتمايل، ويحاكي المومسات، ويخرُج في أصحاب السماجات. ومع هذا كلِّه يظن أن هذا خافٍ على نُقَّاد الأخلاق وجهابذة الأحوال، والذين قد فرَّغهم الله لتتبُّع الأمور، واستخراجِ ما في الصدور، واعتبار الأسباب، وذلك أنه ليس بجيِّد العقل، ولا خالص الحُمق. وكلُّ كَدَر بالتركيب فقلَّما يصفو، وكل مركَّب على الكَدَر فقلَّما يعتدل، إلا أن الانحراف متى كان إلى جانب العقل كان أصلح من أن يكون إلى طَرَف الحُمْق، والكامل عزيز، والبريء من الآفات معدوم، إلا أن العليل إذا قيَّض الله له طبيبًا حاذقًا رفيقًا ناصحًا كان إلى العافية أقرب، وللشفاء أَرْجَى، ومن العَطَب أبعد، وبالاحتياط أعلَق. أعني أن العاقل إذا عَرَف من نفسه عيوبًا معدودة، وأخلاقًا مدخولة، استَطَبَّ لها عقلَه، وتطبَّب فيها بعقله، وتولَّى تدبيرَها برأيِه ورأي خُلْصَانِه، فنَفَى ما أمكن نفيُه، وأصلح ما قُبِل إصلاحُه، وقلَّل ما استطاع تقليلَه، فقد يجد الإنسان الرَّمَصَ في عينه فينحِّيه، ويُبتلَى بالبَرَص في بدنه فيخفيه.

وقد أفسده أيضًا ثقةُ صاحبه[٥٧] به، وتعويلُه عليه، وقلةُ سماعِه من الناصح فيه. فعُذِر[٥٨] بازدهاء المال والعلمِ والاقتدارِ والأمر والكفايةِ وطاعةِ الرجال وتصديقِ الجلساء والعادةِ الغالبة. وهو في الأصل مجدود[٥٩] لا جَرَم ليس يُقِلُّه مكانٌ دلالًا وتَرَفًا، وعُجْبًا وتِيهًا وصَلَفًا، وانْدِراءً[٦٠] على الناس، وازدراءً للصغار والكبار، وجَبْهًا للصادر والوارد. وفي الجملة صِغار[٦١] آفاتِه كبيرة، وذنوبُه جَمَّة.

ولكنَّ الغِنَى ربٌّ غفور

قال: ما صَدْر هذا البيت؟ فأنشدته الأبيات، وهي لعروةَ بن الوَرْد في الجاهلية، وكان يقال له عروة الصعاليك لأنه كان يؤويهم ويُحسِن إليهم كثيرًا:

ذَرِينِـي للغِنَـى أسـعى فـإنِّي ... رأيـتُ النـاسَ شـرُّهُمُ الفقيـرُ

وأبعَـدُهُمْ وأهـونُهمْ علـيهم ... وإنْ أَمْسَـى لـه حَسَـبٌ وخِيـرُ

ويُقصِـيه النَّـدِيُّ وتزدَريـه ... حليلتُـه وينهـره الصـغيرُ

وتَلْقَـى ذا الغِنَـى ولـه جَـلَالٌ ... يكـاد فـؤادُ صـاحبِه يطيـرُ

قليـلٌ ذنبُـه والـذَّنبُ جَـمٌّ ... ولكـنَّ الغِنَـى ربٌّ غفـورُ

فقال: لا شك أن المسوَّدة جامعةٌ لهذا كله؟ قلت: تلك تُجَزَّع[٦٢] في دَسْت كاغَدٍ فرعونيٍّ. فقال: أَجِدْ[٦٣] تحريرَها وعليَّ بها، ولك الضَّمان ألا يراها إنسان، ولا يدور بذكرها لسان. قلت: السمعَ والطاعة.

قال: قد تركنا من حديثه ما هو أولى مما مرَّ بنا؛ كيف بلاغتُه من بلاغة ابن العميد؟ وأين طريقتُه من طريقة ابن يوسف والصابي؟

قلت: قد سألتُ جماعة عن هذا فأجابني كل واحد بجواب إذا حكيتُه عنه كان ما يقال فيه ألصَق، وكنتُ من الحكم عليه وله أبعَد.

قال: صفْ هذا. قلتُ: سألتُ ابن عبيد الكاتبَ عن ابن عبَّاد في كتابته فقال: يرتفع عن المتعلِّمين فيها بدرجة أو بدرجتَين. وقال علي بن

القاسم: هو مجنون الكلام، تارةً تبدو[٦٤] لك منه بلاغةُ قُسٍّ، وتارة يلقاك بعِيِّ باقل؛ تحريفٌ كثير في المعاني، وإحالةٌ في الوضع، وغلطٌ في السَّجْع، وشُرودٌ عن الطبع.

وقال ابن المرزبان: هو كثير السرقة، سيئ الإنفاق، رديء القلب والعكس، فَرُوقَةٌ[٦٥] في إيراده، هزيمتُه قبل هُجومِه،[٦٦] [وإحجامُه] [٦٧] أظهَرُ مِن إقدامِه. وقال الصابي: هو مجتهد غير موفَّق، وفاضل غير منطَّق،[٦٨] ولو خَطا كان أسرع له، كما أنه لمَّا عَدَا كان أبطأ عليه. وطباع[٦٩] الجبليِّ مخالِف لطباع العراقي، يثب[٧٠] مقارِبًا فيقع بعيدًا، ويتطاول صاعدًا فيَتقاعس قعيدًا.

وقال علي بن جعفر: ممَّ كانت الطبائع؟![٧١] هو يَكذِب نفسَه بحسن الظن في البلاغة، وطباعُه تصدُق عنه بالتخلف، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى، فأما شَيْنه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة، وأما إحالته فبالإبعاد عن حَوْمة القصد والإرادة. والعجب أنه يحفظ الطِّمَّ والرِّمَّ[٧٢] من النثر والنظم، ثم إذا ادَّعاهما يقع دونهما سقوطًا، أو يتجاوزهما فُرُوطًا.[٧٣] هذا مع الكبر الممقوت، والتشيع الظاهر، والدعوى العارية من البينة العادلة.

وما أحسن ما كتب به أحمد بن إسماعيل بن الخصيب إلى آخَر: الكِبْر – أعزك الله – مَعرِض يستوي فيه النَّبيه ذِكرًا والخامل قَدْرًا، ليس أمامه حاجب يمنعه، ولا دونه حاجز يَحظُره. والناس أشدُّ تحفظًا على الرئيس المحظوظ، وأكثر اجتلاءً لأفعاله، وتتبُّعًا لمعايبه، وتصفُّحًا

لأخلاقه، وتنقيرًا[٧٤] عن خصاله منهم عن خامل لا يُعبَأ به، وساقطٍ لا يُكترَث له، فيسيرُ عيب الجليل[٧٥] يقدَح فيه، وصغيرُ الذنب يكبر منه، وقليل الذم يُسرع إليه. ولابن هندو في هذا المعنى:

العيبُ في الرجل المذكورِ مذكورُ ... والعيبُ في الخامل المستور مستورُ

كفُوفَةِ[٧٦] الظُّفْر تَخفَى من مهانتها ... ومثلها في سواد العين مشهورُ

وقال الزهيري: قد نَجَم بأَصبَهان ابنٌ لعبَّادٍ في غاية الرقاعة والوقاحة والخلاعة، وإن كان له يوم فسيَشقى به قوم.

سمعته يقول هذا سنة اثنتين وخمسين في مجلسٍ من الفقهاء.

وقال ابن حبيب: قال بعض الحكماء: إن للنفس أمراضًا كأمراض البدن، إلا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن في الشر والضرر كفضل النفس على البدن في الخير. وصاحبنا[٧٧] – يعني ابن عباد – مريض عندنا صحيح عند نفسه، زَيْف بنقدنا جيِّد بنقده. ولو قامت٧٨ السُّوق على ساقها، وتَناصَف المتعاملون فيها، ولم يقع إكراه في أخذٍ ولا إعطاء؛ عُرِف البَهْرَج[٧٩] الذي ضُرِب خارج الدار[٨٠] والجيد الذي ضُرِب داخل الدار.

وقال أحمد بن محمد: إذا أنصفْنا التزمنا مزيَّة العراقيِّين علينا بالطبع اللطيف، والمأخذ القريب، والسَّجع الملائم، واللفظ المُونِق، والتأليف الحلو، والسُّبوطة الغالبة، والموالاة المقبولة في السمع،[٨١]

الخالبة[٨٢] للقلب،[٨٣] العابثة بالروح، الزائدة في العقل، المُشْعِلة للقريحة، الموقوفة٨٤ على فضل الأدب، الدالَّة على غزارة المغترَف، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف. وابن عبَّاد بُلِيَ في هذه الصناعة بأشياء كلها عليه لا له، وخاذِلتُه لا ناصِرتُه، ومُسْلِمتُه لا مُنْقِذتُه. فأول ما بُلِيَ به أنه فقد الطبع وهو[٨٥] العمود، والثاني العادة وهي المؤاتية،[٨٦] والثالث الشغف بالجاسي[٨٧] من اللفظ وهو الاختيار الرديء، والرابع تتبُّع الوحشيِّ وهو الضلال المبين، والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى، والسادس استكراه المقصود من المعنى واللفظ على النَّبْوَة، والسابع التعاظُل[٨٨] المجهولُ بالاعتراض، والثامن إلْف الرسوم الفاسدة من غير تصفُّح ولا فحص، والتاسع قلة الاتِّعاظ[٨٩] بما كان – للثقة الواقعة في النفس – من الفائت،[٩٠] والعاشر تنفيق المتاع بالاقتدار في سوق العز. وهذه كلها سبل الضلالة، وطرق الجهالة.

قال: وليس شيء أنفع للمنشئ من سوء الظن بنفسه، والرجوعِ إلى غيره وإن كان دونه في الدرجة. وليس في الدنيا محسوب[٩١] إلا وهو محتاج إلى تثقيف، والمستعينُ[٩٢] أحزَمُ من المستبد، ومن تفرَّد لم يكمل، ومن شاور لم ينقص. وقد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ، ويَشْرُد اللفظ كما يَنِدُّ[٩٣] المعنى، وينتثر النظم[٩٤] كما ينتظم النثر، وينحل المعقَّد كما يُعقَّد المنحل.

والمدار على اجتلاب الحلاوة المَذوقة بالطبع، واجتناب النَّبْوَة الممجوجة بالسمع. والقريحةُ الصافية قد تَكدُر، والقريحة الكَدِرة قد تصفو. وشر آفات البلاغة الاستكراه، وأنصَحُ نصائحها الرضا بالعفو.

وقال: كان ابن المقفَّع يَقِفُ قلمُه كثيرًا، فقيل له في ذلك، فقال: إن الكلام يزدحم في صدري فيَقِفُ قلمي لأتخيَّره.

والكتاب يُتصفَّح أكثر من تصفُّح الخطاب، لأن الكاتب مختار والمخاطِب[٩٥] مضطر. ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أسرعتَ فيه أم أبطأت، وإنما ينظر أصبتَ فيه أم أخطأت، وأحسنتَ أم أسأت، فإبطاؤك غيرُ إصابتك، كما أن إسراعك غير مُعَفٍّ[٩٦] على غلطك.

قال: هذا كله مفيد، فأين هو مِن غيره من أصحابنا؟ قلتُ: في الجملة هو أبلغ من ابن يوسف،[٩٧] وأغزَرُ وأحفَظُ وأَرْوَى، وأَجَمُّ رَكِيَّة، وأعذَبُ مَوْرِدًا، وأبعَدُ من التفاوت. وليس ابن يوسف من ابن عبَّاد في شيء.

فأما ابن العميد فإني سمعت ابن الجَمَل يقول: سمعت ابن ثوابة يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنه تَخيَّل مذهب الجاحظ وظَن أنه إن تَبِعه لَحِقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيدًا من الجاحظ قريبًا من نفسه. ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبَّر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق[٩٨] والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتحُ قلَّما يملكها واحد، وسواها[٩٩] مغالقُ قلَّما ينفكُّ منها واحد.

وأما ابنُه ذو الكفايتَين، فلو عاش كان أبلغ من أبيه، كما كان أشعَر منه. ولقد تشبَّه بالجاحظ فافتُضِح في مكاتبته لإخوانه، ومَجَانَته في

كلامه ومسائلِه لمعلِّمه، التي دلَّتنا على سرقته وغارته،[١٠٠] وسوء تأتِّيه[١٠١] في تستُّره وتَغطِّيه، ومن شاء حَمَّقَ نفسه. وكان مع هذا أشدَّ الناس ادَّعاءً لكل غريبة، وأبعَدَ الناس من كل قريبة. وهو نَزْر[١٠٢] المعاني، شديدُ الكَلَف باللفظ. وكان أحسَدَ الناس لمن خطَّ بالقلم، أو بَلُغ باللسان، أو فَلَج[١٠٣] في المناظرة، أو [فَكِه] [١٠٤] بالنادرة، أو أغرَب في جواب، أو اتَّسع في خطاب. ولقد لقي الناسُ منه الدواهي لهذه الأخلاق الخبيثة. وقد ذكرتُ ذلك في الرسالة، وإذا بُيِّضتْ وقفتَ[١٠٥] عليها من أولها إلى آخرها إن شاء الله. وانصرفتُ.

هوامش

(١) يريد أبا الوفاء المهندس، وهو محمود بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، مولده ببوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨، وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨، وكان إمامًا في الحساب والهندسة والجبر والفلك. تُوفِّي سنة ٣٨٧ كما في ابن الأثير، أو سنة ٣٨٨ كما في تاريخ الحكماء. وهو الذي ألف أبو حيان له هذا الكتاب.

(٢) خواشاذه هو أبو نصر خواشاذه، كان فارسيًّا من كبار رجال شرف الدولة البويهي، وكان سفيرًا في الاتفاق وعقد الصلح بين شرف الدولة وصمصام الدولة.

(٣) انظر تفسير هذا اللفظ في [الجزء الأول – الليلة الثالثة – حاشية رقم ١].

(٤) المرقعة: من لبس الصوفية، لما فيها من الرُّقَع. والتاسومة: كلمة شائعة الاستعمال عند العامة في نوع من النعال البالية يلبسه الفقراء، ولم نجدها فيما

راجعناه من كتب اللغة، كما أنها لم ترد فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة في الألفاظ العامية والدخيلة.

(٥) لعله يريد بالمربوطة في هذا الموضع: الواقفة عند حد من الفاقة لا تنتقل عنه.

(٦) من هذا: أي من أمر هربه.

(٧) يريد بالمتخلف: هذا الغلام الآبق، لتخلفه عن متابعة مولاه.

(٨) الصفيحيون: نسبة إلى الصفيح، وهو من أسماء السماء. يريد المتعبدين المتعلقة قلوبهم بالعالم العلوي.

(٩) وردت هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين في الأصل محرفة لا معنى لها، وما أثبتناه هو أقرب الحروف إلى الرسم الوارد في الأصل، كما أن سياق الكلام يقتضيه.

(١٠) الهون: الذل والهوان.

(١١) «الصك».

(١٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل. ولعله يريد أنه لو اكتفى بنقل حقيقة الحديث لما كان ذلك لائقًا بحاله، لما في هذا العمل من وصفه بالسعاية والوشاية.

(١٣) يريد بالباطلي أنه يأخذ بالشبهات والظنون الباطلة.

(١٤) دهدهه: دحرجه.

(١٥) «وما أكتب».

(١٦) «والمجكوت».

(١٧) موضع هذا اللفظ في الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا أو ما يفيد معناه.

(١٨) «أمر».

(١٩) أربيت: زدت.

(٢٠) ورد في الأصل بعد هذه الكلمة لام وميم، ولعلهما من زيادات النساخ لاستقامة الكلام بدونهما.

(٢١) «مشترقًا»، وقد ورد بعد هذه الكلمة في الأصل حاء وياء، ولعلهما من زيادات النساخ.

(٢٢) يغيب: أي يموت. وفي الأصل: «يعيش»، وهو تحريف لا يستقيم به المعنى.

(٢٣) «كتب» بالتاء.

(٢٤) «ينثو على ذاك»: أي يخبر عنه بذنوبه، يقال: «نثا على فلان ذنوبه»، إذا أخبر بها عنه وأشاعها.

(٢٥) كذا في معجم الأدباء، والذي في الأصل: «مسترقة».

(٢٦) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل، ومكانها كلمة مطموسة تتعذر قراءتها.

(٢٧) «جبن ولا إبر».

(٢٨) كذا في معجم الأدباء، ج٢، ص٢٧٦، الطبعة الأولى. والذي في الأصل: «بديهته»، ولا يستقيم مع العبارة السابقة.

(٢٩) «النية»، والتصحيح عن معجم ياقوت. والفيئة: الرجعة.

(٣٠) «المنكجفون».

(٣١) «إلا من فرغانة»، وقوله «إلا» زيادة من الناسخ.

(٣٢) «الحازق».

(٣٣) يريد بأحد الورقين: الدراهم المضروبة، وهو بفتح الراء وكسرها.

(٣٤) كذا في معجم الأدباء، ج٢، ص٢٧٧، الطبعة الأولى. والذي في الأصل: «ويهلم»، وهو تحريف لا معنى له.

(٣٥) «المهج»، وفي حروفه قلب.

(٣٦) «المفسدين». وما أثبتناه عن معجم الأدباء.

(٣٧) محكك: أي مجرِّب مدرَّب.

(٣٨) الكودن: الفرس الهجين. والعتيق عكسه.

(٣٩) المحمَّر: الفرس الهجين.

(٤٠) ورد في الأصل بعد قوله «قلت» جيم وميم وهما زيادة من الناسخ، لاستقامة الكلام بدونهما، ولأنهما لم يردا في معجم الأدباء. ويُلاحَظ أن في هذه النسخة كثيرًا من الحروف الزائدة.

(٤١) كذا في معجم الأدباء. والذي في الأصل: «موانسًا»، وهو تحريف.

(٤٢) «الأحمر»، وما أثبتناه عن معجم الأدباء.

(٤٣) «قفيائهما»، وهو تحريف. «ودخل على تفيئتهما»: أي على أثرهما، وتفيئة الشيء: حينه وزمنه.

(٤٤) «تكسرتني»، وهو تحريف. وفي معجم الأدباء: «كسرتني».

(٤٥) «يجب».

(٤٦) «مجبر» بفتح الباء، أي منسوب إلى مذهب الجبرية بالتحريك، وهم فرقة يقولون: ليس للعبد قدرة، وإن الحركات الإرادية بمثابة الرعدة والرعشة.

(٤٧) يريد الجزء الذي لا يتجزأ، وهو ما يُسمَّى بالجوهر الفرد.

(٤٨) «ابن ربن» هو علي بن ربن، كان طبيبًا مشهورًا، ألَّف كتابًا اسمه فردوس الحكمة، وكان يهوديًّا ثم أسلم على يد المعتصم.

(٤٩) البدل: اسم كتاب في الكلام لأبي عبد الله الحسين بن محمد النجار.

(٥٠) في معجم الأدباء: «وعلى بني ثوابة في التقفية.»

(٥١) هو أبو إسحاق مزبد المدني، اشتُهِر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف مُلَحه.

(٥٢) خالد بن سنان روَوْا أنه كان نبيًّا، وكان في زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وكان بأرض عبس. ولم نجد فيما بين أيدينا من الكتب من لقَّبه بابن المحيا، وقد وردت كنيته في معجم الأدباء بأبي المحياة.

(٥٣) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل، والسياق يقتضيها.

(٥٤) «ميتًا»، وهو تحريف لا يستقيم به المعنى. والميِّل: ذو المال.

(٥٥) «ولا كذا»: كلمة ظاهرها الرغبة في الاقتصاد في المدح، وباطنها الحث على الإكثار منه.

(٥٦) «ويتقابل»: أي تتقابل أجزاؤه بعضها ببعض، وذلك إذا استوى في مجلسه ولم يمل إلى ناحية.

(٥٧) يريد بصاحبه: الملك الذي استوزره، وهو مؤيد الدولة أو فخر الدولة أخوه فكلاهما قد استوزره.

(٥٨) «فقدر» بالقاف والدال.

(٥٩) المجدود: المحظوظ.

(٦٠) الاندراء: الاندفاع والتهجم.

(٦١) «تعار».

(٦٢) تجزع: أي تُجزَّأ. والدست: أربع وعشرون ورقة، كما في المعجم الفارسي الإنجليزي لاستاينجاس. والكاغد: الورق، معرب. وفرعوني: أي مصري.

(٦٣) في الأصل: «أجمد»، والميم زيادة من الناسخ.

(٦٤) «كنعو»، وهو تحريف لا معنى له.

(٦٥) الفروقة: الشديد الفرق بالتحريك، وهو الفزع.

(٦٦) «عجومه».

(٦٧) موضع هذه الكلمة في الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها، والسياق يقتضي ما أثبتنا أو إثبات ما يفيد معناه.

(٦٨) غير منطق: أي غير بليغ النطق.

(٦٩) الطباع: الطبع، يُستعمَل مفردًا كما هنا وجمعًا.

(٧٠) «بنسته».

(٧١) يتعجب بهذه العبارة من أصل الطبائع التي تخالف صاحبها فتصدق عنه إذا كذب نفسه، كما يدل على ذلك سياق الكلام الآتي.

(٧٢) الطم والرم: العدد الكثير، يقال: جاء بالطم والرم، والطم في الأصل: الماء الكثير أو ما ساقه الماء من غثاء، والرم: الثرى. والذي في الأصل: «الكظم وأكرم»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٧٣) الفروط: التقدم. وفي الأصل: «قروظًا»، وهو تصحيف.

(٧٤) «وتنكيرًا» بالكاف.

(٧٥) «الخليل».

(٧٦) «فوقة»، وهو تصحيف. والفوف بفاءين: البياض الذي يكون في الأظفار، الواحدة فوفة.

(٧٧) موضع هذه الكلمة في الأصل حروف مطموسة لم يظهر منها غير الواو والصاد والألف.

(٧٨) «قالمت»، واللام زيادة من الناسخ.

(٧٩) «التهزيج». والبهرج: الرديء.

(٨٠) يريد دار الضرب.

(٨١) «السبع».

(٨٢) في الأصل: «الجالبة» بالجيم.

(٨٣) ورد في الأصل بعد قوله «للقلب» كاف ولام، ولعلهما زيادة من الناسخ لاستقامة الكلام بدونهما.

(٨٤) «المرقوقة على فضل الأذن»، وفي هذه العبارة تحريف في كلمتين.

(٨٥) «ولهو»، واللام زيادة من الناسخ.

(٨٦) المؤاتية: أي المساعدة المعينة.

(٨٧) الجاسي: الجاف الصُّلْب.

(٨٨) «التعاطل» بالطاء، وهو تصحيف. ويقال «عاظل الكلام» إذا عقده ووالى بعضه فوق بعض، «وعاظل بالكلام»: أتى بالرجيع من القول وكرره.

(٨٩) «الاعتطال».

(٩٠) الغائب.

(٩١) محسوب: أي أحد معدود في الناس.

(٩٢) في الأصل: «والمستعمل أجزتم من المشيكم»، وفي جميع ألفاظها تحريف لا معنى له.

(٩٣) «يبرد» و«ينفد» مكان «يشرد» و«يند».

(٩٤) «اللفظ».

(٩٥) «المحاكم».

(٩٦) «مقف».

(٩٧) ابن يوسف الذي يريده هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، أحد أعيان الكتَّاب في دولة بني بُوَيْه، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه، وتقلد الوزارة بعده دَفعات لأولاده، وهو الذي دسَّ لابن سعدان عند صمصام الدولة حتى سجنه ثم قتله. وفي الجزء الثاني من اليتيمة نماذج من رسائله.

(٩٨) يريد بالعشق هنا: رغبته وميله إلى ما يزاوله من صناعة الكتابة.

(٩٩) «ووباها».

(١٠٠) «وغارفته».

(١٠١) «تأليه».

(١٠٢) «يزور».

(١٠٣) فلج: فاز على خصمه وظفر به.

(١٠٤) موضع هذه الكلمة في الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها. وما أثبتناه أقرب إلى ما ظهر من حروفها.

(١٠٥) «ووقفت»، والواو زيادة من الناسخ.

الليلة الخامسة

قال لي ليلة أخرى: ألا تتمِّم ما كنا به بدأْنا؟ قلت: بلى.

فأما أبو إسحاق[١] فإنَّه أَحَبُّ[٢] الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على المَحَجَّة الوسطى. وإنما يُنْقَم عليه قلة نصيبه من النحو، وليس ابن عباد في النحو بذاك، ولا كان أيضًا ابن العميد إلا ضعيفًا، وكان يذهب عنه الشيء اليسير. وأبو إسحاق معانيه فلسفية، وطباعه عراقية، وعادته محمودة، لا يَثِب ولا يَرْسُب، ولا يَكِلُّ ولا يَكْهَم،[٣] ولا يَلتفت وهو متوجِّه، ولا يتوجَّه وهو ملتفِت.

وقال[٤] لنا: إمامي ابنُ عبدكان،[٥] وهو قد أوْفَى عليه، وإن كان احتذى على مثاله، وفنونُه أكثر، ومأخذُه أخفَى، وخاطرُه أَوْقَد، وناظِرُه أَنْقَد، ورَوْضُه أنضَر، وسراجُه أزهَر. ويزيد على كل من تَقدَّم بالكتاب «التاجيّ»، فإنه أبان عن أمور وكنى في مواضع، وشنَّ الغارة في الصبح المنير مع الرَّعِيل الأول، ودلَّ على التفلسف، وعلى الاطِّلاع على حقائق السياسة، ولو لم يكن له غيره[٦] لكان به أعرَق الناس في الخطابة، وأعرق الكتَّاب في الكتابة. هذا، ونظمُه منثورُه، ومنثورُه منظومُه، إنما هو ذهبٌ إبريزٌ كيفما سُبِك فهو واحد، وإنما يختلف بما يُصاغ منه ويُشَكَّل عليه. هذا، مع الظُّرْف الناصع والتواضع الحَسَن، واللهجة اللطيفة، والخُلُق الدَّمِث، والمعرفة بالزمان، والخبرة بأصناف الناس. وله فنونٌ من

الكلام ما سبقه إليها أحد، وما ماثله فيها إنسان. وإني لأَرْحَم من لا يُسلِّم له هذا الوصف، لأنه إما أن يكون جاهلًا وإما عالمًا، فإن كان جاهلًا فهو معذور، وإن كان عالمًا فهو مَلُوم لأنه يدل من نفسه – بدافع ما يعلمه – على حسده، والحاسد مَهِين.

قال: هل كان في زمان هؤلاءِ من يُلْحَق بهم، ويَدخُل في زمرتهم؟ قلت: نعم، أبو طالب الجَرَّاحي، من آل علي بن عيسى، كتب للمَرْزُبان ملِك الدَّيْلَم بعدما انتَجَع فِناء ابن العميد أبي الفضل، فحسده وطرده، وعَضَّ بعد ذلك على ناجِذِه ندمًا على سوء فعله، ولقي منه أبو طالب الأمرَّيْن. ورسائلُه مبثوثة.

وأبو الحسن الفَلَكي، وكان من أهل البصرة، ووقع إلى المراغة ونواحيها. وهو حَسَن الدِّيباجة، رقيق حواشي اللفظ، وهو أَحَدُّهم غَرْبًا،(٧) وأغْزَرُهم سَكْبًا،(٨) وأبعَدُهم مُناخًا،(٩) وأعذَبُهم نُقاخًا،(١٠) وأعطفُهم للأول على الآخِر، وأنشَرُهم للباطن من الظاهر. وقرأتُ له:

فإن رأى أن ينظر نظر راحمٍ متعطِّف إلى نادم متلهِّف، ويجعل العفوَ عن فَرْطَته وكفرانِه صدقةً عن بسطتِه وسلطانِه، فأجدَر الناس بالاغتفار أقدَرُهم على الانتصار؛ فَعَلَ إن شاء الله تعالى.

وله مكاتبات واسعة بينه وبين رجل من أهل المراغة يقال له محمد بن إبراهيم، من أهل «سُرَّ مَن رأى». وفي الجملة، الفضل في الناس

مبْثُوث، وهم منه على جُدُود،[١١] والمرذول هو العاري من لَبُوسِه، المتردِّد بين تخلُّفه ونقصِه.

قال: [١٢] فكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها؟ قلت: والله لو أن عجوزًا بلهاء، أو أمةً وَرْهاء[١٣] أُقِيمَت مُقامه، لكانت الأمور على هذا السياق.

قال: وكيف ذاك؟ قلتُ: قد أَمِن أن يقال له: لِمَ فعلتَ، ولِم لَم تفعل؟ وهذا باب لا يتفق لأحدٍ من خَدَم الملوك إلا بجَدٍّ سعيد، ولقد نُصِح صاحبُه الهَرَوِيُّ في أموال تَاوية،[١٤] وأمورٍ من النظر عارية، فقَذَف بالرُّقعة إليه حتى عرَف ما فيها، ثم قتل الراقعَ خنقًا. هذا، وهو يدين بالوعيد، وله نظائر، ولنظائره نظائر، ولكن ليس له ناظر، ولا فيه مُناظر. وقال لي الثقةُ من أصحابه: ربما شَرَع في أمر يُحكَم فيه بالخطأ فيقلبُه جَدُّه صوابًا حتى كأنه عن وحي. وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفيَّةٌ في أستار الغيب، لا يهتدي إليها ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسَل، ولا وليٌّ مهذَّب. ولو جرت الأمور على موضوع الرأي وقضية العقل، لكان معلِّمًا في مصطبة على شارع أو في دارٍ، فإنه يخرِّج الإنسان بتفيهُقِه وتشادُقِه، واستحقاره واستكباره، وإعادتِه وإبدائه، وهذه أشكال تُعْجِب الصبيان ولا تنفِّرهم من المعلِّمين، ويكون فرحُهم بها سببًا للملازمة والحرصِ على التعلُّم والحفظ والرواية والدراسة.

قال: هذا قدرٌ كافٍ إلى أن تبيِّض الرسالة. هاتِ مُلْحَة الوداع. قلتُ: قال أبو العيناء: قال أبو دعلج: قال المهديُّ: بايع. قلتُ: أبايعكم [عَلَامَ؟ قال:] [١٥] على ما بُويع رسول اللهﷺ يوم صِفِّين! قال كريز أبو سيَّار المسمعيُّ: إن رسول اللهﷺ لم يدرك صِفِّين، إنما كانت صِفِّين بين عليٍّ ومعاوية. فقال دوست بن رباط الفُقَيْميُّ أبو شعيب: قد علم الأميرُ هذا، ولكن أحبَّ التسهيل على الناس! وانصرفتُ.

هوامش

(١) يريد بأبي إسحاق إبراهيمَ بن هلال الصابي، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة البويهي، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩. ونقم عليه عضد الدولة مكاتباتٍ صدرت منه، فلما ملك عضد الدولة أراد قتله فشفعوا فيه فأطلقه، وألف له كتاب «التاجي» في أخبار بني بويه. وأُرِيد على الإسلام فأبى وظل على دين الصابئة إلى أن مات سنة ٣٨٤ كما روى ابن خلكان، وقال ابن النديم إنه مات قبل سنة ٣٨٠.

(٢) «جم»، وسياق العبارة الآتية بعدُ يقتضي ما أثبتنا.

(٣) يكهم: يضعف.

(٤) «وقال»: أي أبو إسحاق الصابي.

(٥) ابن عبدكان هو محمد بن عبدكان، كان كاتبًا للدولة الطولونية، وكان بليغًا مترسِّلًا فصيحًا، وله ديوان رسائل.

(٦) «خبره».

(٧) «وأجدهم قربًا»، بالجيم في الأول والقاف في الثاني.

(٨) «وأعررهم سكنا».

(٩) «ثناخا» بالثاء.

(١٠) «نفاخا» بالفاء، وهو تصحيف. والنقاخ: الماء البارد العذب الصافي.

(١١) الجدود: الحظوظ، الواحد «جد» بالفتح.

(١٢) «قال»: أي الوزير، والضمير في «له» يعود على ابن عباد.

(١٣) الورهاء: الحمقاء.

(١٤) تاوية: أي هالكة.

(١٥) ما بين المربعَين لم يرد بالأصل، والسياق يقتضيه.

الليلة السادسة

ثم حضرتُه ليلةً أخرى، فأول ما فاتحَ به المجلسَ أن قال: أتفضِّل العرب على العجم أم العجم على العرب؟

قلت: الأمم عند العلماء أربع: الروم والعرب وفارس والهند، وثلاث من هؤلاء عجم، وصعبٌ أن يقال: العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لَها وتفاريقِ ما عندها.

قال: إنما أريد بهذا الفُرْس. فقلتُ: قبل أن أحكم بشيء من تلقاء نفسي أروي كلامًا لابن المقفَّع، وهو أصيلٌ في الفُرْس عريق في العجم، مفضَّل بين أهل الفضل، وهو صاحب «اليتيمة» القائل: تركتُ أصحاب الرسائل بعد هذا الكتاب في ضَحْضَاح من الكلام.

قال: هاتِ على بركة الله وعونه. قلت: قال شَبيب بن شَبَّة: إنَّا لَوُقوفٌ في عَرْصَة المِرْبَد – وهو موقف الأشراف ومجتمع الناس – وقد حضر أعيان المصر إذ طلع ابن المقفَّع، فما فينا أحد إلا هَشَّ له، وارتاح إلى مُساءلته، وسُرِرْنا بطلعته، فقال: ما يَقِفُكم على متون دوابِّكم في هذا الموضع؟ فوالله لو بعث الخليفةُ إلى أهل الأرض يبتغي مثلَكم ما أصاب أحدًا سواكم، فهل لكم في دار ابن برثن في ظلٍّ ممدود، وواقيةٍ من الشمس، واستقبال من الشَّمال، وترويحٍ للدَّوابِّ والغلمان، ونتمهَّد

الأرض فإنها خير بساط وأَوْطَؤُه، ويَسمع بعضنا من بعض، فهو أَمَدُّ للمجلس، وأَدَرُّ للحديث.

فسارعنا إلى ذلك، ونزلنا عن دوابِّنا في دار ابن برثن نتنسَّم الشَّمال، إذ أقبل علينا ابن المقفع، فقال: أيُّ الأمم أعقل؟ فظننا أنه يريد الفرس فقلنا: فارس أعقل الأمم، نقصد مقاربته ونتوخَّى مصانعته. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم عُلِّموا فتعلَّموا، ومُثِّل لهم فامتثَلوا واقتدوا،(١) وبُدِئُوا بأمر فصاروا إلى اتِّباعه، ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقلنا له: الروم. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبدانٌ وثيقة، وهم أصحاب بناء(٢) وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يحسنون غيرهما.

قلنا: فالصِّين. قال: أصحاب أثاثٍ وصنعة، لا فكر لها ولا روِيَّة. قلنا: فالتُّرْك. قال: سِبَاع للهِرَاش. قلنا: فالهند. قال: أصحاب وَهْم ومَخْرَقَة(٣) وشَعْبَذة وحيلة. قلنا: فالزَّنْج. قال: بهائِم هاملة. (٤) فرددنا الأمرَ إليه. قال: العرب. فتَلاحَظْنا وهَمَس بعضنا إلى بعض، فغاظه ذلك منَّا، وامتُقِع لونُه، ثم قال: كأنكم تظنون فيَّ مقارَبتكم، فوالله لوددتُ أن الأمر ليس لكم ولا فيكم، ولكن كرهتُ [إنْ] فاتني الأمر أن يفوتني الصواب، ولكن [لا] (٥) أدَعُكم حتى أبيِّن لكم لِمَ قلت ذلك لأخرج من ظِنَّة المداراة، وتوهُّم المصانعة؛ إن العرب ليس لها أولٌ تؤمُّه(٦) ولا كتابٌ يدلُّها، أهلُ بلد قَفْر، ووحشةٍ من الإنس، احتاج كلُّ واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله. وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض فوَسَموا كلَّ شيء بسِمَته، ونسبوه إلى جنسه، وعرفوا مصلحة ذلك في

رطبِه ويابسه، وأوقاتِه وأزمنتِه، وما يَصلُح منه في الشاة والبعير. ثم نظروا إلى الزمان واختلافه، فجعلوه ربيعيًّا وصيفيًّا، وقَيْظِيًّا وشتويًّا، ثم علموا أن شربهم من السماء، فوضعوا لذلك الأَنْواء، وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازله من السنة. واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض، فجعلوا نجوم السماء أدلةً على أطراف الأرض وأقطارِها، فسلكوا بها البلاد. وجعلوا بينهم شيئًا ينتهون به عن المنكر، ويرغِّبهم في الجميل، ويتجنبون به الدناءة، ويحضُّهم على المكارم، حتى إن الرجل منهم وهو في فَجٍّ من الأرض يصف المكارمَ فما يُبْقِي من نعتها شيئًا، ويُسرف في ذمِّ المساوئ فلا يقصِّر. ليس لهم كلام إلا وهم يُحاضُّون به على اصطناع المعروف، ثم حفْظ الجار وبذْل المال وابتناء المَحامد، كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته وفكرته، فلا يتعلمون ولا يتأدَّبون، بل نَحائزُ(٧) مؤدَّبة، وعقولٌ عارفة. فلذلك قلت لكم إنهم أعقل الأمم، لصحة الفطرة،(٨) واعتدال البِنيَة، وصواب الفِكر، وذكاء الفهم. هذا آخر الحديث.

قال: (٩) ما أحسنَ ما قال ابن المقفع! وما أحسنَ ما قصصتَه وما أتيتَ به! هاتِ الآن ما عندك من مسموع ومستنبَط.

فقلت: إن كان ما قال هذا الرجل البارعُ في أدبه المقدَّمُ بعقله كافيًا، فالزيادة عليه فضلٌ مستغنًى عنه، وإعْقابُه بما هو مثله لا فائدة فيه.

فقال: حدُّ[١٠] الوصف في التزيين والتقبيح مختلف الدلائل على ما يُعتقَد صوابُه وخطؤه، متباين. وهذه مسألة – أعني تفضيل أمة على أمة – من أمهات ما تَدارَأ الناس عليه وتدافعوا فيه، ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب إلى صلح متين واتفاق ظاهر.

فقلتُ: بالواجب ما وقع هذا، فإن الفارسيَّ ليس في فطرته ولا عادتِه ولا مَنْشَئه أن يعترف بفضل العربي، ولا في جِبِلَّة[١١] العربي ودَيْدَنِه أن يقر فضل الفارسي. وكذلك الهندي والرومي والتركي والديلمي. وبعد، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئَيْن: أحدهما ما خُصَّ به قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار للجيِّد والرديء، والرأي الصائب والفائل، والنظر في الأول والآخر. وإذا وقف الأمرُ على هذا فلكل أمة فضائلُ ورذائل، ولكل قوم محاسنُ ومَساوٍ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلِّها وعقدها كمال وتقصير. وهذا يَقضِي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مُفَاضَة على جميع الخلق، مفضوضةٌ بين كلِّهم.

فللفُرْس السياسة والآداب والحدود والرسوم، وللرُّوم العلم والحكمة، وللهند الفِكْر والرويَّة والخفَّة[١٢] والسِّحْر والأَناة، وللتُّرْك الشجاعة والإقدام، وللزَّنْج الصبر والكَدُّ والفرح، وللعرب النجدة والقِرَى والوفاء والبلاء والجود والذِّمام والخطابة والبيان.

ثم إن هذه الفضائل المذكورة في هذه الأمم المشهورة، ليست لكلِّ واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ثم في جملتها[١٣] مَن هو عارٍ من جميعها، وموسوم بأضدادها، يعني أنه لا تخلو الفُرْس من جاهل بالسياسة، خالٍ من الأدب، داخلٍ في الرَّعاع والهَمَج، وكذلك العرب لا تخلو من جبانٍ جاهلٍ طَيَّاش بخيلٍ عَيِيٍّ،[١٤] وكذلك الهند والروم وغيرهم. فعلى هذا إذا قُوبل أهل الفضل والكمال من الروم بأهل الفضل والكمال من الفُرس تلاقَوْا على صراط مستقيم، ولم يكن بينهم تفاوتٌ إلا في مقادير الفضل وحدود الكمال، وتلك لا تخصُّ[١٥] بل تلُمُّ. وكذلك إذا قُوبل أهل النقص والرذيلة من أمة بأهل النقص والخساسة من أمة أخرى تلاقَوْا على نهج واحد، ولم يقع بينهم [تفاوُت] [١٦] إلا في الأقدار والحدود، وتلك لا يُلتفَت إليها، ولا يُعَارُ[١٧] عليها. فقد بان بهذا الكشف أن الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة واختيار الفكرة، ولم يكن بعد ذلك إلا ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابية، والعادة المَنْشَئِيَّة، والهوى الغالب من النَّفْس الغضبيَّة، والنزاع الهائج من القوة الشَّهْوِيَّة.

وها هنا شيء آخَر، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامُنا من الدلالة عليه والإيماء إليه، [وهو أنَّ] [١٨] كل أمة لها زمان على ضدها،[١٩] وهذا بيِّن مكشوف إذا أرسلت وهمك في دولة يونان والإسكندر لَمَّا غَلَب وساس ومَلَك، ورَأَس وفتَق ورَتَق، ورسَم ودبَّر وأمر، وحَثَّ وزجر، ومحا وسطَّر، وفعل وأخبر، وكذلك إذا عطفت إلى حديث كسرى أنوشروَان وجدت هذه الأحوال بأعيانها، وإن كانت في غُلْف غير

غُلْف الأول، ومَعارِض غير معارض المتقدِّم، ولهذا قال أبو مسلم صاحب الدولة حين قيل له: أيُّ الناس وجدتَهم أشجع؟ فقال: كل قوم في إقبال دولتِهم شجعان، وقد صدق. وعلى هذا كل أمة في مبدأ سعادتها أفضلُ وأَنْجد وأشجع وأمجد وأسخى وأجود وأخطَب وأنطَق وأَرْأَى وأصدق. وهذا الاعتبار ينساق من شيء عامٍّ لجميع الأمم، إلى شيء شاملٍ لأمَّةٍ أمَّةٍ، إلى شيء حاوٍ لطائفةٍ طائفةٍ، إلى شيء غالبٍ على قبيلةٍ قبيلةٍ، إلى شيء معتادٍ في بيتٍ بيتٍ، إلى شيءٍ خاصٍّ بشخصٍ شخصٍ وإنسانٍ إنسانٍ. وهذا التحول من أمة إلى أمة يشير[٢٠] إلى فيض جود الله تعالى على[٢١] جميع بريَّته وخليقتِه بحسب استجابتهم لقبوله، واستعدادهم على تطاول الدهر في نَيْل ذلك من فضله. ومن رَقِيَ إلى هذه الرَّبْوة بعين لا قذًى بها، أبصر الحقَّ عِيانًا بلا مِرْية، وأخبر عنه بلا [فرية]، [٢٢] ومتى صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كلُّه كالنهار إذا مَتَع،[٢٣] واستنار كالقمر إذا طلع. ولم يَبْقَ حينئذٍ ريب في عرفان الحق وحصول الصواب، إلَّا ما يَلْتاث بالهوى، ويَسْمُج بالتعصب، ويَجلِب اللَّجاج، ويخرج إلى المَحْك،[٢٤] فهناك يَطِيحُ[٢٥] المعنى ويضلُّ المراد. فإذا آثرتَ أن تعرف صحة هذا الحكم وصواب هذا الرأي فاسمع ما أرويه: قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: انصرف العباس بن مِرْدَاس السُّلَميُّ من مكة فقال: «يا بني سُلَيم، إني رأيت أمرًا، وسيكون خيرًا، رأيتُ بني عبد المطلب كأن قُدُودَهم الرِّماح الرُّدَيْنِيَّة،[٢٦] وكأن وجوهَهم بُدُور الدُّجُنَّة، وكأن عمائمهم فوق الرجال أَلْوِية، وكأن منطقهم مطَرُ الوَبْل على المَحْل. وإن الله إذا أراد ثمرًا[٢٧] غَرَس له غَرْسًا،

وإن أولئك غَرْسُ الله، فترقَّبوا ثمرتَه، وتَوَكَّفُوا[٢٨] غَيْثَه، وتَفَيَّئُوا ظِلالَه، واستبشِرُوا بنعمة الله عليكم به.»

ولقد قَرَع العباس بهذا الكلام باب الغيب، وشَعَر بالمستور، وأحسَّ بالخافي، واطَّلع عقلُه على المستتر، واهتدى بلطف هاجِسه إلى الأمر المُزْمَع، والحادث المتوقَّع. وهذا شيء فاشٍ في العرب، لطول وحدتها، وصفاء فكرتها، وجودة بِنْيَتها، واعتدال هيئتها، وصحة فِطْرتها، وخَلاء ذَرْعها، واتِّقاد طبعِها، وسَعَة لغتها، وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها، وجَوَلَانها في اشتقاقاتها، ومآخذِها البديعة في استعاراتها، وغرائب تصرُّفها في اختصاراتها، ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها، وفنون تبحبُحها[٢٩] في أكناف مقاصدها، وعجيب مقاربتها[٣٠] في حركات لفظها. وهذا وأضعافه مُسَلَّم لهم، وموفَّر عليهم، ومعروفٌ فيهم، ومنسوبٌ إليهم، مع الشجاعة والنجدة والذِّمام[٣١] والضِّيافة والفِطْنة والخَطابة والحَمِيَّة والأَنَفة والحفاظ والوفاء، والبذل والسخاء، والتهالُك في حب الثناء، والنَّكَل[٣٢] الشديد عن الذم والهجاء، إلى غير ذلك مما خُصَّت به في جاهليتها قبل الإسلام، مما لا سبيل إلى دفعه وجحوده، والبُهْت فيه، والمكابرة عليه.

وقد سمعنا لغاتٍ كثيرةً – وإن لم نستوعبها – من جميع الأمم، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والتُّرْك وخُوَارَزم وصِقْلاب وأندلس والزَّنْج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نُصُوعَ[٣٣] العربية، أعني الفُرَج التي في كلماتها، والفضاءَ الذي نجده بين حروفها، والمسافةَ التي بين

مخارجها، والمعادَلة التي نذوقها في أمثلتها، والمساواةَ التي لا تُجْحَد في أبنيتها. وإذا شئتَ أن تعرف حقيقة هذا القول، وصحة هذا الحكم، فالْحَظ عرض[٣٤] اللغات الذي هو بين أَشدِّها تلابسًا وتداخُلًا، وترادُفًا وتعاظُلًا،[٣٥] وتعَسُّرًا وتعوُّصًا،[٣٦] وإلى ما بعدها مما هو أَسْلَس حروفًا، وأرقُّ لفظًا، وأخفُّ اسمًا، وألطف أوزانًا،[٣٧] وأحضَرُ[٣٨] عِيانًا، وأحلى مَخْرجًا، وأَجْلى منهجًا،[٣٩] وأعلى[٤٠] مَدْرَجًا، وأَعْدل عدلًا، وأوضح فضلًا، وأصحُّ وصلًا، إلى أن تنزِل[٤١] إلى لغة بعد لغة، ثم تنتهي إلى العربية، فإنك تحكم بأن المبدأ الذي أشرنا إليه في العوائص والأَغْماض سرى[٤٢] قليلًا قليلًا حتى وقف على العربية في الإفصاح والإيماض.

وهذا شيء يجده[٤٣] كلُّ من كان صحيح البِنية، بريئًا من الآفة، متنزِّهًا عن الهوى والعصبيَّة، محبًّا للإنصاف في الخصومة،[٤٤] متحرِّيًا للحق في الحكومة، غير مسترَقٍّ[٤٥] بالتقليد، ولا مخدوع بالإِلْف، ولا مسخَّر[٤٦] بالعادة. وإني لأعجب كثيرًا ممَّن يرجع إلى فضل واسع، وعلمٍ جامع، وعقل سديد، وأدب كثير، إذا أبى هذا الذي وصفتُه، وأنكر ما ذكرتُه.

وأعجب أيضًا فضلَ عجب من الجَيْهَانيِّ[٤٧] في كتابه وهو يسبُّ العرب، ويتناول أعراضَها، ويحطُّ من أقدارها، ويقول: يأكلون اليَرابِيع والضِّباب والجُرْذان والحيَّات، ويتعاورون[٤٨] ويتساورون، ويتهاجَوْن ويتفاحشون. وكأَنَّهم قد سُلِخوا من فضائل البَشَر، ولبسوا أُهُب الخنازير. قال: ولهذا كان كسرى يسمِّي ملِك العرب «سَكَان شاه»، أي ملِك

الكلاب. قال: وهذا[٤٩] لشدة شبههم بالكلاب وجِرائها، والذئاب وأَطْلائها. [٥٠] وكلامًا كثيرًا من هذا الصَّوْب أرفع قدره عن مِثله، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله.

أتُراه لا يعلم لو نزل[٥١] ذلك القفرَ وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوي وتلك الفَيافيَ والمَواميَ كلُّ كسرى كان في الفُرس، وكلُّ قيصر كان في الروم، وكلُّ بَلَهْوَر[٥٢] كان بالهند، وكلُّ فُغْفور كان بخراسان، وكلُّ خاقان كان بالتُّرْك، وكلُّ أَخْشَاد[٥٣] كان بفَرْغَانة، وكلُّ صَبَهْبُذ[٥٤] كان من أسكنانَ[٥٥] وأَرْدُوان؛ ما كانوا يَعْدُون هذه الأحوال، لأن من جاع أكل ما وجد، وطعِم ما لَحِق،[٥٦] وشَرِب ما قَدَر عليه، حبًّا للحياة، وطلبًا للبقاء، وجزعًا من الموت، وهربًا من الفَناء.

أتُرى أنوشروان إذا وقع إلى فيافي بني أسد، وبَرِّ «وَبار»،[٥٧] وسُفوح طِيبة،[٥٨] ورَمْل يَبْرِين، وساحة هَبير،[٥٩] وجاع وعَطِش وعَرِي؛ أما كان يأكل اليَرْبُوع والجُرْذان، وما كان يشرب بول الجمل وماء البئر، وما أَسَن في تلك الوَهَدات؟ أوَما كان يلبس البُرْجُد[٦٠] والخَمِيصة[٦١] والسَّمِل[٦٢] من الثياب وما هو دونه وأخشَن؟ بلى والله، ويأكل حشرات الأرض ونبات الجبال، وكلَّ ما حَمض ومرَّ، وخبُث وضَر، هذا جهلٌ من قائله، وحَيْفٌ من منتحله. على أن العرب – رحمك الله – أحسن الناس حالًا وعيشًا إذا جادتهم السماء، وصدقَتْهم الأنواء،[٦٣] وازدانت الأرض، فهُدِّلت الثمار، واطَّردت الأودية، وكثر اللبن والأَقِط[٦٤] والجبن واللحم والرُّطَب والتمر والقمح، وقامت لهم الأسواق، وطابت المرابع، وفشا

الخصب، وتوالى النَّتاج، واتصلت المِيرة، وصدق المصاب،[٦٥] وأَرْفَغ[٦٦] المنتجِع، وتلاقت القبائل على المحاضر،[٦٧] وتقاولوا[٦٨] وتضايفوا، وتعاقدوا وتعاهدوا، وتزاوروا وتناشدوا، وعقدوا الذمم، ونطقوا بالحِكَم، وقرَوا الطُّرَّاق، ووصلوا العُفاة، وزوَّدوا السابلة، وأرشدوا الضُّلَّال، وقاموا بالحَمالات،[٦٩] وفكوا الأسرى، وتداعَوا[٧٠] الجَفَلى، وتعافَوا النَّقَرى، وتنافسوا في أفعال المعروف. هذا وهم في مساقط رءوسهم بين جبالهم ورمالهم، ومناشئ آبائهم وأجدادهم، وموالد أهلهم وأولادهم، على جاهليتهم الأولى والثانية، وقد رأيتَ حين هبت ريحهم وأشرقت دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملة، وعزَّت ملتهم بالنبوة، وغلبت نبوتهم بالشريعة، ورسخت شريعتهم بالخلافة، ونُضِّرتْ خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية؛ كيف تحولت جميع محاسن الأمم إليهم، وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها وكدحوا[٧١] في حيازتها أو تعبوا في نيلها، بل جاءتهم[٧٢] هذه المناقب والمفاخر، وهذه النوادر من المآثر عفوًا،[٧٣] وقطنتْ بين أطناب بيوتهم سهوًا رَهْوًا.[٧٤] وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه، وساقه إلى أهله بتأييده، وحلَّى مستحقيه باختياره، ولا غالب لأمر الله، ولا مبدِّل لحكم الله، ولذلك قال الله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ولله في خلقه أسرار، تتصرف بها دوائر الليل والنهار، وتذلِّلها مجاري الأقدار، حتى يُنتهَى بمحبوبها ومكروهها إلى القرار.

عَزَّ إلهًا معبودًا، وجل ربًّا محمودًا مقصودًا. وبعد، فالذي لا شك فيه مِن وصف العرب، ولا جاحد له من حالها؛ أنه ليس على وجه الأرض جيلٌ من الناس ينزلون القفر، وينتجعون السحاب والقطر، ويعالجون الإبل والخيل والغنم وغيرها، ويستبدُّون في مصالحهم بكل ما عز وهان، وبكل ما قل وكثر، وبكل ما سهل وعسر، ويرجون الخير من السماء في صوبها،(٧٥) ومن الأرض في نباتها، مع مراعاة الأوان بعد الأوان، وثقةً بالحال بعد الحال، وتبصرةً فيما يُفعل ويُجتنب؛ ما للعرب فيما قدمنا وصفه، وكررنا شرحه، من علمهم بالخصب والجدب، واللين والقسوة، والحر والبرد، والرياح المختلفة، والسحائب الكاذبة، والمخايل الصادقة، والأنواء المحمودة والمذمومة، والأسباب الغريبة العجيبة.

وهذا لأنهم مع توحشهم مستأنسون، وفي بواديهم حاضرون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات، ومن أخلاق البادية أطهر الأخلاق.

وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المدن وأرباب الحضر، لأن الدناءة والرقة والكيْس والهَيْن والخَلابة والخداع والحيلة والمكر والخِبَّ تغلب على هؤلاء وتملكهم، لأن مدار أمرهم على المعاملات السيئة، والكذب في الحِس،(٧٦) والخلف في الوعد.

والعرب قد قدسها الله عن هذا الباب بأسره، وجَبَلها على أشرف الأخلاق بقدرته، ولهذا تجد أحدهم وهو في بَتٍّ(٧٧) حافيًا حاسرًا يذكر

الكرم، ويفتخر بالمحمدة، وينتحل النجدة، ويحتمل الكَلَّ،[٧٨] ويضحك في وجه الضيف، ويستقبله بالبِشر، ويقول:

أحدثه إن الحديث من القرى

ثم لا يقنع ببث العُرف وفعل الخير والصبر على النوائب، حتى يحضَّ الصغير والكبير على ذلك ويدعو إليه، ويستنهضه نحوه، ويكلِّفه مجهودَه وعفوه.

وقد قيل لرجل منهم في يوم شاتٍ وهو يمشي في سَمِل: [٧٩] أما تجد البرد يا أخا العرب؟ فقال: أمشي الخَيْزلَى[٨٠] ويدفئني حَسَبي. والفارسي لا يحسن هذا النمط، ولا يذوق هذا المعنى، ولا يَحلَم بهذه اللطيفة، وكذلك الرومي والهندي وغيرهما من جميع العجم.

ومما يدل على تحضرهم في باديتهم، وتبديهم في تحضرهم، وتحليهم بأشرف أحوال الأمرين؛ أسواقهم التي لهم في الجاهلية، مثل دُومَة[٨١] الجَنْدل بقُرى كلب[٨٢] وهي النصف بين العراق والشأم، كان ينزلها الناسُ أول يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، وكان يعشِّرهم أُكَيْدِر[٨٣] دومة، وربما غلبت على السوق كلب فيعشرهم[٨٤] بعض رؤساء كلب، فيقوم سوقهم إلى آخر الشهر، ثم ينتقلون إلى سوق هَجَر،[٨٥]وهو المشَقَّر[٨٦] في شهر ربيع[٨٧] الآخر فتقوم أسواقهم، وكان يعشرهم المنذر بن ساوَى أحدُ بني عبد الله بن دارِم. ثم يرتحلون نحو عُمان[٨٨] فتقوم سوقهم بديار دَبَا،[٨٩]

ثم بصحار،[٩٠] ثم يرتحلون فينزلون إرَم[٩١] وقرى الشِّحر[٩٢] فتقوم أسواقهم أيامًا. ثم يرتحلون فينزلون عدن أَبْيَن، ومن سوق عدن تُشترى اللطائم[٩٣] وأنواع الطيب، ولم يكن في الأرض أكثر طيبًا ولا أحذق صنَّاعًا للطيب من عدن. ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها، ومنها كانت تُجلب آلة الخَرْز والأَدَم والبُرود، وكانت تُجلَب إليها من معافر،[٩٤] وهي معدن البرود والحِبَر.[٩٥] ثم يرتحلون إلى عُكاظ وذي المجاز في الأشهر الحرم فتقوم أسواقهم بها، فيتناشدون ويتحاجُّون ويتحادُّون، ومن له أسير يسعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم، وكان آخرهم الأقرع بن حابس. ثم يقفون بعرفة ويقضون ما عليهم من مناسكهم، ثم يتوجهون إلى أوطانهم.

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها مَن قرُب من العرب ومَن بَعُد. هذا حديثهم وهم هَمَل لا عز لهم إلا بالسؤدد، ولا مَعقِل لهم إلا السيف، ولا حصون إلا الخيل، ولا فخر إلا بالبلاغة.

ثم لما ملكوا الدُّور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر؛ لم يقعدوا عن شأو[٩٦] من تقدم بآلاف سنين، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم، بل أبَرُّوا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا. وهذا الحكم ظاهر معروف، وحاضر مكشوف، ليس إلى مردِّه سبيل، ولا لجاحده[٩٧] ومنكره دليل.

فليستحْي الجيهاني[٩٨] بعد هذا البيان والكشف والإيضاح، بالإنصاف من القَذَع والسَّفَه اللذين حشا بهما كتابه، وليرفع نفسه عما يَشين العقل، ولا تقبله حُكَّام العدل. وصاحب العلم الرصين والأدب المكين لا يسلِّط خصمَه على عِرضه بلسانه، ولا يستدعي مُر الجواب بتعرضه، ويَرضَى بالميسور في غالب أمره، فإن العصبية في الحق ربما خذلت صاحبها وأسلمتْه وأبدت عورتَه واجتلبت مساءته،[٩٩] فكيف إذا كانت في الباطل؟ ونعوذ بالله أن نكون لفضل أمة من الأمم جاحدين! كما نعوذ به أن نكون بنقص أمة من الأمم جاهلين! فإن جاحد الحق يدل من نفسه على مهانة، وجاهل النقص يدل من نفسه على قصور، فهذا هذا. وفي الجملة المسلَّمة والدعوة المرسلة أن أهل البر وأصحاب الصحارى الذين وِطاؤهم الأرض وغطاؤهم السماء؛ هم في العدد أكثر، وعلى بسيط الأرض أجول، ومن الترفه والرفاهية أبعد، وبالحول والقوة أعلَق، وإلى الفكرة والفطنة أفزع،[١٠٠] وعلى المصالح والمنافع أوقع، ومن المخازي آنَف، وللقبائح أَعْيَف. وهذا للدواعي الظاهرة، والحاجات[١٠١] الضرورية، والعلائق الحاضَّة[١٠٢] على الألفة والمودة، والشدائد المؤدِّبة، والعوارض اللَّازِبة. [١٠٣] ولهذا يقال: عيب الغِنى أنه يورث البلادة، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة. وهذا معنى كريم لا يُقرُّ به إلا كل نِقاب عليم.

وقال الجيهانيُّ أيضًا: مما يدل على شرفنا وتقدمنا وعزنا وعلو مكاننا، أن الله أفاض علينا النِّعَم، ووسَّع لدينا القِسَم، وبوَّأنا الجِنان والأرياف، ونعَّمنا وأترفَنا، ولم يفعل هذا بالعرب، بل أشقاهم[١٠٤]

وعذبهم، وضيق عليهم وحرمهم، وجمعهم في جزيرة حَرِجة ورقعة صغيرة، وسقاهم بأرنَقَ[١٠٥] ضاحٍ. وبهذا يُعلَم أن المخصوص بالنعمة والمقصود بالكرامة فوق المقصود بالإهانة.

فأطال هذا البابَ بما ظن أنه قد ظَفِر بشيء لا جواب عنه ولا مقابل له، ولو كان الأمر كما قال لما خفي على غيره وتجلَّى له، بل قد خُصَّت العرب بعد هذا بأشياء تطول حسرةُ[١٠٦] من فاتته عليها، ولا يفيد التفاتُه بالغيظ إليها. وقد دل كلامُه على أنه جاهل بالنعمة، غافلٌ عما هو سرُّ الحكمة.

وعنده أن الجاهل إذا لبس الثوب الناعم، وأكل الخبز الحُوَّارَى،[١٠٧] وركب الجواد، وتقلَّب على الحَشِيَّة، وشرب الرحيق، وباشر الحسناء؛ هو أشرف من العالِم إذا لبس الأطمار، وطَعِم العُشب، وشرب الماء القَراح، وتوسَّد الأرض، وقنع باليسير ورخِيِّ العيش، وسلا عن الفضول. هذا خطأ من الرأي، ومردود من الحُكم عند الله تعالى أولًا ثم عند جميع أهل الفضل والحِجا وأصحاب التُّقى والنُّهَى. وعلى طريقته أيضًا أن البصير أشرف من الأعمى، والغنيَّ أفضل من الفقير.

ألا يعلم أن المدار على العقل الذي مَن حُرِمه فهو أنقص من كل فقير، وعلى الدين الذي من عَرِي منه فهو أسوأ حالًا من كل موسر. ونعمة الله على ضربين: أحد الضربين عمَّ به عبادَه، وغمر بفضله خليقتَه، بدءًا بلا استحقاق. وذلك أنه خلَق ورزَق وكفل وحفظ ونعَش وكلأ وحرس

وأمهل وأفضل ووهَب وأجزل، وهذا هو العدل المخلوط بالإحسان، والتسويةُ المعمومة بالتفضل، والقدرةُ المشتملة على الحكمة. والضرب الثاني هو الذي يُستحَق بالعمل والاجتهاد، والسعي والارتياد، والاختيار والاعتقاد، ليكون جزاءً وثوابًا. ولهذا حرَم العاصيَ المخالف، وأنال الطائعَ الموافق. فقد بان الآن أن المدار ليس بالجنان والترفه، ولا بالذهب والفضة، ولا الوَبَر والمَدَر.

وقد مرَّ[١٠٨] هذا الكلام كله، فليسكن من الجيهاني جأشُه، وليفارقه طيشُه، وليعلم أن من أنصف أعطَى بيده، وسلَّم الفضل لأهله، فإن التواضع للحق رفعة، والترفع بالباطل ضَعة. [١٠٩]

وها هنا بقية ينبغي أن يُتبصَّر فيها: من عَرف النقص البحت، والنقصَ المشوب بالزيادة، والفضلَ الصِّرف، والفضلَ الممزوج بالنقيصة؛ لم يجحد بالهوى المُغوي فضلًا، ولم يَدَّعِ للعصبية المُرْدية شرفًا، ولم ينكِر بالحسد مزيَّة. والخلق كلُّهم في نعم الله تعالى مشتركون، وفي أياديه مغموسون، وبمواهبه متفاضلون، وعلى قدرته متصرفون، وإلى مشيئته صائرون، وعن حكمته مخبِرون، ولآلائه ذاكرون، ولنَعْمائه شاكرون، ولأياديه ناشرون، وعلى اختلاف قضائه صابرون، ولثوابه بالحسنات مستحقون، ولعقابه بالسيئات مستوجبون، ولعفوه برحمته منتظرون، والله خبيرٌ بما يعملون، وبصير بما يُسرُّون وما يعلنون. وأبو سليمان يقول مع الجماعة: العرب[١١٠] أذهب مع صفو العقل، ولذلك هم[١١١] بذكر المحاسن أَبْدَه وعن أضدادها أنزه. ولو كانت رويتُهم في وزن بديهتهم

كان الكمال، ولكن لما عز الكمال فيهم عزَّ أيضًا(١١٢) في غيرهم من الأمم، فالأمم كلُّها شرعٌ واحد في عدم الكمال، إلا أنهم متفاضلون بعد هذا فيما نالوه بالخِلْقة الأولى وبالاختيار الثاني. واختلفت أبصارهم في هذا الموضع، فأما ما مُنِعه الإنسانُ في الأول فلا عَتْب عليه فيه، لأنه لا يقال للأعمى: لمَ لا تكون بصيرًا؟ ولا يقال للطويل: لمَ لا تكون قصيرًا؟ وقد يقال للقصير: سدِّد طرفك، واكحُل عينك، ومُدَّ(١١٣) ناظرك، كما يقال للطويل: تطامنْ في هذا الزقاق حتى تدخل، وتقاصر حتى تصل. وأما ما لم يُمنَعه الإنسانُ في الأول، بل أُعطِيه ووُهِب له، فهو فيه مطَّلَبٌ بما عليه وله كما أنه مطالَب بما له وعليه.

وقال الجيهاني أيضًا: ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقى ولا كتاب الفلاحة، ولا الطب ولا العلاج، ولا ما يجري في مصالح الأبدان ويدخل في خواص الأنفس.

فليعلم الجيهاني أن هذا كله لهم بنوعٍ إلهي لا بنوع بشري، كما أن هذا كله لغيرهم بنوعٍ بشري لا بنوعٍ إلهي. وأعني بالإلهي والبشري الطِّباعي والصناعي. على أن إلهيَّ(١١٤) هؤلاء قد مازجه بشريُّ هؤلاء، وبشريَّ هؤلاء قد شابه إلهيُّ هؤلاء. ولو علم هذا الزاري لعلِم أن المجسطيَّ وما ذكره ليس للفرس أيضًا، وما عندي أنه مكابر فيدعي هذا لهم. فإن قال: هو لليونان، ويونان من العجم والفرس من العجم، فأنا أُخرِج(١١٥) هذه الفضيلة من العجم إلى العجم. فهذا منه حيفٌ على نفسه وشهادةٌ على نقصه، لأنه لو فاخر يونانَ لم يستطع أن يدَّعي هذا

للفرس، ولا يمكنه أن يقول: نحن أيضًا عجم، وفضيلتكم في هذه الكتب والصناعة متصلةٌ بنا وراجعةٌ إلينا. ومتى قال جُبِه[١١٦] بالمكروه وقوبل بالقذع،[١١٧] وقيل له: صه،[١١٨] كما يقال للجاهل – إن لم تقل له: «اخسأ» كما يقال – في كل[١١٩] الأحاديث. وإن أغفلتُه[١٢٠] ظلمتُ نفسي، ومن حابى خصمَه غُلِب.

قال القاضي أبو حامد المرْوَرُّوذي: [١٢١] لو كانت الفضائل كلها بعِقْدها وسِمْطها، ونظمها ونثرها، مجموعةً للفرس، ومصبوبةً على أرؤسهم، ومعلقةً بآذانهم، وطالعةً من جباههم؛ لكان لا ينبغي أن يذكروا شأنَها، وأن يَخرَسوا عن دِقِّها وجِلِّها مع نيكهم الأمهات والأخوات والبنات، فإن هذا شيء كريهٌ بالطباع، وضعيف بالسماع، ومردود عند كل ذي فطرة سليمة، ومستَبشَع في نفس كل من له جبلة[١٢٢] معتدلة. قال: ومن تمام طغيانهم وشدة بهتانهم أنهم زعموا أن هذا بإذن من الله تعالى، وبشريعة أتت من عند الله! والله تعالى حرم الخبائث من المطعومات فكيف حلل[١٢٣] الخبائث من المنكوحات؟ قال: وكذب القوم، لم يكن زَرادشت نبيًّا، ولو كان نبيًّا لذكره الله تعالى في عرض الأنبياء الذين نوَّه بأسمائهم وردَّد ذكرهم في كتابه، ولذلك قال النبيﷺ: «سُنُّوا بهم سُنة أهل الكتاب»، لأنه لا كتاب لهم من عند الله منزَّل على مُبلِّغ عنه، وإنما هو خرافة خدعهم بها زرادشت بقوة المَلِك الذي قَبِل ذلك منه وحمل الناس عليه طوعًا وكرهًا، وترغيبًا وترهيبًا، وكيف يبعث الله نبيًّا يدعو إلى إلهين اثنين؟ وهذا مستحيل بالعقل، وما خلق الله العقلَ إلا ليشهد بالحق للمُحِقِّ والباطل للمُبطِل، ولو كان شرعًا لكان ذلك شائعًا عند أهل

الكتابين أعني اليهود والنصارى، وكذلك عند الصابئين، وهم كانوا أكثر الناس عنايةً بالأديان والبحث عنها والتوصل إلى معرفة حقائقها، ليكونوا من دينهم على ثقة، فكيف صارت النصارى تعرف عيسى واليهود تعرف موسى؟ ومحمدﷺ يذكرهما ويذكر غيرَهما كداود وسليمان ويحيى وزكريا وغير هؤلاء، ولا يذكر زرادشتَ بالنبوة وأنه جاء من عند الله تعالى بالصدق والحق كما جاء موسى وعيسى ...[١٢٤] لكني بُعثت ناسخًا لكل شريعة، ومجددًا لشريعة خصني الله بها من بين العرب.

قال: وهذا بيانٌ نافع في كذبهم، وإنما جاءوا إلى وَهْيٍ فرقعوه، وإلى حرامٍ بالعقل فأباحوه، وإلى خبيثٍ بالطبع فارتكبوه، وإلى قبيحٍ في العادة فاستحسنوه.

وقد وجدنا في البهائم ما إذا أُنْزِي الفحلُ منها على أمِّه لم يطاوِع، وإذا أُكْرِه وخُدِع وعَرَف غضب على أهله وندَّ عنهم، وشَرُرَ عليهم. فما تقول في خُلُق لا ترضاه البهيمة ولا تطاوعه[١٢٥] فيه الطبيعة، بل يأباه حسُّه مع كُلُولِه،[١٢٦] وتبرُد شهوتُه مع اشتعالها، ويرضاه هؤلاء القومُ مع عُجْبِهم بعقولهم، وكِبْرِهم في أنفسهم؟

ولو كان زرادشت أقام لهم على هذه الخَصْلة اللئيمة والفَعْلة الذميمة كلَّ آية وكل برهان، ونشر عليهم نجومَ السماء، وأطلَع لهم الشمس من المغرب، وفتَّت لهم الجبال، وغَيَّض لهم البحار، وأراهم الثريا تمشي على الأرض تخترق السكك وتشهد له بالصدق؛ لكان من

الواجب بالعقل وبالغَيْرة وبالحَمِيَّة وبالأنفة وبالتقزُّز وبالتعزُّز ألا يجيبوه إلى ذلك، ويشكُّوا في كل آية يرون منه، ويقتلوه وينكّلوا به.

ولكن بمثل هذا العقل قبلوا من مَزْدَك ما قبلوه مرة، ولو عاملوا زرادشت بما عاملوا به مزدك ما كان الأمر إلا واحدًا، ولا كان الحق إلا منصورًا، ولا كان الباطل إلا مقهورًا. ولكن اتفق على مزدك ملِك عاقل فوضع باطلَه، واتفق لزرادشت ملِك ركيك فرفع باطلَه. وما نزع الله عنهم المُلك إلا بالحق، كما قال تعالى: فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ. ثم قال: وبعدُ، فكل شيء خارجٍ من الحكمة الإلهية والعقلية والطبيعية فهو ساقطٌ بَهْرَج، ومردودٌ مرذول، إذا فعله جاهل عُذِر بالجهل، وإذا أتاه عالم عُذِل للعِلم.

قال: وكانت العرب بهذا الخلُق الذميم وهذا الفعل اللئيم لو فعلتْه أعذر، لأنهم أشد غُلْمة من غيرهم وأكثرُ تهيجًا، وأقوى على البِضاع، وأوثبُ على النساء. يدلك على هذا غزلُهم وعشقُهم ونظمُهم ونثرهم وفراغُهم وشهوتُهم. وتراهم مع هذه الدواعي والبواعث لم يستحسنوا هذا ولم يفعلوه، ولو أكرههم على هذا مُكرِه ودعاهم إليه داع لما أطاعوه، ولذلك لم يَنجُم منهم ناجم بالحيلة فدعا إلى هذا. ولو كان لكان أولَ مَنْ دُقَّ رأسُه بالعَمَد، وبُعِج بطنُه بالخنجر. وما منعهم من هذا إلا الأنفس الكريمة، والطباع المعتدلة، والشكائم الشديدة، والأرواح العيِّفة، والعادات الرضية، والضرائب الطيبة. وكان وأدُ البنات عندهم أنفى للمَعاير، وأطرد للقبائح من هذا الذي استحسنه زرادشت وقَبل منه

الفُرس، وهم يدَّعون الحُكم والعِلم والحزم والعزم، ولفرط جهلهم وغلبة شهوتهم غَفَلوا عما يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحًا له أو حاظرًا، أو مطلِقًا أو مانعًا، أو محللًا أو محرمًا. هيهات! ما كلَّف اللهُ أهلَ العقل القيامَ بالدين والتصفح للحق(١٢٧) من الباطل، إلا لمَا شرَّفهم به في العاجل، وعرَّضهم له في الآجل. والعاقبة للمتقين.

قال أبو الحسن الأنصاري،(١٢٨) وكان حاضرًا: الهند أوضح عذرًا في هذا الحديث، لأنهم جعلوه من باب القُربة في بيوت الأصنام، وبلغوا مرادَهم بهذه الخديعة، ولم ينسبوا إلى الله شيئًا منه، ولا استجازوا الكذبَ عليه، ولا علَّقوه أيضًا على نبي من عند الله، بل رأوه صوابًا بالوضع(١٢٩) ثم طابت أنفسهم من هذا الفعل بالمران والعادة. وبعد، فعقولهم مدخولة، والبارع منهم قليل، وهم إلى الإفك(١٣٠) والوهم والسحر أميَل، وفي أبوابها أدخَل. ثم قال أبو الحسن: انظر إلى جهل زرادشت في هذا الحُكم، وإلى ضعف عقول الفرس في قبولهم منه هذا الفعل، وخَيِّرْ بينها وبين عقول العرب فإنهم قالوا: «اغتربوا، لا تُضْوُوا.» (١٣١) واستفاض هذا منهم حتى سُمع من صاحب الشريعةﷺ، وذلك أن الضَّوَى مكروه. والعرب قالت هذا بالإلهام لقرائحهم الصافية، وأذهانهم الواقدة، وطينتهم الحرة، وأعراقهم الكريمة، وعاداتهم السليمة. وإنما شعروا بهذا لأن الضوى الواصل إلى الأبدان هو سارٍ في العقول، ولكن الفرس عن هذا السر غافلون، ولا يفطن لهذا وأمثاله إلا الألمعيُّون الأحوذيُّون. (١٣٢) ثم قال: أنشد الأصمعي عن العرب قول قائلهم في مدح صاحب له:

فتًى لم تلده بنتُ عمٍّ قريبةٌ

فيَضوَى وقد يَضوَى رديدُ الأقاربِ

قال: وقالت العرب: «أضواه حقَّه»، إذا نقصه. قال: وقال آخَر لولده: والله لقد كفيتُك الضُّئُولة، واخترتُ لك الخُئُولة.

وقال أيضًا: العرب تقول: ليس أضوى من القرائب، ولا أنجب من الغرائب. وقال الشاعر:

أنذرتُ من كان بعيدَ الهمِّ ... تزويجَ أولادِ بناتِ العمِّ

ليس بناجٍ من ضوًى أو سُقمِ ... وأنت إن أطعمتَه لا يَنمِي

وقال الأسدي يفتخر:

ولستُ[١٣٣] بضاويٍّ تموج عظامُه ... ولادته في خالد بعد خالد

تردَّد[١٣٤] حتى عمّه خال أمه ... إلى نسب أدنى من السر واحد

ثم قال: والعرب لم ترد بهذا إلا نقص الذهن والعقل، لأنها لو أرادت نقصان الجسم لكانت مخطئة، لأنهم يريدون سَمانة الجسم مع السلامة والصلابة. ثم قال: وعلى هذا طباع الأرض، ولذلك يقال: إذا كثرت المؤتفكات[١٣٥] زكت الأرض، لأن الرياح إذا اختلفت حولت تراب أرضٍ إلى أرض، وإذا كان الاغتراب يؤثِّر من التراب إلى التراب

فبالحريِّ[١٣٦] أن يؤثر[١٣٧] الإنسان في الإنسان بالاغتراب، لأن الإنسان أيضًا من التراب.

قال أبو حامد: فما ظنك بقوم يجهلون آثار الطبيعة وأسرار الشريعة؟[١٣٨] ما أذلهم الله باطلًا، ولا سلبهم مُلكهم ظالمًا، ولا ضربهم بالخِزي والمهانة إلا جزاءً على سيرتهم القبيحة، وكذبِهم على الله بالجرأة والمكابرة، وما الله بظلام للعبيد.

فلما بلغ القول مداه قال: [١٣٩] لله[١٤٠] [دَرُّ] [١٤١] هذا النفَس الطويل، والنفْث الغزير! لقد كنتُ قَرِمًا إلى هذا النوع من الكلام، ففرِّغ نفسك لرسمه في جزء لأنظر فيه، وأُشرِب النفسَ حلاوته، وأستنتجَ العقيمَ منه، فإن الكلام إذا مر بالسمع حلَّق، وإذا شارَفَه البصر بالقراءة من كتاب أَسَفَّ، والمحلِّق بعيد المنال والمُسِفُّ حاضر العين، والمسموع إذا لم يملكه الحفظ تُذُكِّر منه الشيءُ بعد الشيء بالوهم الذي لا انعقاد له، والخيال الذي لا معرَّج عليه. فقلت: أفعل سامعًا مطيعًا إن شاء الله.

هوامش

(١) «وامتدوا».

(٢) «بقاء»، وهو تحريف.

(٣) في الأصل: «الخرق». والشعبذة والشعوذة واحد، وهي أُخَذ كالسحر ترى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين.

(٤) هاملة: أي مهملة. وفي الأصل: «هائلة».

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٦) «كوكبه»، وهو تحريف لا معنى له. وتؤمه: أي تتوخاه وتقصده وتَّبع ما يسنه لها.

(٧) النحائز: العادات والطبائع، الواحدة نحيزة. وفي الأصل: «كجاير»، وهو تحريف.

(٨) في الأصل: «الفكرة»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه تعبيره الآتي في [الجزء الأول – الليلة السادسة].

(٩) «قال»: أي الوزير.

(١٠) «ما حد»، و«ما» زيادة من الناسخ، فإن سياق الكلام الآتي بعد لا يقتضي الاستفهام.

(١١) «حيلة».

(١٢) في الأصل: «المقة»، ولم نجد من معانيها ما يناسب السياق، ولعل صوابه ما أثبتنا. ويريد بالخفة: الشعوذة، فإنها خفة في اليد، وقد سبق وصف الهنود بذلك.

(١٣) «أجلتها».

(١٤) «غبي».

(١٥) في الأصل: «يحصل بل تسلم»، ومعنى الكلمتَيْن لا يناسب السياق. ويريد أنها لا تخص أمة دون أمة، بل تجمع الأمم كلها.

(١٦) موضع هذه الكلمة حروف مطموسة في الأصل تتعذر قراءتها.

(١٧) يعار: يعاب.

(١٨) هذه التكملة التي بين مربَّعَين لم ترد في الأصل، والسياق يقتضيها.

(١٩) ضدها: أي لها زمان تكون لها فيه الدولة والغلبة على عدوها. وفي الأصل: «ضد هذا»، وقوله «ذا» زيادة من الناسخ كما يدل عليه سياق الكلام الآتي.

(٢٠) «وهو يشير»، والظاهر أن قوله «وهو» زيادة من الناسخ.

(٢١) «إلى».

(٢٢) هنا كلمة مطموسة الحروف في الأصل تتعذر قراءتها، واستقامة الكلام تقتضي ما أثبتنا أو ما يفيد هذا المعنى.

(٢٣) متع النهار: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال.

(٢٤) المحك: المنازعة والتمادي في اللجاج.

(٢٥) «يطبخ».

(٢٦) الرماح الردينية: نسبة إلى ردينة، وهي امرأة من العرب كانت تُقَوِّم الرماح.

(٢٧) «أمرًا».

(٢٨) الحرفان الأولان من هذه الكلمة في الأصل مطموسان تتعذر قراءتهما، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا. ومعنى «توكفوا غيثه» ارتقبوه وانتظروه.

(٢٩) تبحبحها: أي اتساعها.

(٣٠) «مغاربها».

(٣١) «والتمام».

(٣٢) النكل بالتحريك: لغة في النكول، أي النكوص عن الشيء والتنحي عنه.

(٣٣) وردت هذه الكلمة في الأصل مطموسة الحرفين الأولين، ولم يظهر منها غير الواو والعين.

(٣٤) «غرض».

(٣٥) تعاظل الكلام: تراكبه وتوالي بعضه فوق بعض. وكان زهير لا يعاظل بين الكلام، أي لا يكرره.

(٣٦) في الأصل: «وتقوضًا» بالقاف والضاد، ولم نجد من معاني التقوض ما يناسب السياق، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه عطفه على التعسر، إذ مؤدَّى الكلمتَيْن واحد.

(٣٧) «أوراقًا».

(٣٨) في الأصل: «وأخطر»، ومعناه لا يناسب السياق. ويريد بقوله «أحضر عيانًا» أنها شديدة الظهور.

(٣٩) «متهجكم».

(٤٠) «ولعلا».

(٤١) «تترك».

(٤٢) «سترى»، والتاء زيادة من الناسخ.

(٤٣) لم يظهر من هذه الكلمة في الأصل غير الدال والهاء، وسياق الكلام يقتضي إثباتها على هذا الوجه.

(٤٤) «الخصوصية».

(٤٥) في الأصل: «مستفرغًا». ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٤٦) «مستخزنا».

(٤٧) الجيهاني: نسبة إلى جَيْهان مدينة بخراسان. وقد شُهِر بهذه النسبة اثنان: أحدهما أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر وزير السامانية ببخارى، كان أديبًا فاضلًا، له من الكتب كتاب آيين نامه وكتب أخرى. وجيهاني آخر اسمه محمد بن أحمد، كان كذلك وزيرًا للسامانيِّين، قال فيه ياقوت: كان أديبًا فاضلًا شهمًا جسورًا. وقد ترجم لكليهما ياقوت، وقال ابن النديم في الأخير: إنه من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ويصنِّفون في نصرة الأثينية. والظاهر أن الأخير هو المراد هنا.

(٤٨) يتعاورون: أي يذكر بعضهم عورة بعض.

(٤٩) «ولهذا»، واللام زيادة من الناسخ.

(٥٠) أطلاؤها: أولادها.

(٥١) في الأصل: «كوثر»، وبعد الراء حرف مطموس يشبه أن يكون «لامًا».

(٥٢) بلهور: لقب لكل عظيم من ملوك الهند، مثَّل به سيبويه في كتابه، وفسره السيرافي.

(٥٣) أخشاد وأخشيد: لقب كان لملوك فرغانة، ولهذا لقَّب الراضي بالله العباسي محمد بن طغج صاحب مصر والشام بالأخشيد، لأنه كان فرغانيًّا. وفرغانة مدينة وكورة واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان.

(٥٤) في الأصل: «شبه» بالشين، وفيه تحريف ونقص حرفين، إذ لم نجده بالمعنى المناسب فيما راجعناه من معجمات اللغتين العربية والفارسية. ولعل صوابه ما أثبتنا، فقد ورد في شفاء الغليل أن صبهبذ معناه الأمير، وهو معرَّب ورد في شعر جرير، وفي كتاب الألفاظ الفارسية المعرَّبة أن سپهبد بالفارسية معناه قائد العسكر، وهو مركَّب من كلمتَين: «سپه» أي عسكر، و«بد» أي صاحب.

(٥٥) لعله «أشكيشان» كما في معجم البلدان، وهي من قرى أصبهان. وأردوان، ويقال فيه «أردوال»: بلدة صغيرة بين واسط والجبل وبلاد خوزستان.

(٥٦) «بالحق».

(٥٧) وبار: أرض واسعة ببلاد اليمن زهاء ثلاثمائة فرسخ في مثلها، وهي ما بين الشحر إلى تخوم صنعاء.

(٥٨) طيبة: بلدة عند زرود. ويريد سفوح الجبال التي هناك.

(٥٩) الهبير: رمل قرب زرود بطريق مكة. وفي الأصل: «هيبر» بتقديم الياء على الباء، ولم نجده فيما راجعناه من الكتب.

(٦٠) البرجد: كساء غليظ من صوف أحمر، وقال بعضهم: هو كساء ضخم مخطط يصلح للخباء وغيره.

(٦١) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان.

(٦٢) السمل من الثياب: الخلق البالي.

(٦٣) الأنواء: الأمطار، الواحد نوء، وأصل النوء سقوط نجم في المغرب وطلوع نجم بحياله من ساعته في المشرق، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى هذه الأنواء.

(٦٤) الأقط: شيء يُتخذ من المخيض الغنمي يُطبخ ثم يُترك حتى يمصل، وقيل: من اللبن الحليب.

(٦٥) المصاب: المقصد. يريد المكان الذي يقصدونه للانتجاع، من صاب يصوب إذا قصد.

(٦٦) أرفغ له المعاش: وسَّعه.

(٦٧) المحاضر: المناهل، لحضور القبائل واجتماعها عليها، الواحد محضر بفتح الميم والضاد.

(٦٨) «وتغازلوا» بالغين والزاي، وهو تصحيف.

(٦٩) الحمالات بفتح الحاء: الديات والغرامات يحملها قوم عن قوم.

(٧٠) تداعوا الجفلى: أي دعا بعضهم بعضًا إلى الطعام دعوة عامة لا تخصيص فيها. والنقرى: الدعوة الخاصة، قال طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

وتعافوا: أي كرهوا، من عاف الشيء يعافه.

(٧١) «وقدحوا» بالقاف.

(٧٢) «جلتهم».

(٧٣) «حفوا»، وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٧٤) سهوا رهوا: أي عفوًا بلا مشقة، يقال: أتاه هذا الأمر سهوًا رهوًا، أي في سهولة ورفق.

(٧٥) «صوتها» بالتاء، وهو تصحيف.

(٧٦) في الأصل: «الحسة»، والتاء زيادة من الناسخ.

(٧٧) في الأصل: «بيت»، والياء زيادة من الناسخ. والبت: كساء غليظ من صوف أو وبر.

(٧٨) الكل: الضعيف، يقال: هو يحمل الكل، أي يمون الضعفاء الذين لا يستطيعون الكسب ويقوم بأمرهم.

(٧٩) السمل من الثياب: الخلق البالي.

(٨٠) «الحترلى» وهو تصحيف. والخيزلى: مشية فيها تثاقل وانفكاك، كالخوزلى.

(٨١) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلَي طيئ، وبينها وبين دمشق سبع مراحل، وكانت منازل لكنانة من كلب.

(٨٢) في الأصل: «كليب»، والياء زيادة من الناسخ.

(٨٣) أكيدر هو صاحب دومة الجندل.

(٨٤) يعشرهم: أي يأخذ منهم العشر.

(٨٥) مدينة هجر: قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر، قال ياقوت: وهو الصواب.

(٨٦) المشقر: حصن بالبحرين قديم كان لعبد القيس يلي حصنًا لهم آخر يقال له: الصفا، قبل مدينة هجر.

(٨٧) ذكر صاحب بلوغ الأرب أن هذه السوق كانت تقوم في أول يوم من جمادى الآخرة.

(٨٨) عمان: كورة عربية على ساحل البحر، وهي في شرقي هجر.

(٨٩) في الأصل: «بدها»، وهو تحريف. قال ياقوت: «دبا سوق من أسواق العرب بعمان، وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها، وكانت قديمًا قصبة عمان.»

(٩٠) صحار: بلدة بعمان كانت فيما مضى قصبة هذه الكورة، وهي على البحر وتلي الجبل.

(٩١) إرم: فلاة قرب عدن، كما في كتاب صفة جزيرة العرب.

(٩٢) الشحر: صُقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعمان.

(٩٣) اللطائم: نوافج المسك، أي سُرره، الواحد لطيمة.

(٩٤) في الأصل: «معافير»، والياء زيادة من الناسخ. ومعافر: مخلاف باليمن تُنسب إليه الثياب المعافرية.

(٩٥) في الأصل: «والخير»، وهو تصحيف.

(٩٦) وردت هذه الكلمة في الأصل هكذا: شا «و»، والصواب ما أثبتنا.

(٩٧) «مجاحدة»، وهو تحريف.

(٩٨) في الأصل: «الجاني».

(٩٩) «ماته»، وهو تحريف.

(١٠٠) في الأصل: «أقرع».

(١٠١) في الأصل: «وإلى الحاجات»، وقوله «إلى» زيادة من الناسخ.

(١٠٢) في الأصل: «الحاضرة»، والراء زيادة من الناسخ.

(١٠٣) اللازبة: أي الثابتة الشديدة.(

(١٠٤) «سقاهم».

(١٠٥) وردت هذه الكلمة في الأصل ساقطًا منها الحرف الأخير وهو القاف. وأرنق: أي أكدر، من رنق الماء من باب نصر وفرح، إذا كدر. وضاحٍ: أي متعرض للشمس.

(١٠٦) «حره».

(١٠٧) الحواري: لباب الدقيق وخالصه.

(١٠٨) «وقدم».

(١٠٩) «صنعة».

(١١٠) «كقرب».

(١١١) في الأصل: «لهم»، واللام زيادة من الناسخ.

(١١٢) رُسِمت هذه العبارة في الأصل هكذا: «عزا يصا»، وهو تحريف.

(١١٣) في الأصل: «وقد» بالقاف، وهو تحريف. وما أثبتناه أولى بالسياق.

((١١٤)) في الأصل: «لملهى»، وهو تحريف.

(١١٥) في الأصل: «أجرح»، وهو تصحيف.(

١١٦) لم يظهر من هذه الكلمة في الأصل غير الباء والهاء. والسياق يقتضي ما أثبتنا.

(١١٧) القذع: الشتم والرمي بالفحش وسوء القول.

(١١٨) في الأصل: «تأكل»، وهي زيادة لا معنًى لها.

(١١٩) في الأصل: «كل»، وهو تحريف لا يستقيم معناه.

(١٢٠) «أعقلته» بالعين والقاف، وهو تصحيف.

(١٢١) هو القاضي أبو حامد أحمد بن بشر البصري المروروذي، كان عالمًا بفنون العلوم الدينية والأدبية، قال فيه أبو حيان: «كان بحرًا يتدفق حفظًا للسِّيَر وقيامًا بالأخبار واستنباطًا للمعاني وثباتًا على الجدل وصبرًا في الخصام.» وكان يقول فيه: «إنه أنبل من رأيته في عمري.» تُوفِّي سنة ٣٦٢.

(١٢٢) «لكيم»، وهو تحريف لا معنًى له. وسياق الكلام يقتضي إثبات ما يفيد معنى لجبلة كما أثبتنا، وإن كان بعيدًا عن الرسم الموجود في الأصل.

(١٢٣) «على».

(١٢٤) يلاحَظ أن موضع هذه النقط كلام ساقط من الأصل فيما يظهر لنا.

(١٢٥) تطاوعه: أي تطاوع الفحل.

(١٢٦) وردت هذه الكلمة في الأصل هكذا: «ككوكه»، وهو تحريف.

(١٢٧) «بالحق» بالباء. والسياق يقتضي اللام كما أثبتنا.

(١٢٨) كذا بالأصل ولعله الأنطاكي، فإننا لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب من يلقَّب بالأنصاري. وأبو الحسن الأنطاكي هو أبو القاسم علي بن أحمد، أصله من أنطاكية ونزل بغداد، وكان مهندسًا حاسبًا له مشاركة في علوم الأوائل مع فصاحة لسانه وعذوبة بيانه. مات ببغداد سنة ٣٧٦.

(١٢٩) «لوضع»، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(١٣٠) «الفكر»، وهو خطأ من الناسخ.

(١٣١) اغتربوا لا تضووا: أي تزوجوا في بعاد الأنساب لا في الأقارب لئلا تضوى أولادكم، أي تنحف وتضعف.

(١٣٢) الأحوذي: الحاذق المشمر للأمور القاهر لها لا يشذ عليه شيء. وفي الأساس: «رجل أحوذي»: يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها.

(١٣٣) في الأصل: «وكنت»، وهو تحريف. ومقام الفخر يقتضي ما أثبتنا.

(١٣٤) في الأصل: «تردده»، والهاء زيادة من الناسخ.

(١٣٥) المؤتفكات: الرياح التي تقلب الأرض، أو التي تختلف مهابُّها.

(١٣٦) في الأصل: «فيه لجري»، وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(١٣٧) في الأصل: «يوحش»، وهو تحريف.

(١٣٨) ورد في الأصل بعد قوله «الشريعة» قوله «من الشريعة». وهي زيادة من الناسخ لا تتسق مع الكلام.

(١٣٩) أي الوزير.

(١٤٠) «اللّه»، والألف زيادة من الناسخ.

(١٤١) موضع هذه الكلمة في الأصل حرفان مطموسان، وسياق الجملة يقتضي ما أثبتنا.

الليلة السابعة

ولما عدتُ إليه في مجلس آخر، قال: سمعتُ صياحك اليوم في الدار مع ابن عبيد، ففيم كنتما؟ قلت: كان يذكر أن كتابة الحساب أنفعُ وأفضل وأعلق بالمُلك والسلطان إليه أحوج، وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير، فإذا الكتابة الأولى جِدٌّ والأخرى هزل، ألا ترى أن التشادُق والتفيهُق والكذب والخداع فيها أكثر، وليس كذلك الحسابُ والتحصيل والاستدراك والتفصيل؟ قال: وبعد هذا فتلك صناعةٌ معروفة بالمبدأ، موصولةٌ بالغاية، حاضرة الجدوَى، سريعة المنفعة. والبلاغة زخرفة وحيلة، وهي شبيهة بالسراب، كما أن الأخرى شبيهة بالماء. قال: ومن خساسة البلاغة أن أصحابها يُسترقَعون ويُستحمَقون، وكان الكتَّاب قديمًا في دُور الخلفاء ومجالس الوزراء يقولون: اللهم إنا نعوذ بك من رقاعة المنشئين، وحماقة المعلمين، وركاكةِ النحويين! والمنشئُ والمعلِّم والنحويُّ إخوة وإن كانوا لعَلَّات، والآفة تشملهم، والعادة تجمعهم، والنقص يغمرهم، وإن اختلفت منازلهم، وتباينت أحوالهم. قال: ولو لم يكن من صنعة الإنشاء إلا أن المملكة العريضة الواسعة يُكتفَى فيها بمنشئ واحد، ولا يُكتفَى فيها بمائة كاتب حساب...،[1] وإذا كانت الحاجة إلى هذه أمسَّ كانت الأخرى في نفسها أخسَّ. وبعد، فمصالح أحوال العامة والخاصة معلَّقة بالحساب. على هذه الجَدِيلة[2] والوتيرة يجري الصغار والكبار والعِلْية والسِّفْلة، وما

زال أهل الحزم والتجارب يحثون أولادهم ومن لهم به عناية على تعلم الحساب، ويقولون لهم: هو سلة الخبز. وهذا كلام مستفيض. ومن عبر عما في نفسه بلفظ ملحونٍ أو محرَّف أو موضوع غيرَ موضعه وأفهَم غيره وبلغ به إرادته وأبلغ غيرَه؛ فقد كفى. والزائد على الكفاية فضل، والفضلُ يُستغنَى عنه كثيرًا، والأصل يُفتقَر إليه شديدًا. قال: ومن آفات هذه الكتابة أن أصحابها يُقرَفون بالريبة، ويُرمَون بالآفة كآل الحسن بن[3] وهب وآل ابن ثَوَابة. قال: هذه ملحمة منكَرة، فما كان من الجواب؟

قلتُ: ما قام من مجلسه إلا بعد الذل والقَمَاءة، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكلَف والشمس بالكسوف، وانتحل الباطل ونصر المبطِل، وأبطل الحق وزرى على المحقِّ. قلت: أيها الرجل، قولك هذا كان يسلَّم لو كان الإنشاء والتحرير والبلاغة بائنةً من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك وعمل الجماعة وعقد المؤامرة،[4] فأمَّا وهي متصلة بها وداخلة في جملتها ومشتملة عليها وحاوية لها، فكيف يطَّرد حُكمك وتسلم دعواك؟ ألا[5] تعلم أن أعمال الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب في فنون ما يصفونه ويتعاطونه، بل لا سبيل لهم إلى العمل إلا بعد تقدمة هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف والاحتجاج الواضح؟ وذلك يوجد من الكاتب المنشئ الذي عِبتَه وعَضضته.[6] وهذه الدواوين معروفة والأعمال فيها موصوفة، وأنا أحصيها لك كي تعلم أنك غالط وعن الصواب فيها منحرف.

فمنها ديوان الجيش، وديوان بيت المال، وديوان التوقيع والدار، وديوان الخاتَم، وديوان الفَضِّ،[٧] وديوان النقد والعيار ودُور الضرب، وديوان المظالم، وديوان الشرطة والأحداث. هذا إلى توابع هذه الدواوين، مثل باب العين[٨] والمؤامرات، وباب النوادر[٩] والتواريخ، وإدارة الكتب ومجالس الديوان، وقبْل وبعد. كما[١٠] يلزم كاتب الحساب أن يعرف وجوهَ الأموال،[١١] حتى إذا جباها وحصَّلها عمل الحساب أعماله فيها، فلا يمكنه[١٢] أن يَجْبِي[١٣] إلا بالكتب البليغة والحجج اللازمة واللطائف المستعملة، ومن تلك الوجوه الفيء، وهو أرض العَنْوة وأرض الصلح وإحياء الأرض والقطائع والصفايا والمقاسمة والوضائع وجزية رءوس أهل الذمة وصدقات الإبل والبقر والغنم وأخماسُ الغنائم والمعادن والركاز[١٤] والمال المدفون، وما يخرج من البحر وما يؤخذ من التجار إذا مروا بالعاشر[١٥] واللُّقَطة والضالَّة وميراث من لا وارث له ومال[١٦] الصدقة، إلى غير ذلك من الأمور المحتاجة إلى المكاتبات البالغة على الرسوم المعتادة والعادات الجارية، كعهد يُنشأ في إصلاح البريد وتقسيط الشرب، وكتاب في العمارة وإعادة ما نقص منها، وفي[١٧] حَزْر الغلة[١٨] والدِّيَاس،[١٩] وفي الدوالي والدواليب والغرَّافات، وفي القلب والقسمة، وفي تقدير الخُضَر[٢٠] المبكرة وفي المساحة وفي الطراز،[٢١] وفي الجوالي،[٢٢]وفي قبض فرائض الصدقات، وفي افتتاح الخَراجات، إلى غير ذلك من كتب[٢٣]المحاسبين.

فإن قلت: «هذا كلُّه مستغنًى عنه»، كابرتَ وبهتَّ، لأن مدار المال ودُورَه وزيادتَه ووفورَه على هذه الدواوين، التي إما أن يكون حظ البلاغة

فيها أكثر، وإما أن يكون أثر الحساب فيها أظهر، وإما أن يتكافآ. فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملًا ولا لاسمه مستحقًّا، إلا بعد أن يَنهض بهذه الأثقال، ويجمع إليها أصولًا من الفقه مخلوطة(٢٤) بفروعها، وآيات من القرآن مضمومةً إلى سعته(٢٥) فيها، وأخبارًا كثيرة مختلفة في فنون شتى لتكون عُدَّة عند الحاجة إليها، مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة والفِقَر البديعة، والتجارب المعهودة والمجالس المشهودة، مع خطٍّ كتبر مسبوك ولفظٍ كوشْيٍ مَحُوك. ولهذا عز الكامل في هذه الصناعة حتى قال أصحابنا: ما نظن أنه اجتمع هذا كله إلا لجعفر بن يحيى، فإن كتابته كانت سواديةً، وبلاغتَه سَحبانيةً، وسياستَه يونانية، وآدابه عربية،(٢٦) وشمائله عراقية. أفلا ترى كيف غرق الحساب في غِمار هذه الأبواب؟ ثم اعلم أن البليغ مُستملٍ بلاغته من العقل، ومأخذه فيها من التمييز الصحيح، وليس كذلك الحساب في متناوَله. [فلو] (٢٧) ظن ظانٌّ بأن مدار المُلك على الحساب، [فهو] (٢٧) صحيح ولكن بعد بلاغة المنشئ، لأن السلطان يأمر وينهَى ويلاطف ويخاطب ويحتج ويعنِّف ويوعِد ويعد ويَضمن ويمنِّي ويعلِّق الأمل ويؤكِّد الرجاء ويحسم المادة الضارة، ويذيق الرعية حلاوة العدل ويجنبهم مرارة الجور. ثم يجبي فإذا جبى احتاج إلى الحساب حتى يكون بالحاصل عالمًا، ثم يتقدم بتوزيع ذلك على الحسَّاب حتى يكون من الغلط آمنًا. فانظر إلى المنزلتين كيف اختلفتا، وكيف حصلت المزية لإحداهما. ولو أنصفتَ لعلمتَ أن الصناعة جامعة بين الأمرين، أعني الحساب والبلاغة، والإنسان لا يأتي إلى صناعة فيشقَّها نصفين ويشرِّف(٢٨) أحد النصفين على الآخر.

وأما قولك: «إحدى الصناعتين هزلٌ والأخرى جِدٌّ»، فبئسما سولتْ لك نفسك على البلاغة! هي الجد، وهي الجامعة لثمرات العقل، لأنها تُحِقُّ الحقَّ وتبطل الباطل على ما يجب أن يكون الأمر عليه. ثم تحقيق الباطل وإبطال الحق لأغراض تختلف وأغراض تأتلف، وأمورٍ لا تخلو أحوال هذه الدنيا منها من خير وشر، وإباءٍ وإذعان، وطاعةٍ وعصيان، وعدلٍ وعدول،(٢٩) وكفر وإيمان، والحاجة تدعو إلى صانع البلاغة وواضع الحكمة وصاحب البيان والخطابة. وهذا هو حد العقل والآخَر حد العمل.

وأما قولك: «الإنشاء صناعة مجهولة المبدأ، والحساب معروف المبدأ»، فقد خَرَقْت،(٣٠) لأن مبدأها من العقل، وممرَّها على اللفظ وقرارها في الخطِّ، وأنت إذا قلتَ هذا دللتَ من نفسك على أنه ليس لك [ما] (٣١) تبصر(٣٢) به هذا المبدأ الشريف وهذا الأوَّل اللطيف.

وأما قولك: «والبلاغة زخرفة وهي شبيهة بالسراب»، فقد أوضحنا لك فيه ما كفى، فإن لم يكفِ فأنت محتاج إلى بينة أخرى.

وأما قولك: «إن أصحابها يُسترقَعون»، فهذا شنعٌ من القول، ولو عرفتَ الصدق(٣٣) فيه لم تَنبِس به ولم تنطق بحرف منه، فإن فيه زِرايةً على السلف الصالح والصدر الأول. ولو وجب أن يُسترقَع البليغ إذا كان عاقلًا، لوجب أن يُستعقَل العَيِيُّ(٣٤) إذا كان أحمق. وهذا خُلف.

وأما قولك: «المنشئ والمعلم والنحوي إخوة في الركاكة»، فما يتعلم الناس إلا من المعلم والعالم والنحوي، وإن ندر منهم واحد قليل البضاعة من الحق.

وأما قولك: «إن المملكة تكتفي بمنشئ واحد»، فقد صدقتَ، وذلك أن هذا الواحد في قوته يفي بآحاد كثيرة، وهؤلاء الآحادُ ليس في جميعهم وفاء بهذا الواحد. وهذا عليك لا لك. لكن بقي أن تفهم أنك محتاج إلى الأساكفة أكثر مما تحتاج إلى العطارين، ولا يدل هذا على أن الإسكاف أشرف من العطار والعطار دون الإسكاف. والأطباء أقل من الخياطين، ونحن إليهم أحوج، ولا يدل على أن الطبيب دون الخياط.

وأما قولك: «ما زال الناس يحثون أولادهم على تعلم الحساب ويقولون: هو سلة الخبز»، فهو كما قلتَ، لأن الحاجة إليه عامة للكبار والصغار. وأشرف الصناعات يحتاج إليها أشرف الناس، وأشرف الناس الملِك، فهو محتاج إلى البليغ والمنشئ والمحرر لأنه لسانه الذي به ينطق، وعينُه التي بها يبصر، وعيبتُه التي منها يستخرج الرأي ويستبصر في الأمر، ولأنه بهذه الخاصة لا يجوز أن يكون له شريك، لأنه حامل الأسرار والمحدَّث بالمكنونات والمُفضَى إليه ببنات الصدور.

وأما قولك: «من عبَّر عما في نفسه بلفظ ملحون أو محرَّف وأفهم غيرَه، فقد كفى»، فكيف يصح هذا الحكم ويُقبَل هذا الرأي والكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب، كما يتغير الحكم فيه باختلاف

الأسماء، وكما يتغير المفهوم باختلاف الأفعال، وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف؟ ولقد قال رجل بالرَّيِّ كان نبيلًا في حاله جليلًا في مرتبته عظيمًا عند نفسه: «اقعد حتى تتغدَّى بنا»، وهو يريد: «حتى تتغدَّى معنا»، فانظر إلى هذا المُحال الذي ركبه بلفظه وإلى المراد الذي جانبه بجهله! ولهذا نظائر غيرُ خافية عليك ولا ساقطةٍ دونك، وكفى بالبلاغة شرفًا أنك لم تستطع تهجينها إلا بالبلاغة، ولم تهتد إلى الكلام عليها إلا بقوتها، فانظر كيف وجدتَ في استقلالها بنفسها ما يُقلُّها ويقل غيرها. وهذا أمر بديع وشأنٌ عجيب.

وأما قولك: «ومن آفاتها أن أصحابها يُقْرَفون بالريبة ويُنالون بالعيب»، فهذا ما لا يستحق الجواب، وما يضر الشمسَ نُباح الكلاب، وصيانة اللسان عن هذا النوع أحسن، قال الله تعالى: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان المرء أقوَمَ من قِدْحٍ لوُجِد له غامز. وآل ابن وهب وابن ثوابة كانوا أنبل وأفضل وأعقل من أن يُظن بهم ما لا يُظن بخساس العبيد وسفهاء الناس وداصة[٣٥] الرعية وسِفْلة العامة. على أنا ما سمعنا هذا إلا في مجلس ابن عبَّاد، منه وممن كان يَخبِط[٣٦] في هواه، ويتحرى بمثل هذه الأحاديث رضاه. وحسدُه لهم في صناعتهم يبعثه على هذه الأكاذيب عليهم. فالعجب أنه يظن أن كذبه إلى غيره ينفي الصدق عن نفسه، ولو نَزَّه[٣٧] لسانه ومجلسه ومذهبه وأبوته لكان أولى به وأزيَن له، ولكن النعمة والقدرة إذا عَدِمتا عقلًا سائسًا وحزمًا حارسًا ودِينًا متينًا وطريقًا قويمًا؛ أوردَتا ولم تُصدرا وخذَلتا ولم تَنصُرا. ونعوذ بالله من نعمة تحورُ

بلاءً، ومرحبًا ببلاءٍ يورِث يقظة ويكون تمحيصًا لما نقص من التقصير! ولكن مَن هذا الذي يشرب فلا يَسكَر ولا يَثمَل؟ ومن هذا الذي إذا سَكِر عَقَل؟ ومن هذا الذي إذا صحا لا يعتقب من شرابه خُمارًا يصدِّع الراس ويمكِّن الوسواس؟

فقال: هذه جملة قامعة لمن ادعى دعواه أو نحا منحاه، وأنى لك هذا؟ لمَ لا تداخل صاحبَ ديوان، ولمَ ترضى لنفسك بهذا اللَّبوس؟ فقلت: «أنا رجلٌ حب السلامة غالبٌ عليَّ، والقناعة بالطفيف محبوبة عندي.» فقال: كنيتَ عن الكسل بحب السلامة، وعن الفُسُولة بالرضا باليسير. قلت: إذا كنت لا أصل إلى السلامة إلا بالفسولة، ولا أتطعم الراحة إلا بالكسل؛ فمرحبًا بهما.

فقال: لكل إنسان رأيٌ واختيار وعادة ومنشأ ومألوف وقرناء متى زُحزح عنها قَلِق، ومتى أُرِيغ[٣٨] على سواها فَرِق. أظن أنه قد نصف الليل. قلت: لعله. قال: في الدَّعَة، قد خبأتُ لك مسألة، وسألقيها عليك بعدها — إن شاء الله تعالى — وانصرفتُ.

هوامش

(١) لم يرد جواب «لو» للعلم به، أي لكفى كتابة الحساب فخرًا على كتابة الإنشاء، أو ما يفيد هذا المعنى.

(٢) الجديلة: الشاكلة، يقال: عمل على جديلته، أي على شاكلته.

(٣) يشير بهذه العبارة إلى ما فعله الواثق بالله مع الحسن بن وهب كاتبه، فقد حبسه وأغرمه أربعة عشر ألف دينار، كما حبس كتابًا آخرين وقبض منهم أموالًا جمة، وذلك في سنة تسع وعشرين ومائتين. وإلى نكبة أبي الهيثم بن ثوابة سنة ثلاث وثلاثمائة، فقد حُبس حتى مات في حبسه بالكوفة بعد أن أخذ منه إسحاق بن عمران أموالًا جزيلة لنفسه وللسلطان، ويقال: إنه احتال على قتله خشية أن يقر عليه بما أخذ منه.

(٤) المؤامرة: عمل تُجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع، ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك. وقد تُعمل المؤامرة في كل ديوان تجمع جميع ما يُحتاج إليه من استئمار واستدعاء توقيع.

(٥) في الأصل: «إلا أن تعلم»، و«أن» زيادة من الناسخ.

(٦) يقال: عضه بلسانه، إذا تناوله بمكروه الكلام.

(٧) في الأصل: «الفص» بالصاد المهملة، وهو تصحيف. والمراد بالفض: فض الكتب المختومة.

(٨) يريد بالعين: خراج العين، وهو ما يُقرر على البساتين والشجريات والكروم والمقاثئ، ويُستخرج على حكم الضريبة عند إدراك كل صنف. وكان هذا في البلاد الشامية. انظر الجزء الثامن من نهاية الأرب، ص٢٦١، طبع دار الكتب المصرية.

(٩) لعل صوابه: «التقادير»، أي تقادير ما تخرجه الأرض من غلة.

(١٠) «فما».

(١١) في الأصل: «الأعمال»، وهو خطأ من الناسخ، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد: «حتى إذا جباها.»

(١٢) في الأصل: «فيمكنه»، والسياق يقتضي زيادة «لا» النافية.

(١٣) «يجيء».

(١٤) الركاز هو دفين الجاهلية من الأموال.

(١٥) العاشر هو الذي يأخذ منهم عُشر ما معهم.

(١٦) «وفي مال».

(١٧) في الأصل: «في» بسقوط واو العطف، والسياق يقتضي إثباتها.

(١٨) في الأصل: «حرز العلم»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين لا يستقيم معناه، والصواب ما أثبتنا. والحزر: التقدير بالظن.

(١٩) دياس الحنطة: دراستها.

(٢٠) «الحصر».

(٢١) الطراز: مقسم الماء في النهر كما ذكره صاحب مفاتيح العلوم في الكلام على مصطلح كتَّاب ديوان الماء. ثم قال: وتُسمَّى مقاسم المياه في بلاد ما وراء النهر: الدرقات والمزرقات.

(٢٢) يريد بالجوالي: مال الجوالي، وهو الجزية المضروبة على أهل الذمة. والجوالي هم الذين جلوا عن أوطانهم.

(٢٣) «كسوة».

(٢٤) «مخطوطة».

(٢٥) إلى سعته فيها: أي إلى تبحره في فهمها.

(٢٦) «عقلية».

(٢٧) هاتان الكلمتان اللتان تحت هذا الرقم ليستا بالأصل، والسياق يقتضي إثباتهما أو إثبات ما يؤدِّي معناهما.

(٢٨) «يسرف».

(٢٩) يريد بالعدول: الجور، من عدل عن الطريق عدولًا، إذا نكب عنه وانحرف.

(٣٠) «صدقت».

(٣١) هذه الكلمة التي بين مربعين ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٣٢) «تنصر».

(٣٣) «الصرف».

(٣٤) «الغبي».

(٣٥) الداصة: الخساس الجبناء، واللصوص أيضًا.

(٣٦) في الأصل: «يحط»، وهو تصحيف.

(٣٧) «كله».

(٣٨) «أربع».

الليلة الثامنة

وقال لي مرة أخرى: أوْصل وهبُ بن يعيش الرقيُّ[1] اليهوديُّ رسالةً يقول في عُرْضها بعد التقريظ الطويل العريض: إن هنا طريقًا في إدراك الفلسفة مذلَّلةً مسلوكةً مختصرة فسيحة، ليس على سالكها كدٌّ ولا شَقٌّ في بلوغ ما يريد من الحكمة ونيل ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز في العاقبة، وإن أصحابنا طوَّلوا وهوَّلوا وطرحوا الشوك في الطريق، ومَنَعوا من الجواز عليه غشًّا منهم وبخلًا ولؤمَ طباع وقلةَ نصح وإتعابًا للطالب وحسدًا للراغب، وذلك أنهم اتخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشةً ومكسبة ومأكلة ومشربة، فصار ذلك كسُور من حديد لطُلاب الحكمة والمحبين للحقيقة والمتصفحين لأثناء العالم، وكلامًا هذا معناه، وإلى هذا يرجع مغزاه.

فكان من الجواب: قد عرفتُ مذهب ابن يعيش في هذا الباب، وهو جاري، وكتب هذه الرسالة على هذا الطراز بالأمس إلى الملِك السعيد سنة سبعين،[2] وتقرَّب بها، ونفعتُه بالمسألة والتفقد له، فإنه شديد الفقر، ظاهر الخَصاصة، لاصق بالدَّقْعاء.[3] وللذي قاله وادعاه وقصده وانتحاه وجهٌ واضح وحجة ظاهرة، وللذي قاله أصحابنا – أعني مخالفيه – وجهٌ أيضًا وتأويل، وللقولين أنصار وحُماة وحفَظة ورعاة.

قال: هاتِ على بركة الله، فإني أحب أن أسمع في هذا الخطب[٤] كلَّ ما فيه وأكثرَ ما يتصل به. فكان من الجواب أن ابن يعيش يريد بهذه الخطبة أن عمر الإنسان قصير، وعلمَ العالم كثير، وسره[٥] مغمور. وكيف لا يكون كذلك وهو ذو صفائح مركَّبة بالوضع[٦] المحكم، وذو نضائد مزيَّنة بالتأليف المعجب المتقَن، والإنسان الباحث عنه وعما يحتويه ذو قوًى متقاصرة، وموانع معترضة، ودواعٍ ضعيفة، وإنه مع هذه الأحوال منتبه بالحس، حالمٌ بالعقل، عاشقٌ[٧] للشاهد، ذاهل عن الغائب، مستأنسٌ بالوطن الذي ألِفه ونشأ فيه، مستوحشٌ من بلد لم يسافر إليه ولم يُلِمَّ به وإن كان صدر عنه،[٨]فليس له بذلك معرفة باقية ولا ثقةٌ تامة. وإن الأولى بهذا الإنسان المنعوت بهذا الضعف والعجز أن يلتمس مسلكًا إلى سعادته ونجاته قريبًا، ويعتصم بأسهل الأسباب على قدر جهده وطَوْقه. وإن أقرب الطرق وأسهل الأسباب هو في معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإله تعالى، فإنه متى عرف هذه الجملة بالتفصيل، واطلع على هذا التفصيل بالجملة؛ فقد فاز الفوز الأكبر ونال المُلك الأعظم، وكُفِي مئونة عظيمة في قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير، مع العناء المتصل في الدرس والتصحيح والنصَب في المسألة والجواب، والتنقير عن الحق والصواب. وهذا الذي قاله ابن يعيش ليس بحيف ولا خارجٍ عن حَوْمة الحق، وإن كان الأمر فيه أيضًا صعبًا وشاقًّا وهائلًا وعاملًا، ولكن ليس لكل أحد هذه القوة الفائضة، وهذه الخصوصية الناهضة، وهذا الاستبصار الحسن، وهذا الطبع الوقاد، والذهن المنقاد، والقريحة الصافية، والاستبانة والتأمل، لأن هذه القوة إلهية، فإن لم تكن

إلهية فهي ملكية، وإن لم تكن ملَكية فهي في أفق البشرية. وليس يوجد صاحب هذا النعت إلا في الشاذِّ النادر، وفي دهر مديدٍ بين أمة جمة العدد. والفائقُ من كل شيء والبائن من كل صنف عزيزٌ في هذا العالم الوحشي، كما أن الرديء والفاسد معدوم في هذا العالَم الإلهي، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى: إن من يتكلم بالإعراب والصحة ولا يلحن ولا يخطئ ويجري على السليقة الحميدة والضريبة السليمة، قليل أو عزيز، وإن الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية وهذا المنشأ إلى أن يتعلم النحو ويقف على أحكامه، ويجري على منهاجه، ويفي بشروطه في أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعمَلاتها ومهملاتها. ومتى اتفق[٩] إنسانٌ بهذه الحلية[١٠] وعلى هذا النِّجار، فلعمري إنه غنيٌّ عن تطويل النحويين كما يستغني قارض الشعر بالطبع عن علم العروض. وهكذا يستغني صاحب تلك القوة التي أشار إليها ابن يعيش عن ذلك، ولكن أين ذاك الفرد والشاذ والنادر؟ فإن حضر فما تفعل معه إلا أن تقلده وتأخذ عنه وتتَّبعه؟

وإنما المدار على أن تكون أنت بهذا الكمال حائزًا لهذه الغاية. ولا سبيل لك إليها من تلقاء نفسك، وإنما هو شيء يأتي من تلقاء غيرك، فإذن بالضرورة وبالواجب ينبغي أن تخطو على آثار المنطقيين والطبيعيين والمهندسين بالزحف والعَناء والتكلف والدُّءوب، حتى تصير متشبهًا بذلك الرجل الفاضل والواحد الكامل والبديع النادر. فقد بان من هذا القدر صواب ما أشار إليه ابن يعيش وانكشف أيضًا وجهُ ما حث عليه

مخالفوه، ولا عيب على المنقوص أن يطلب الزيادة ببذل المجهود، وإن الكامل مربوط بما مُنح من العطية من غير طلب.

وأما قوله في صدر كلامه: «إن القوم صدوا عن الطريق وطرحوا الشوك فيه، واتخذوا نشر الحكمة فخًّا للمَثالة[11] العاجلة»، فما أبعد بل قارب الحق، فإن متَّى[12] كان يملي ورقةً بدرهم مقتدريٍّ وهو سكران لا يعقل ويتهكم، وعنده أنه في ربح، وهو من الأخسرين أعمالًا الأسفلين أحوالًا.

ثم إني أيها الشيخ - أحياك الله لأهل العلم وأحيا بك طالبيه = ذكرتُ للوزير مناظرةً جرت في مجلس الوزير أبي الفتح [الفضل بن][13] جعفر بن الفرات بين أبي سعيد السيرافي[14] وأبي بِشر[15] متَّى واختصرتُها. فقال لي: اكتب هذه المناظرة على التمام، فإن شيئًا يجري في ذلك المجلس النبيه بين هذين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام ينبغي أن يُغتنَم سماعُه، وتُوعَى فوائده، ولا يُتهاون بشيء منه. فكتبتُ:[16] حدثني أبو سعيد بلُمَع من هذه القصة. فأما علي بن عيسى الشيخ الصالح فإنه رواها مشروحة.

لما انعقد المجلس سنة ست وعشرين وثلاثمائة، قال الوزير ابن الفرات للجماعة - وفيهم الخالدي وابن الأخشاد والكتبي وابن أبي بشر وابن رباح وابن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهري وعلي بن عيسى الجراح وابن فِراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمي وابن يحيى

العلوي ورسول ابن طغج من مصر والمرزباني صاحب آل سامان: [١٧] ألا[١٨] يَنتدب منكم إنسانٌ لمناظرة متَّى في حديث المنطق، فإنه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين، إلا بما حويناه[١٩] من المنطق وملكناه من القيام به واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه؟ فأحجم القوم وأطرقوا. قال ابن الفرات: والله إن فيكم لمَن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه، وإني لأعُدكم في العلم بحارًا، وللدين وأهله أنصارًا وللحق وطلابه منارًا، فما هذا الترامز والتغامز اللذان[٢٠] تَجِلُّون عنهما؟! فرفع أبو سعيد السيرافي رأسه فقال: أعذِر أيها الوزير، فإن العلم المصون في الصدر غيرُ العلم المعروض في هذا المجلس على الأسماع المُصيخة[٢١] والعيون المحدِقة والعقول الحادة[٢٢] والألباب الناقدة، لأن هذا يستصحب الهيبة والهيبة مَكسَرة، ويجتلب الحياء والحياء مَغلبَة، وليس البِراز في معركة خاصة كالمِصاع[٢٣] في بقعة عامة.

فقال ابن الفرات: أنت لها يا أبا سعيد، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك. فقال أبو سعيد: مخالفة الوزير فيما رسمه هُجْنة، والاحتجاز عن رأيه إخلاد إلى التقصير، ونعوذ بالله من زلة القدم، وإياه نسأل حسن المعونة في الحرب والسِّلم! ثم واجه متى [فقال:] [٢٤] حدثني عن المنطق ما تعني [به]؟ فإنا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سَنَنٍ مرضيٍّ وطريقة معروفة.

قال متَّى: أعني به أنه آلة من آلات الكلام يُعرَف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه، كالميزان فإني أعرف به الرجحان من النقصان والشائل[٢٥] من الجانح.

فقال أبو سعيد: أخطأتَ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية، وفاسد المعنى من صالحه يُعرف بالعقل إذا كنا نبحث بالعقل. وهَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن، فمن لك[٢٦] بمعرفة الموزون أيُّما[٢٧] هو حديد أو ذهب أو شَبَه[٢٨] [أو رصاص]؟ [٢٩] فأراك بعد معرفة الوزن فقيرًا إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدُّها. فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك، وفي تحقيقه كان اجتهادك، إلا نفعًا يسيرًا من وجه واحد، وبقيتْ عليك وجوه، فأنت[٣٠] كما قال الأول: [٣١]

حفظتَ شيئًا وغابت عنك أشياء

وبعد، فقد ذهب عليك شيء هاهنا، ليس كلُّ ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن وفيها ما يُكال وفيها ما يُذْرع وفيها ما يُمسح و[فيها ما] [٣٢] يُحزَر، وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المرئية فإنه على ذلك أيضًا في المعقولات المقررة. والإحساسات[٣٣] ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد، مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة. ودع هذا، إذا كان المنطق وضعه[٣٤] رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما

يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيًا وحَكمًا لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه وما أنكره رفضوه؟

قال متَّى: إنما لزم ذلك لأن المنطق بحث(٣٥) عن الأغراض المعقولة والمعاني المدرَكة، وتصفُّح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة. والناس في المعقولات سواء، ألا ترى أن أربعةً وأربعة [ثمانية] سواءٌ عند جميع الأمم، وكذلك ما أشبهه.

قال أبو سعيد: لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكوراتُ باللفظ ترجع مع شُعَبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة وأنهما ثمانية؛ زال الاختلاف وحضر الاتفاق، ولكن ليس الأمر هكذا، ولقد موَّهت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التمويه. ولكن مع هذا أيضًا إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا(٣٦) باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟ قال: نعم. قال: أخطأتَ، قل في هذا الموضع: بلى. قال: بلى، أنا أقلدك في مثل هذا. قال: أنت إذن لست تدعونا إلى علم المنطق، إنما تدعونا إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرتَ تدعونا إلى لغة لا تفي بها، وقد عفتْ منذ زمان طويل، وباد أهلها، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها؟ على أنك تنقل من السريانية، فما تقول

في معانٍ متحولة٣٧ بالنقل من لغة يونان إلى لغةٍ أخرى سريانية، ثم من هذه إلى أخرى عربية؟

قال متَّى: يونان وإن بادت مع لغتها فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني وأخلصت الحقائق.

قال أبو سعيد: إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقتْ وما كذبت، وقوَّمت وما حرفت، ووزنتْ[٣٨] وما جزفت، وأنها [ما] [٣٩] التاثت ولا حافت، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدمت ولا أخرت، ولا أخلَّت بمعنى الخاص والعام ولا [بأخص الخاص ولا] [٤٠] بأعم العام – وإن كان هذا لا يكون، وليس هو في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني – فكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه.

قال متَّى: لا، ولكنهم من بين الأمم أصحابُ عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا [ونشأ ما نشأ] من أنواع العلم وأصناف الصنائع، ولم نجد هذا لغيرهم.

قال أبو سعيد: أخطأتَ وتعصبت وملت مع الهوى، فإن علم العالَم مبثوث في العالَم بين جميع من في العالم، ولهذا قال القائل:

العلـــم فـــي العـــالم مبثـــوث   ونحـــوَه العاقـــل محثـــوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جَدَدِ[٤١] الأرض. ولهذا غلب علمٌ في مكان دون علم، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة. وهذا واضح والزيادة عليه مَشغَلة، ومع هذا فإنما كان يصح قولك وتسلم دعواك لو كانت يونان معروفةً من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة والفطنة الظاهرة والبنية المخالفة، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدروا، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا، وأن السكينة نزلت عليهم، والحقَّ تكفل بهم، والخطأ تبرأ منهم، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والرذائل بعدتْ من جواهرهم وعروقهم. وهذا جهلٌ ممن يظنه بهم، وعنادٌ ممن يدعيه لهم، بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء، ويَصدُقون في أمور ويكذبون في أمور، ويحسنون في أحوال ويسيئون في أحوال. وليس واضع المنطق يونانُ بأسرها، إنما هو رجل منهم، وقد أخذ عمن قبله كما أخذ عنه من بعده، وليس هو حجةً على هذا الخلق الكثير والجم الغفير، وله مخالفون منهم ومن غيرهم. ومع هذا فالاختلاف في الرأي والنظر والبحث والمسألة والجواب سِنْخٌ[٤٢] وطبيعة، فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف أو يحلحله أو يؤثر فيه؟ [هيهات!] [٤٣] هذا محال، ولقد بقي العالَم بعد منطقه على ما كان عليه قبل منطقه، فامسح وجهك بالسلوة عن شيء لا يستطاع، لأنه منعقد بالفطرة والطباع. وأنت لو فرَّغت بالك وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللغة التي تحاورنا بها وتجارينا فيها وتدارس أصحابك بمفهوم أهلها وتشرح كتب يونان بعبارة

أصحابها؛ لعلمت أنك غني عن [معاني[٤٤] يونان كما أنك غني عن لغة] يونان.

وها هنا مسألة تقول: إن الناس عقولهم مختلفة، وأنصباؤهم منها متفاوتة. قال: نعم. قال: وهذا الاختلاف والتفاوت بالطبيعة أو بالاكتساب؟ قال: بالطبيعة. قال: فكيف يجوز أن يكون ها هنا شيء يرتفع به هذا الاختلاف الطبيعي والتفاوت الأصلي؟ قال متى: هذا قد مر في جملة كلامك آنفًا. قال أبو سعيد: فهل وصلتَه بجواب قاطع وبيانٍ ناصع؟ ودَع هذا، أسألك عن حرف واحد وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميزة عند أهل العقل، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطوطاليس الذي تُدلُّ به وتباهي بتفخيمه؛ وهو «الواو»، ما أحكامه؟ وكيف مواقعه؟ وهل هو على وجه أو وجوه؟ فبُهِت متَّى وقال: هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه لأنه لا حاجة بالمنطقي إليه، وبالنحوي حاجة شديدة إلى المنطق، لأن المنطق يبحث عن المعنى[٤٥] [والنحو يبحث٤٦ عن اللفظ]، فإن مر المنطقي باللفظ فبالعَرَض، وإن عثر النحوي بالمعنى فبالعرض، والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضع من المعنى.

فقال أبو سعيد: أخطأتَ، لأن الكلام[٤٧] والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار[٤٨] والعَرْض [والتمني] [٤٩] والنهي والحض والدعاء والنداء والطلب، كلُّها من وادٍ واحد بالمشاكلة والمماثلة، ألا ترى أن رجلًا لو قال: «نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق، وتكلم بالفحش ولكن ما قال الفحش، وأعرب عن

نفسه ولكن ما أفصح، وأبان المراد ولكن ما أوضح، أو فاه بحاجته ولكن ما لفظ، أو أخبر ولكن ما أنبأ»؛ لكان في جميع هذا محرِّفًا ومناقضًا وواضعًا للكلام في غير حقه، ومستعملًا اللفظ على غير شهادة [من] عقله[٥٠] وعقل غيره، والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي، ولهذا كان اللفظ بائدًا على الزمان، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة [بأثر آخر[٥١] من الطبيعة]، ولهذا كان المعنى ثابتًا على الزمان، لأن مستملَى المعنى عقل، والعقل إلهي ومادة اللفظ طينية، وكل طيني متهافت، وقد بقيت أنت بلا اسم لصناعتك التي تنتحلها وآلتك التي تُزْهى بها، إلا أنْ تستعير من العربية لها اسمًا فتُعار، ويسلَّم لك ذلك بمقدار، وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة،[٥٢] فلا بد لك أيضًا من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثقة والتوقي من الخلة اللاحقة.

فقال متَّى: يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف، فإني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتْها لي يونان.

قال [أبو سعيد]: أخطأتَ، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها، وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحرِّكات، وهذا باب [أنت[٥٣] وأصحابك ورهطك عنه في غفلة. على أن ها هنا سرًّا ما علق]

بك، ولا أسفر لعقلك، وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق[٥٤] لغةً أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها، في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها، واستعارتها وتحقيقها، وتشديدها وتخفيفها، وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها، ووزنها وميلها، وغير ذلك مما يطول ذكره. وما أظن أحدًا يدفع هذا الحكم أو يشك في صوابه ممن يرجع إلى مُسْكةٍ من عقل أو نصيبٍ من إنصاف، فمن أين يجب أن تثق بشيء تُرجم لك على هذا الوصف؟ بل أنت إلى تعرف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرف المعاني اليونانية. على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية، كما أن اللغات تكون فارسية وعربية وتركية، ومع هذا فإنك تزعم أن المعاني حاصلة بالعقل والفحص والفكر، فلم يبق إلا أحكام اللغة، فلمَ تزري على العربية وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها مع جهلك بحقيقتها؟

وحدثني عن قائل قال لك: حالي في معرفة الحقائق والتصفح لها [والبحث عنها] [٥٥] حال قومٍ كانوا قبل واضع المنطق، أنظر كما نظروا، وأتدبر كما تدبروا، لأن اللغة قد عرفتها بالمنشأ والوراثة، والمعاني نقَّرت عنها بالنظر والرأي والاعتقاب والاجتهاد. ما تقول له؟ أتقول: إنه لا يصح له هذا الحكم ولا يستتب هذا الأمر، لأنه لا يعرف هذه الموجودات من الطريق التي عرفتها أنت؟ ولعلك تفرح بتقليده لك – وإن كان على باطل – أكثر مما تفرح باستبداده وإن كان على حق، وهذا هو الجهل المبين والحكم المَشين. [٥٦]

ومع هذا فحدثني عن الواو ما حكمه؟ فإني أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئًا، وأنت تجهل حرفًا واحدًا في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان، ومن جهل حرفًا أمكن أن يجهل حروفًا، ومن جهل حروفًا جاز أن يجهل اللغة بكمالها، فإن كان لا يجهلها كلها ولكن يجهل بعضها، فلعله يجهل ما يحتاج إليه، ولا ينفعه فيه علم ما لا يحتاج إليه، وهذه رتبة العامة أو رتبة من هو فوق العامة بقدر يسير. فلمَ يتأبى على هذا ويتكبر، ويتوهم أنه من الخاصة وخاصة الخاصة، وأنه يعرف سر الكلام وغامض الحكمة وخفي القياس وصحيح البرهان؟

وإنما سألتك عن معاني حرف واحد، فكيف لو نثرت عليك الحروف كلَّها، وطالبتُك بمعانيها ومواضعها التي لها بالحق، والتي لها بالتجوز؟ سمعتكم تقولون: إن «في» لا يعرف النحويون مواقعها، وإنما يقولون: هي «للوعاء» كما [يقولون:] «إن الباء للإلصاق»، وإن «في» تقال على وجوه: يقال: «الشيء في الإناء» و«الإناء في المكان» و«السائس [في السياسة]» و«السياسة في السائس.»

أترى أن هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها، ولا يجوز أن يُعقل هذا بعقول الهند والترك والعرب؟ فهذا جهلٌ من كل من يدعيه، وخطَلٌ من القول الذي أفاض فيه. النحوي إذا قال «في» للوعاء(٥٧) فقد أفصح في الجملة عن المعنى الصحيح، وكَنَى مع ذلك عن الوجوه التي تظهر بالتفصيل، ومثل هذا كثير وهو كافٍ في موضع التكنية. (٥٨)

فقال ابن الفرات: أيها الشيخ الموفق، أجبه بالبيان عن مواقع «الواو» حتى تكون أشد في إفحامه، وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه، ومع هذا فهو مشنِّع(٥٩) به.

فقال أبو سعيد: للواو وجوه ومواقع: منها معنى العطف في قولك: «أكرمت زيدًا وعمرًا.» ومنها القَسَم في قولك: «والله لقد كان كذا وكذا.» ومنها الاستئناف في قولك: «خرجتُ وزيد قائم»، لأن الكلام بعده ابتداء وخبر، ومنها معنى رُبَّ التي هي للتقليل نحو قولهم: (٦٠)

وقاتمِ الأعماق خاوي المخترَق

ومنها أن تكون أصلية في الاسم، كقولك: واصلٌ واقدٌ وافدٌ، وفي الفعل كذلك كقولك: وَجل يَوْجَل، ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله عز وجل: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ، أي ناديناه، ومثله قول الشاعر: (٦١)

فلما أجزنا ساحةَ الحي وانتحى

المعنى: انتحى بنا، ومنها معنى الحال في قوله عز وجل: وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا، أي يكلم الناس في حال كهولته، ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر، كقولك: استوى الماءُ والخشبةَ، أي مع الخشبة.

فقال ابن الفرات [لمتَّى]: يا أبا بِشر: أكان هذا في نحوك؟(٦٢)

ثم قال أبو سعيد: دع هذا، ها هنا مسألة علاقتها بالمعنى العقليّ أكثرُ من علاقتها بالشكل اللفظي، ما تقول في قول القائل: «زيد أفضل الإخوة»؟ قال: صحيح. قال: فما [تقول[٦٣] إن قال: «زيد أفضلُ إخوته»؟ قال: صحيح. قال: فما] الفرق بينهما [مع الصحة]؟ [٦٤] فبَلَحَ[٦٥] وجَنَح وغصَّ بريقه.

فقال أبو سعيد: أفتيتَ على غير بصيرة ولا استبانة؛ المسألة الأولى جوابُك عنها صحيح وإن كنتَ غافلًا عن وجه صحتها، والمسألة الثانية جوابُك عنها غيرُ صحيح وإن كنت أيضًا ذاهلًا عن وجه بطلانها.

قال متَّى: بيِّن لي ما هذا التهجين؟

قال أبو سعيد: إذا حضرتَ الحَلْقة[٦٦] استفدتَ، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس مع مَن عادته التمويه والتشبيه، والجماعة تعلم أنك أخطأتَ فلِمَ تدَّعي أن النحوي إنما ينظر في اللفظ دون المعنى والمنطقيَّ ينظر في المعنى لا في اللفظ؟ هذا كان يصح لو أن المنطقي كان يسكت ويجيل[٦٧] فكرَه في المعاني، ويرتِّب ما يريد بالوهم السانح والخاطر العارض والحَدْس الطارئ، فأمَّا وهو يريغ أن يبرِّر[٦٨] ما صح له بالاعتبار والتصفُّح إلى المتعلِّم والمُناظِر، فلا بدَّ له من اللفظ الذي يشتمل على مراده، ويكون طِباقًا لغرضه وموافقًا لقصده.[٦٩]

قال ابن الفرات لأبي سعيد: تَمِّم لنا كلامك في شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرةً لأهل المجلس، والتبكيتُ عاملًا في نفس أبي بشر.

فقال: ما أكرهُ من إيضاح الجواب عن هذه المسألة إلا مَلَل الوزير، فإن الكلام إذا طال مُلَّ.

فقال ابن الفرات: ما رغبتُ في سماع كلامك وبيني وبين المَلَل علاقة، فأما الجماعة فحرصُها على ذلك ظاهر.

فقال أبو سعيد: إذا قلت: «زيد أفضل إخوتِه» لم يجُزْ، وإذا قلت: «زيد أفضل الإخوة» جاز، والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غيرُ زيد، وزيدٌ خارج عن جملتهم. والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال: «من إخوة زيد؟» لم يجُزْ أن تقول: زيد وعمرو وبكر وخالد [وإنما تقول: بكر وعمرو وخالد] (٧٠) ولا يدخل زيدٌ في جملتهم، فإذا كان زيد خارجًا عن إخوته صار غيرهم، فلم يجُزْ أن تقول: أفضل إخوته، كما لم يجز أن تقول: «إن حمارك أفْرهُ(٧١) البغال»، لأن الحمير غير البغال، كما أن زيدًا غيرُ إخوته. فإذا قلت: «زيد خير الإخوة» جاز، لأنه أحد الإخوة، والاسم يقع عليه وعلى غيره فهو بعض الإخوة، ألا ترى أنه لو قيل: «مَن الإخوة؟» عددتَه فيهم فقلتَ: «زيد وعمرو وبكر وخالد»، فيكون بمنزلة قولك: «حمارك أفْرهُ الحمير» لأنه داخل تحت الاسم الواقع على الحمير؟ فلما كان على ما وصفنا جاز أن يُضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس، فتقول: «زيد أفضل رجل» و«حمارك أفره حمار»، فيدلُّ

«رجل» على الجنس كما دلَّ الرجال، وكما في «عشرين درهمًا ومائة درهم.»

فقال ابن الفرات: ما بعد هذا البيان مزيد، ولقد جلَّ علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الإسفار.

فقال أبو سعيد: معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخِّي الصواب في ذلك وتجنُّب الخطأ من ذلك، وإن زاغ شيء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغًا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد، أو مردودًا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم. فأما ما يتعلق باختلاف لغات القبائل فذلك شيء مسلَّم لهم ومأخوذ عنهم، وكلُّ ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطَّرد على الأصل المعروف من غير تحريف، وإنما دخل العُجب على المنطقيِّين لظنهم أن المعانيَ لا تُعرَف ولا تُستوضَح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلُّفهم، فترجموا لغةً هم فيها[٧٢] ضعفاء ناقصون، وجعلوا تلك الترجمة صناعة، وادَّعَوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى.

ثم أقبل أبو سعيد على متَّى فقال: أما تعرف[٧٣] يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائتلفتْ بمراتب، وتقول[٧٤] بالمثل: «هذا ثوب»، والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوبًا، لأنه نُسِجَ بعد أن غُزِل، فسَداتُه لا تكفي دون لُحمته ولُحْمته لا تكفي دون سَداته، ثم

تأليفه٧٥ كنسجه، وبلاغتُه كقِصارته،[٧٦] ورِقَّةُ سِلْكِه كرِقَّة لفظه، وغِلَظُ غزله ككثافة حروفه، ومجموع هذا كلِّه ثوب، ولكن بعد تقدمة كلِّ ما يُحتاج إليه فيه.

قال ابن الفرات: سلْه يا أبا سعيد عن مسألة أخرى، فإن هذا كلَّما توالى عليه بان انقطاعُه، وانخفض ارتفاعُه في المنطق الذي ينصره، والحقِّ الذي [لا] [٧٧] يبصره.

قال أبو سعيد: ما تقول في رجل يقول: «لهذا عليَّ درهم غير قيراط، ولهذا الآخر عليَّ درهم غيرُ قيراط»؟ قال: ما لي علم بهذا النَّمَط. قال: لستُ نازعًا عنك حتى يصح عند الحاضرين أنك صاحب مخرقة وزَرْق،[٧٨] ها هنا ما هو أخفُّ من هذا؛ قال رجل لصاحبه: «بكم الثوبان المصبوغان؟» وقال آخَر: «بكم ثوبان مصبوغان؟» وقال آخر: «بكم ثوبان مصبوغَيْن؟» بيِّن هذه المعاني التي تضمَّنها لفظٌ لفظ.

قال متَّى: لو نثرتُ أنا أيضًا عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالي.

قال [أبو سعيد]: أخطأتَ، لأنك إذا سألتني عن شيء أنظر فيه، فإن كان له علاقة بالمعنى وصحَّ لفظُه على العادة الجارية أجبتُ، ثم لا أبالي أن يكون موافقًا أو مخالفًا، وإن كان غير متعلِّق بالمعنى رددتُه عليك، وإن كان متَّصلًا باللفظ ولكن على وَضْعٍ لكم في الفساد على ما

حشوتم به كتبَكم رددتُه أيضًا، لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة في لغة مقرَّرة بين أهلها.

ما وجدنا لكم إلا ما استعرتم من لغة العرب [كالسبب والآلة] [٧٩] والسَّلْب والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمَل والمحصور، وأمثلة لا تنفع ولا تُجدِي، وهي إلى العِيِّ أقرب، وفي الفهاهة أذهَب.

ثم أنتم هؤلاء في منطقكم على نقصٍ ظاهر، لأنكم لا تفُون[٨٠] بالكتب ولا هي مشروحة، فتدَّعون الشعر ولا تعرفونه[٨١] وتذكرون[٨٢] الخطابة وأنتم عنها في منقطَع التراب، وقد سمعتُ قائلكم يقول: «الحاجة ماسَّة إلى كتاب البرهان»، فإن كان كما قال فلِمَ قُطِع الزمانُ بما قبله من الكتب؟ وإن كانت الحاجة قد مسَّت إلى ما قبل البرهان فهي أيضًا ماسَّةٌ إلى ما بعد البرهان، وإلا فلِمَ صُنِّف ما لا يُحتاج إليه ويُستغنى عنه؟ هذا كله تخليط وزَرْق وتهويل ورعد وبرق.

وإنما بودِّكم[٨٣] أن تَشغَلوا جاهلًا، وتستذلوا عزيزًا، وغايتكم أن تهوِّلوا بالجنس والنوع والخاصَّة والفصل والعَرَض والشخص، وتقولوا: الهَلِّيَّة[٨٤] والأَيْنِيَّة والماهيَّة والكيفيَّة والكميَّة والذاتيَّة والعَرَضيَّة والجوهريَّة والهَيُوليَّة والصُّوريَّة والأَيْسيَّة[٨٥] واللَّيْسيَّة والنفسيَّة، ثم تتطاولون[٨٦] فتقولون: «جئنا بالسِّحْر» في قولنا: «لا» في شيء من «ب» و«ج» في بعض «ب»، ف «لا» في بعض «ج» و«لا» في كلِّ «ب» و«ج» في كل

«ب»، فإذن «لا» في كل «ج»،٨٧ هذا بطريق الخُلْف، وهذا بطريق الاختصاص.

وهذه كلُّها خُرافات وتُرَّهات، ومغالق وشبكات، ومن جاد عقله وحَسُن تمييزه ولَطُف نظره وثَقُب رأيه وأنارت نفسُه استغنى عن هذا كلِّه بعون الله وفضله. وجودة العقل وحُسن التمييز ولُطف النظر وثُقوب الرأي وإنارة النفس من منائح الله الهنيَّة، ومواهبِه السَّنيَّة، يختصُّ بها من يشاء من عباده. وما أعرف لاستطالتكم بالمنطق وجهًا، وهذا الناشئ أبو العباس قد نَقَض عليكم وتتبَّع طريقتكم، وبيَّن خطأكم، وأبرز ضعفكم، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردوا عليه [كلمة واحدة] [٨٨] مما قال، وما زدتم٨٩ على قولكم: لم يعرف غرضنا ولا وقف على مرادنا، وإنما تكلَّم على وهم. وهذا منكم تَحاجُزٌ ونُكول ورضًى بالعجز وكُلول، وكلُّ ما ذكرتم في الموجودات فعليكم فيه[٩٠] اعتراض؛ هذا قولكم في «يَفعل وينفعل» لم تستوضحوا فيهما مراتبَهما ومواقعَهما، ولم تقِفوا على مَقاسِمهما، لأنكم قنِعتم فيهما بوقوعِ الفعل من «يَفعل» وقبول الفعل من «يَنفعل»، ومن وراء ذلك غاياتٌ خفيتْ عليكم، ومعارفُ ذهبتْ عنكم، وهذا حالكم في الإضافة.

فأما البدل ووجوهه، والمعرفةُ وأقسامها، والنكرة ومراتبها، وغيرُ ذلك مما يطول ذكره؛ فليس لكم فيه مقال و[لا] مجال.

وأنت إذا قلتَ لإنسان: «كن منطقيًّا»، فإنما تريد: كن عقليًّا أو عاقلًا أو اعقِل ما تقول،[٩١] لأن أصحابك يزعمون أن النطق هو العقل، وهذا قولٌ مدخول لأن النطق على وجوه أنتم عنها في سهو.

وإذا قال لك آخر: «كن نحويًّا لغويًّا فصيحًا»، فإنما يريد: افهم عن نفسك ما تقول، ثم رُمْ أن يَفْهم عنك غيرُك.

وقدِّر اللفظَ على المعنى فلا يَفضُل عنه، وقدِّر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه. هذا إذا كنتَ في تحقيق شيء على ما هو به، فأما إذا حاولت فَرْش المعنى وبَسْط المراد فاجْلُ اللفظ بالروادف الموضِّحة، والأشباه المقرِّبة، والاستعارات الممتعة، وبيِّن[٩٢] المعانيَ بالبلاغة، أعني لوِّحْ منها لشيء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشَّوق إليها، لأن المطلوب إذا ظُفِر به على هذا الوجه عزَّ وحلا، وكَرُم وعلا. واشرح منها شيئًا حتى لا يمكن أن يُمتَرى [فيه] أو يُتعَب في فهمه أو يُعَرَّج عنه لاغتماضه، فهذا المذهب يكون جامعًا لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق، وهذا بابٌ إن استقصيتُه خرج عن نَمط ما نحن عليه في هذا المجلس، على أني لا أدري أيؤثِّر فيك ما أقول أو لا.

ثم قال: حدِّثْنا هل فصلتم [قطُّ] بالمنطق بين مختلفَين، أو رفعتم الخلافَ بين اثنين؟ أتُراك بقوة المنطق وبرهانه اعتقدتَ أن الله ثالثُ ثلاثة، وأن الواحد أكثرُ من واحد، وأن الذي هو أكثر من واحد هو

واحد، وأن الشرع ما تذهب إليه، والحقَّ ما تقوله؟[٩٣] هيهات، ها هنا أمور ترتفع عن دعوى أصحابِك وهَذَيَانهم، وتَدِقُّ عن عقولهم وأذهانهم.

ودعْ هذا، ها هنا مسألة قد أوقعتْ خلافًا، فارفع ذلك الخلاف بمنطقك:

قال قائل: «لفلانٍ مِن الحائط إلى الحائط» ما الحكم فيه؟ وما قَدْرُ المشهود به لفلان؟ فقد قال ناس: له الحائطان معًا وما بينهما. وقال آخرون: له [النصف من كلٍّ منهما. وقال آخرون: له] [٩٤] أحدهما. هات الآن آيتك الباهرة، ومعجزتك القاهرة، وأنَّى لك بهما؟ وهذا قد بان بغير نظرك ونظر أصحابك.

ودع هذا أيضًا، قال قائل: «مِن الكلام ما هو مستقيم حَسَن، ومنه ما هو مستقيم محال، ومنه ما هو مستقيم قبيح، ومنه ما هو محال كذب، ومنه ما هو خطأ.» فسِّر هذه الجملة، واعترَض عليه عالِمٌ آخَر، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعترِض وأرِنا قوَّةَ صناعتك التي تميز [بها] بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل. فإن قلتَ: كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعتُ مقالتَه، والآخَر لم أحصِّل اعتراضَه؟ قيل لك: استخرج بنظرك الاعتراض إن كان ما قاله محتملًا له، ثم أَوْضِح الحقَّ منهما، لأن الأصل مسموع لك حاصلٌ عندك، وما يصحُّ به أو يَرِد عليه يجب أن يظهر منك، فلا تتعاسَرْ[٩٥] علينا فإن هذا لا يخفى على [أحد[٩٦] من] الجماعة.

فقد بان الآن أن مركَّب اللفظ لا يَحُوز مبسوط العقل، والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامة، وليس في قوة اللفظ من أيِّ لغة كان أن يَملك ذلك المبسوط ويحيطَ به، ويَنصِب عليه سُورًا، ولا يَدَع شيئًا من داخلِه أن يخرج ولا شيئًا من خارجه أن يَدخل، خوفًا من الاختلاط الجالبِ للفساد، أعني أن ذلك يَخلِط الحقَّ بالباطل، ويشبِّه الباطلَ بالحق. وهذا الذي وقع الصحيحُ منه في الأول قَبْل وضع المنطق، وقد عاد ذلك الصحيح في الثاني بعد[٩٧] المنطق.

وأنت لو عرفتَ تصرُّف العلماء والفقهاء في مسائلهم، ووقفتَ على غَوْرهم في نظرهم، وغَوْصِهم في استنباطهم، وحُسْنِ تأويلهم لِمَا يَرِد عليهم، وسَعَةِ تشقيقهم للوجوه المحتمَلة والكنايات المفيدة والجهات القريبة والبعيدة؛ لحقَّرْتَ نفسَك، وازدريتَ أصحابَك، ولكان ما ذهبوا إليه وتابَعوا عليه أقلَّ في عينك من السُّها عند القمر، ومن الحصا عند الجبل. أليس الكِنْدِيُّ وهو عَلَم في أصحابك يقول[٩٨] في جواب مسألة «هذا[٩٩] من باب عدَّ.» فعَدَّ الوجوه بحسب الاستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم بلا ترتيب، حتى وضعوا له مسائل من هذا الشكل وغالطوه بها وأَرَوْه أنها من الفلسفة الداخلة، فذهب عليه ذلك الوضع، فاعتقد فيه أنه [صحيح وهو] [١٠٠]مريض العقل، فاسد المزاج، حائلُ الغريزة، مشوَّش اللُّب.

قالوا له: أخبرنا عن اصْطِكاك[١٠١] الأجرام وتَضاغُط الأركان، هل يدخل في باب وجوب الإمكان، أو يخرج من باب الفُقْدان إلى ما يَخفَى عن الأذهان؟

وقالوا له أيضًا: ما نسبة الحركات الطبيعية إلى الصُّوَر الهَيُولانِيَّة؟ وهل هي مُلابِسة للكِيان في حدود النظر والبيان، أو مُزايِلةٌ له مزايَلة على غاية الإحكام؟

وقالوا له: ما تأثير فُقْدان الوِجْدان في عدم الإمكان عند امتناع الواجب من وجوبه في ظاهرِ ما لا وجوب له لاستحالته في إمكان أصله؟

وعلى هذا فقد حُفِظ جوابُه عن جميع هذا على غاية الرَّكاكة والضعف [والفساد] والفَسَالة والسُّخْف، ولولا التوقِّي من التطويل لسردتُ ذلك كلَّه. ولقد مر بي في خطِّه: التفاوت في تلاشي الأشياء غيرُ مُحاطٍ به، لأنه يلاقي الاختلاف في الأصول والاتفاق في الفروع، وكلُّ ما يكون على هذا النَّهْج فالنَّكِرة تزاحم عليه المعرفة والمعرفةُ تناقض النكرة. على أن النكرة والمعرفة من باب الألبسة العارية من ملابس الأسرار الإلهية، لا من باب الإلهية العارضة في أحوال البشرية.

ولقد حدثنا أصحابُنا الصابئون عنه بما يُضحِك الثَّكْلى ويُشْمِت العدوَّ ويغُمَّ الصديق، وما وَرِث هذا كلَّه إلا من بركات يونانَ وفوائد الفلسفة والمنطق، ونسأل الله عصمة وتوفيقًا نهتدي بهما إلى القول الراجع إلى التحصيل والفعل الجاري على التعديل، إنه سميع مجيب!

هذا آخر ما كتبتُ عن علي بن عيسى الرُّمَّاني الشيخِ الصالحِ بإملائه. وكان أبو سعيد قد رَوَى لُمَعًا من هذه القصة.

وكان يقول: لم أحفظ عن نفسي كلَّ ما قلتُ، ولكن كتب ذلك أقوامٌ حضروا في ألواح كانت معهم ومحابرُ أيضًا، وقد اختلَّ عليَّ كثير منه.

قال علي بن عيسى: وتقوَّض المجلس، وأهلُه يتعجَّبون من جأش أبي سعيد الثابت، ولسانِه المتصرف، ووجهِه المتهلِّل، وفوائده المتتابعة.

وقال الوزير ابن الفرات: عين الله عليك أيها الشيخ، فقد نَدَّيْتَ أكبادًا، وأقررتَ عيونًا، وبيَّضتَ وجوهًا، وحُكْتَ طِرازًا لا يبليه الزمان، ولا يتطرَّق إليه الحدثان.

قلت لعلي بن عيسى: وكم كانت سنُّ أبي سعيد(١٠٢) في ذلك الوقت؟

قال: مولده سنة ثمانين ومائتين، وكان له يومَ المناظرة أربعون سنة، وقد عَبِث الشَّيْب بلَهازمه(١٠٣)مع السَّمْت والوَقَار والدِّين والجِدِّ، وهذا شعار أهل الفضل والتقدم، وقلَّ من تظاهر به أو تحلَّى بحليته إلا جلَّ في العيون، وعظم في النفوس، وأحبَّته القلوب، وجرت بمدحه الألسنة.

وقلتُ لعلي بن عيسى: أما كان أبو علي(١٠٤) الفَسَويُّ النحويُّ حاضرَ المجلس؟ قال: لا، كان غائبًا، وحُدِّث بما كان فكان يكتم الحسد لأبي سعيد على ما فاز به من هذا الخبر المشهور، والثناء المذكور.

فقال لي الوزير[١٠٥] عند منقطَع هذا الحديث: ذكَّرتني شيئًا قد دار في نفسي مرارًا وأحببت أن أقف على واضِحه؛ أين أبو سعيد من أبي علي؟ وأين علي بن عيسى منهما؟ وأين ابن المراغيِّ أيضًا من الجماعة؟ وكذلك المَرْزُبانيُّ وابن شاذان وابن الورَّاق وابن حَيَّويه؟

فكان من الجواب: أبو سعيد أجمَعُ لشمل العلم، وأنظَمُ لمذاهب العرب، وأَدْخَلُ في كلِّ باب، وأَخْرَج من كل طريق، وأَلْزَمُ للجادَّة الوسطى في الدِّين والخُلُق، وأَرْوَى في الحديث، وأَقْضَى في الأحكام، وأَفْقَهُ في الفتوى، وأَحْضَرُ بركة على المختلفة، وأَظْهَرُ أثرًا في المقتبسة. ولقد كتب إليه نوح بن نصر – وكان من أدباء ملوك آل سامان – سنة أربعين[١٠٦] كتابًا خاطبه فيه بالإمام، وسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة، الغالب عليها الحروف وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شَكَّ فيها فسأل عنها، وكان هذا الكتاب مقرونًا بكتاب الوزير البَلْعَمِيِّ خاطبه فيه بإمام المسلمين، ضمَّنه مسائل في القرآن وأمثالًا للعرب مشكِلة.

وكتب إليه المَرْزُبان بن محمد ملِكُ الدَّيْلَم من أَذْربيجانَ كتابًا خاطبه فيه بشيخ الإسلام، سأله عن مائة وعشرين مسألة، أكثرها في القرآن وباقي ذلك في الروايات عن النبي وعن أصحابه رضوان الله عليهم.

وكتب إليه ابن حِنْزَابة من مصر كتابًا خاطبه فيه بالشيخ الجليل، وسأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المرويّ عن النبيﷺ وعن السلف.

وقال لي الدَّارقُطْنيُّ سنة سبعين: أنا جمعتُ ذلك لابن حِنزَابة على طريق المعونة.

وكتب إليه أبو جعفر ملِك سجستان على يد شيخنا أبي سليمان كتابًا يخاطبه فيه بالشيخ الفَرد، سأله عن سبعين مسألة في القرآن، ومائةِ كلمة في العربية، وثلاثمائة بيت من الشعر، هكذا حدثني به أبو سليمان. وأربعين مسألة في الأحكام، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين.

قال لي الوزير: وهذه المسائل والجواب عنها عندك؟ قلت: نعم. قال: في كم تقع؟ قلت: لعلها تقع في ألف وخمسمائة ورقة، لأن أكثرها في الظهور. قال: ما أحوَجَنا إلى النظر فيها، والاستمتاع بها، والاستفادة منها! وأين الفراغ وأين السكون ونحن كلَّ يوم نُدفَع إلى طامَّةٍ تُنْسِي ما سلف، وتُوعِد بالداهية؟! اللهم هذه ناصيتي بيدك فتولَّني بالعصمة، واخصصني بالسلامة، واجعل عقبايَ إلى الحسنى!

ثم قال: صِلْ حديثك.

قلت: وأما أبو علي[١٠٧] فأشدُّ تفردًا بالكِتاب،[١٠٨] وأشدُّ إكبابًا عليه، وأبعَدُ من كلٍّ ما عداه ممَّا هو عِلمُ الكوفيِّين، وما تَجاوَز في اللغة كُتُب أبي زيد وأطرافًا مما لغيره. وهو متَّقِد بالغيظ على أبي سعيد وبالحسد له؛ كيف تمَّ له تفسيرُ كتاب سيبويه من أوله إلى آخره بغريبه وأمثاله وشواهده وأبياته! ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، لأن هذا شيء ما تمَّ للمبرِّد ولا للزَّجَّاج ولا لابن السَّرَّاج ولا لابن دَرَسْتويه مع سعة علمهم، وفيضِ كلامهم.

ولأبي علي أطراف من الكلام في مسائل أجاد فيها ولم يَأْتَلِ، ولكنه قَعد على الكتاب[١٠٩] على النَّظْم المعروف.

وحدثني أصحابُنا أن أبا علي اشترى شرح أبي سعيد في الأهواز في توجُّهه إلى بغداد سنة ثمانٍ وستين – لاحقًا بالخدمة المرسومة به، والنِّدامة[١١٠] الموقوفة عليه – بألفَي درهم، وهذا حديث مشهور، وإن كان أصحابُه يأبَون الإقرار به إلا من زعم أنه أراد النقض عليه، وإظهارَ الخطأ فيه.

وقد كان الملِك السعيد رضي الله عنه همَّ بالجمع بينهما فلم يُقضَ له ذلك، لأن أبا سعيد مات في رجب سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة.

وأبو علي يشرب ويتخالع ويفارق هَدْي أهل العلم وطريقةَ الرَّبَّانيِّين[١١١] وعادة المتنسِّكين.

وأبو سعيد يصوم الدهر، ولا يصلي إلا في الجماعة، ويقيم على مذهب أبي حنيفة، ويلي القضاءَ سنين، ويتألَّه[١١٢] ويتحرَّج، وغيرُه بمَعزل عن هذا. ولولا الإبقاء على حُرمة العلم لكان القلم يجري بما هو خافٍ، ويخبر بما هو مُجَمْجَم،[١١٣] ولكنَّ الأخذ بحكم المروءة أولى، والإعراض عما يجلب اللائمة أحرَى.

وكان أبو سعيد حَسَن الخط، ولقد أراده الصَّيْمَرِيُّ أبو جعفر على الإنشاء والتحرير فاستعفَى وقال: هذا أمر يُحتاج فيه إلى دُرْبَة وأنا عارٍ منها، وإلى سياسةٍ وأنا غريب فيها.

ومِن العَناء رياضةُ الهَرِمِ

وحدثنا النَّصْرِي[١١٤] أبو عبد الله – وكان يكتب النوبة للمهلَّبيِّ – بحديث مفَنِّد[١١٥] لأبي سعيد هذا موضعه، قال: كنتُ أخطُّ بين يدي الصَّيْمَري أبي جعفر محمد بن أحمد بن محمد، فالتمسَني يومًا لأن أجيب ابن العميد أبا الفضل عن كتاب فلم يجدني، وكان أبو سعيد السيرافيُّ بحضرته، فظَنَّ[١١٦] أنه بفضل عِلمه أقومُ بالجواب من غيره، فتقدم إليه أن يكتب ويجيب، فأطال في عمل نسخة كثُر فيها الضرب والإصلاح، ثم أخذ يحرِّر، والصَّيْمَريُّ يقرأ ما يكتبه، فوجده مخالفًا لجاري العادة لفظًا، مباينًا لما يريده[١١٧] ترتيبًا.

قال: ودخلت في تلك الحال، فتمثَّل الصَّيْمَريُّ بقول الشاعر:

يا باريَ القوسِ بَرْيًا ليس يُصْلِحه   لا تَظلمِ القوسَ أَعْطِ القوسَ باريها

ثم قال لأبي سعيد: خفِّفْ عليك أيها الشيخ وادفع الكتاب إلى أبي عبد الله تلميذِك ليجيب عنه. فخجل من هذا القول. فلمَّا ابتدأتُ الجواب من غير نسخة تحيَّر مني أبو سعيد ثم قال: أيها الأستاذ، ليس بمستنكَرٍ ما كان مني، ولا بمستكثَرٍ ما كان منك، إن مال الفَيْء لا يصحُّ في بيت المال إلا بين مستخرِجٍ[١١٨] وجَهْبَذٍ، والكتَّاب جهابذة الكلام والعلماء مستخرجوه. فتبسم الصَّيْمريُّ وأعجبه ما سمع، وقال: على كل حال ما أخليتَنا من فائدة.

وكان أبو سعيد بَعيدَ القَرِين، لأنه كان يُقرَأ عليه القرآنُ والفقه والشروط والفرائض والنحو واللغة والعَروض والقوافي والحساب والهندسة والحديث والأخبار، وهو في كل هذا إما في الغاية وإما في الوسط.

وأما علي بن عيسى[١١٩] فعالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق وعِيبَ به، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق بل أَفرَدَ صناعة، وأظهر براعة، وقد عمل في القرآن كتابًا نفيسًا. هذا مع الدِّين الثخين والعقل الرزين.

وأما ابن المراغيِّ[١٢٠] فلا يَلْحَق بهؤلاء، مع براعة اللفظ، وسعة الحِفظ، وعزة النفس، وبلل[١٢١] الريق، وغزارة النَّفْث، وكثرة الرواية. ومن

نظر في كتاب البهجة له عرف ما أقول، واعتقد فوق ما أصف، ونَحَل(١٢٢) أكثر مما أَبذُل.

وأما المَرْزُبانيُّ(١٢٣) وابن شاذان وابن القِرْمِسِينيِّ وابن حَيَّوَيْه(١٢٤) فهم رواة وحَمَلة، ليس لهم في ذلك نَقْطٌ ولا إعجام، ولا إسراج ولا إلجام.

فقال: فصِّلْ حديثك [عن] (١٢٥) هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء؛ صف لي جماعتهم، واذكر لي بضاعتهم، وما خصَّ كلَّ واحد منهم. قلتُ: لستُ من الشعر والشعراء في شيء، وأكره أن أخطو على دَحْض،(١٢٦) وأحتسيَ غير محض. قال: دعْ هذا القول، فما خُضْنا في شيء إلى هذا الوقت إلا على غاية ما كان في النفس، ونهاية ما أفاد من الأنس.

فكان من الوصف: أما السَّلَاميُّ(١٢٧) فهو حلو الكلام، متَّسق النظام، كأنما يَبسِم عن ثغر الغمام، خفيُّ السرقة، لطيفُ الأخذ، واسع المذهب، لطيف المَغارس، جميلُ الملابس، لكلامِه لَيْطَةٌ(١٢٨) بالقلب، وعبثٌ بالرُّوح، وبردٌ على الكبد.

وأما الحاتِميُّ(١٢٩) فغليظ اللَّفظ، كثير العُقَد، يحب أن يكون بدويًّا قُحًّا وهو لم يَتِمَّ حَضَريًّا. غزيرُ المحفوظ، جامعٌ بين النظم والنثر، على تشابهٍ بينهما في الجفوة،(١٣٠) وقلة السَّلاسة، والبعدِ من المَسْلوك، بادي العورة فيما يقول لكأنما يُبْرِز ما يُخفِي، ويكدِّر ما يُصفِّي، له سَكْرة في

القول إذا أفاق منها خُمِر، [١٣١] وإذا خُمِر سَدِر. [١٣٢] يتطاول شاخصًا فيتضاءل متقاعِسًا، إذا صدق فهو مَهين، وإذا كَذَب فهو مَشين.

وأما ابن جَلَبات [١٣٣] فمجنون الشِّعر، متفاوت اللفظ، قليل البديع، واسع الحيلة، كثير الزَّوَق، [١٣٤] قصير الرِّشاء، [١٣٥] كثير الغُثاء، [١٣٦] غَرَّهُ نَفَاقُه [١٣٧] ونَفَّقَه نِفَاقُه.

وأما الخالع [١٣٨] فأديب الشِّعر، صحيحُ النَّحت، كثير البديع، مستوي [١٣٩] الطريقة، متشابهُ الصناعة، بعيدٌ من طَفْرة المتحيِّر، قريبٌ من فرصة المتخيِّر. كان ذو الكفايتين يقدِّمه بالرَّيِّ، ويقبَله على النَّشْر والطَّيِّ.

وأما مَسْكُوَيه [١٤٠] فلطيف اللفظ، رَطْبُ الأطراف، رقيق الحواشي، سهلُ المأخذ، قليلُ السَّكْب، بطيءُ السَّبْك، مشهورُ المعاني، كثير التواني، شديد التَّوَقِّي، ضعيف الترقِّي، يَرِد أكثرَ ممَّا يَصدُر، ويَتطاوَلُ جُهدَه ثم يَقصُر، ويطير بعيدًا ويقع قريبًا، ويَسقِي من قبل أن يَغرس، ويمتَحُ [١٤١] من قبل أن يُمِيه. وله بعد ذلك مآخذُ كشَذْوٍ ١٤٢ من الفلسفة، وتأتٍّ [١٤٣] في الخدمة، وقيامٍ برسوم النِّدامة. [١٤٤] وسُنَّة [١٤٥] في البخل، وغرائبُ من الكذب، وهو حائل [١٤٦] العقل لشَغفه بالكيمياء.

وأما ابن نُباتة [١٤٧] فشاعر الوقت، [لا] يَدفَع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معانِد، قد لحِق عصابةَ «سيف الدولة» وعدا معهم ووراءهم، حَسَن الحَذْو على مثال سكان البادية، لطيفُ الائتمام بهم، خفيٌّ

المَغاص في واديهم، ظاهرُ الإطلال على ناديهم، هذا مع شُعْبة من الجنون وطائِفٍ من الوَسْواس.

وأما ابن حجَّاج[١٤٨] فليس من هذه الزُّمْرة بشيء، لأنه سخيف الطريقة، بعيدٌ من الجِدِّ، قَريعٌ في الهزل، ليس للعقل من شعره مَنال،[١٤٩] ولا له في قرْضِه[١٥٠] مِثال. على أنه قويم اللفظ، سهلُ الكلام، وشمائلُه نائيَةٌ بالوَقار عن عادته الجارية في الخَسار. وهو شريك ابن سُكَّرة في هذه الغَرامة. [١٥١] وإذا جَدَّ أَقْعَى، وإذا هَزَل حَكَى الأفعى.

وله مع ذي الكفايتين مناظرة طيبة. قال: ما هي؟ قلتُ: لما ورد ذو الكفايتين سنة أربع وستين وهزم الأتراك مع أَفْتَكِين،[١٥٢] وكان من الحديث ما هو مشهور؛ سأل عن ابن حجاج – وكان متشوقًا له لِمَا كان يُقرَأ عليه مِن قَوافيه[١٥٣] – فأحَبَّ أن يلقاه، لأنه ليس الخبر كالمعاينة، والمسموع والمبصَر كالأنثى والذكر؛ يَنزِع كلُّ واحد منهما إلى تمامه. فلما حضره أبو عبد الله احتبَسَه للطعام، وسمع كلامَه، وشاهد سَمْتَه، واستَحلَى شمائله، فقام من مجلسه، فلما خلا به قال: يا أبا عبد الله، لقد والله تُهْتُ[١٥٤]عجبًا منك، فأما عَجَبي بك فقد تقدَّم، لقد كنتُ أَفْلِي ديوانَك فأتمنَّى لقاءك، وأقول: مَن صاحب هذا الكلام؟! أَطْيَشُ طائش، وأخفُّ خفيف، وأَغْرَم غارم، وكيف يجالَس من يكون في هذا الإهاب؟ وكيف يقارَب من ينسلخ من ملابس الكتَّاب وأصحابِ الآداب؟ حتى شاهدتُك الآن، فتهالكتُ على وقارك، وسكونِ أطرافِك، وسكوت لفظك، وتناسُبِ حركاتك، وفرطِ حيائك، وناضرِ ماءِ وجهك، وتعادُل

كُلِّكَ١٥٥ وبعضِك، وإنك لمن عجائب خلق الله وطُرَف عباده. (١٥٦) والله ما يصدِّق واحد أنك صاحب ديوانك، وأن ذلك الديوان لك، مع هذا التنافي الذي بين شِعرِك وبينَك في جِدِّك.

فقال أبو عبد الله: أيها الأستاذ، وكان عجبي منك دون عجبك مني، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجب منك. قال: لأني قلت: إذا ورد الأستاذ فسأَلقَى منه خُلُقًا جافيًا، وفظًّا١٥٧ غليظًا، وصاحب رواسير،(١٥٨)وآكِل كوامخ،(١٥٩) وجبليًّا دَيْلميًّا، متكائبًا متعاظمًا، حتى رأيتُك الآن وأنت ألطف من الهواء، وأرقُّ من الماء، وأغزَلُ من جميل(١٦٠) بن مَعْمَر، وأعذَبُ من الحياة، وأرزَن من الطَّوْد، وأغزَر من البحر، وأبهى من القمر، وأَنْدَى من الغَيث، وأشجعُ من اللَّيْث، وأَنطَق من سَحْبان، وأَنْدَى من الغَمام، وأنفَذ من السِّهام، وأكبَر من جميع الأنام.

فقال أبو الفتح وتبسَّم: هذا أيضًا من ودائع(١٦١) فضلِك، وبواعث تفضُّلك. ووَصَلَه وصرَفَه.

قال: (١٦٢) لم يكن هذا الحديث عندي.

وأما بشر بن هارون فليس من هذه الطبقة في شيء، لكنه يَقرُص فيحُزّ،(١٦٣) ويَشَمُّ فَيهُزّ، ويجرح فيُجهِز، والمَدْهُوُّون(١٦٤) منه كثير. «وأصحابنا(١٦٥) يستحسنون قول ابن الحجاج في الوزير حين يقول:

فقال: إن قبلتُ هذا منهم خفتُ أن يقال: مادح نفسه يقرئك السلام. وما أصنع بهذا البيت وهو مضموم إلى كل بيت سخيف في القصيدة؟»

ثم قال: وجب أن نصف قبل هذا عصابة العلماء، فلِم تركنا ذكرهم ونحن لا نخلو في حديثهم من غُرَّة لائحة، وفائدة نافعة، وصوابٍ زائد في العقل، وفضيلة على الأدب، وحِلمٍ يُزدان به في وقت الحاجة، وحكمةٍ يُستعان بها في داهِمَة، ورأي يكون مَقِيلًا للتمييز عند تهجيرنا به؟

قلتُ: أما أبو عبد الله الجُعَل(١٦٦) فقد شاهدتَه. قال: صدقتَ، ولكن لم أقف على مذهبه ودُخْلتِه وسيرته في اعتقاده.

قلتُ: كان الرجل ملتهب الخاطر، واسعَ أطراف الكلام، مع غثاثة اللفظ، وكان يرجع إلى قوة عجيبة في التدريس، وطول نَفَس في الإملاء، مع ضيق صدر عند لقاء الخصم ومُعارَكة القِرْن، بعيد العهد بالمِصاع والدفاع والوِقاع. وكان سببُ هذا الجبن والخَوَر قلة الضَّراوة على هذه الأحوال، ولقد خَزِي في مَشاهد عظيمة.

وأما يقينه فكان ضعيفًا، وأما سيرته فكانت واقفةً على حب الرياسة وبذل المال والجاه إذا حضرا، مع تعصب شديد لمن قدَّمه وأَحبَّه، وإنحاءٍ مفرط على من عاداه. وكان خَوضُه في الدول والولايات، ولهذا رغب عنه(١٦٧) الواسطيُّ وكان أخا ورع ودين، وقال: (١٦٨) هذا منفِّر(١٦٩)

عن الدين والمذهب، ودافعٌ(١٧٠) للناس عن القول بالحق، وطارح للشبهة في القلوب.

وكان يجهر بهذا وأشباهه، ولكن كان جاه الرجل لا يُنتقَص بهذا القدر، وركنُه لا يتخلخل على هذا الهَدِّ، لأسباب انعقدت له وأصحاب ذبُّوا عنه.

وأما ابن الملَّاح فشيخ حسن المعرفة بالمذهب، شديد التوقِّي، محمود القناعة، ظاهر الرضا، تدل(١٧١) سيرته الجميلة على أنه حَسَن العقيدة.

وأما ابن المعلِّم(١٧٢) فحَسَن اللسان والجَدَل، صبور على الخصم، كثيرُ الحيلة، ظنينُ(١٧٣) السر، جميل العلانية.

وأما أبو إسحاق النصيبي فدقيق الكلام، يَشكُّ في النبوات كلِّها، وقد سمعتُ منه فيها شُبَهًا، ولُغَته(١٧٤) معَقَّدة، وله أدب واسع. ولقد أضلَّ بهمذان كاتبَ فخر الدولة ابنَ المرزبان، وحمله على قلة الاكتراث بظلم الرعية، وأراه أنه لا حرج عليه في غَبْنِهم لأنهم بهائم. وما خرج من الجبل حتى افتُضِح.

وأما ابن خيران(١٧٥)فشيخ لا يعدو الفقه، وفيه سلامة.

وأما الدَّارَكيُّ(١٧٦) فقد اتخذ الشهادة مَكْسَبة، وهو يأكل الدنيا بالدين، ويغلب عليه اللِّواط، ولا يرجع إلى ثقة وأمانة، ولقد تهتَّك

بنيسابور قديمًا وببغداد حديثًا، هذا مع الفَدامة والوخامة. ولقد نَدَّ بجُعْلِ[١٧٧] غلام، وهو اليوم قاضي الري، وابن عبَّاد يَكنُفه ويقرِّبه ليكون داعية له ونائبًا عنه، وليس له أصل، وهو من سواد همذان، وأبوه كان فلَّاحًا. ولقد رأيتُه، إلا أنه يأتي لابن عباد في سَمْتِه ولزوم ناموسه حتى خفَّ عليه، وهو اليوم قارون. وقد علت رتبته في الكلام حتى لا مزيد عليها، إلا أنه مع ذلك نَغِل[١٧٨] الباطن، خبيث الخبء، قليل اليقين، وذلك أن الطريقة التي قد لزموها وسلكوها لا تُفْضِي بهم إلا إلى الشك والارتياب، لأن الدِّين لم يأتِ بكَمٍّ وكَيْفٍ في كلِّ باب، ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصارِ الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر، والقلبُ الخالي من الشبهة أسلم من الصدر المحشوِّ بالشك والريبة، ولم يأتِ الجَدَل بخير قط، وقد قيل: من طلب الدين بالكلام ألْحَد، ومن تتبَّع غرائب الحديث كُذِب، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر. وما شاعت هذه الوصية جُزافًا، بل بعد تجربة كرَّرها الزمان، وتطاولت عليها الأيام، يتكلم أحدهم في مائة مسألة ويورد مائة حجة ثم لا ترى عنده خشوعًا ولا رقة، ولا تقوى ولا دَمعة. وإن كثيرًا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجُّون ولا يناظِرون ولا يُكرَمون[١٧٩] ولا يفضَّلون، خيرٌ من هذه الطائفة، وألْينُ جانبًا، وأخشع قلبًا، وأتقى لله عزَّ وجلَّ، وأذكَر للمَعاد، وأيقن بالثواب والعقاب، وأقلق من الهفوة، وأَلْوَذُ[١٨٠] بالله من صغير الذنب، وأرجع إلى الله بالتوبة.

ولم أرَ متكلِّمًا في مدة عمره بكى خشية، أو دمعت عينُه خوفًا، أو أَقلع عن كبيرةٍ رغبةً، يتناظرون مستهزئين، ويتحاسدون متعصِّبين،

ويتلاقَوْن متخادعين، ويصنِّفون متحاملين. جذَّ الله عروقهم، واستأصل شأفتهم، وأراح العباد والبلاد منهم! فقد عظمت البلوى بهم، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم، ودَبَّ داؤهم، وعسر دواؤهم. وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضعًا، وساكنَه متجعجِعًا. (١٨١)

قال: فما تقول في ابن الباقلَّاني؟(١٨٢) قلتُ:

فمـا شَـرُّ(١٨٣) الثلاثـة أمَّ عمـرو بصـاحبِك الـذي لا تصـبَحِينا

يزعم أنه ينصر السنَّة ويُفحِم المعتزلة وينشر الرواية، وهو في أضعاف ذلك على مذهب الخُرَّميَّة، وطرائق الملحدة. قال: والله إن هذا لمن المصائب الكبار، والمِحَن الغلاظ، والأمراض التي ليس لها علاج.

ثم قال: إن الليل قد ولَّى، والنعاس قد طرق العين عابثًا، والرأي أن نستجمَّ لننشَط، ونستريح لنتعب، وإذا حضرتَ في الليلة القابلة أخذنا في حديث الخَلق والخُلُق إن شاء الله. وأنا أزوِّدك هذا الإعلام ليكون باعثًا لك على أخذ العَتاد بعد اختماره في صدرك، وتَحِيل الحالَ به عند خوضك وفيضك. ولا تجبنْ جبن الضعفاء، ولكن قُلْ واتَّسع مجاهرًا بما عندك، منفقًا مما معك.

وانصرفتُ.

هوامش

(١) ورد هذا الاسم في المقابسات، وكان أبو حيان يسأله في مسائل فلسفية.

(٢) يعني بعد الثلاثمائة.

(٣) الدقعاء: الأرض لا نبات بها، والتراب. وهذه العبارة كناية عن الفقر الشديد.

(٤) الخطب: الشأن.

(٥) «وشره».

(٦) «بالوصف».

(٧) «ماشق».

(٨) عنه: أي عن البلد.

(٩) اتفق إنسان: أي وجد بطريق الاتفاق، أي الصدفة.

(١٠) لعله «الجبلة».

(١١) المثالة: حسن الحال، ومنه قولهم: كلما زدت مثالة زادك الله رعالة، والرعالة: الحمق.

(١٢) «منى».

(١٣) هاتان الكلمتان لم تردا بالأصل، وقد أثبتناهما عن معجم ياقوت. وأبو الفتح هذا كان وزير المقتدر الخليفة العباسي سنة عشرين وثلاثمائة.

(١٤) انظر التعريف بأبي سعيد السيرافي في [الجزء الأول – الليلة الأولى].

(١٥) موضع هذا الاسم حروف مطموسة في الأصل، وقد أثبتناه هكذا نقلًا عن المقابسات وأخذًا من الكلام الآتي. وأبو بشر متَّى هو ابن يونس القُنَّائي، من أهل دَيْر قُنَّى. كان نصرانيًّا عالمًا بالمنطق، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في زمنه، نزل بغداد بعد سنة عشرين وثلاثمائة. وكانت وفاته في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

(١٦) «وكنت».

(١٧) «ساسان».

(١٨) «أن ينتدب».

(١٩) «جربناه».

(٢٠) في الأصل: «اللذين».

(٢١) «المطنجة».

(٢٢) في الأصل: «الجامة»، وهو تحريف. وفي معجم الأدباء، ترجمة أبي سعيد السيرافي: الجامدة، وهو تحريف أيضًا لا يستقيم به المعنى، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٢٣) المصاع: من صاع الشجاع أقرانه، إذا حمل عليهم ففرق جمعهم.

(٢٤) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل.

(٢٥) في الأصل: «والسائل» بالسين المهملة، وهو تصحيف. والشائل: المرتفع. والجانح: المائل.

(٢٦) «من دلك».

(٢٧) «إنما».

(٢٨) الشبه بالتحريك: النحاس الأصفر.

(٢٩) الكلمة التي بين مربعين عن ياقوت.

(٣٠) في الأصل: «قال»، وهو تحريف.

(٣١) هو أبو نواس. وأول البيت:

فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفة حفظت شيئًا ... ... إلخ

(٣٢) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات لأبي حيان.

(٣٣) «والاحتباس طلال العقول تحكمها».

(٣٤) «وصفه».

(٣٥) «يحث».

(٣٦) ورد في الأصل بعد قوله: «إلا» جيم وألف وذال، وهي زيادة من الناسخ، والصواب حذفها.

(٣٧) «مملوكة».

(٣٨) في الأصل: «ووريت وما حزفت»، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين. يقال: جزف فلان الشيء، أي باعه أو اشتراه جزافًا بلا كيل ولا وزن.

(٣٩) هذه الكلمة التي بين مربعين لم ترد في الأصل.

(٤٠) هذه العبارة التي بين مربعين لم ترد في الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات.

(٤١) الجدد بالتحريك: ما استوى من الأرض. وفي الأصل: «جديد»، ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق.

(٤٢) السنخ: الأصل. وقد وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط.

(٤٣) الكلمة التي بين مربعين عن معجم الأدباء.

(٤٤) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات، ص٧٣.

(٤٥) في الأصل: «اللفظ»، وهو تبديل من الناسخ لا يستقيم به المعنى.

(٤٦) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات، إذ لا يستقيم الكلام بدونها.

(٤٧) في المقابسات: «لأن النحو والمنطق.»

(٤٨) الظاهر أن في قوله «والاستخبار» تبديلًا من الناسخ صوابه «والإنباء»، بدليل قوله في التمثيل الآتي: «أو أخبر ولكن ما أنبأ.»

(٤٩) الكلمة التي بين مربعين عن معجم الأدباء.

(٥٠) «وغفلة».

(٥١) العبارة التي بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء.

(٥٢) «التجربة».

(٥٣) هذا الكلام الذي بين هذين المربعين لم يرد في الأصل، وقد أثبتناه عن المقابسات.

(٥٤) «تناطق».

(٥٥) هذه العبارة التي بين مربعين لم ترد في الأصل، وقد أثبتناها عن معجم الأدباء لياقوت والمقابسات للمؤلف.

(٥٦) في رواية أخرى: «غير المستبين»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٥٧) في الأصل: «للوما»، وما أثبتناه عن المقابسات [الجزء الأول – الليلة السادسة]، إذ به يستقيم الكلام.

(٥٨) في الأصل: «التبكيت»، وفي المصادر الأخرى: «السكت»، وفي كلا اللفظين تحريف لا يستقيم به المعنى، ولعل صوابه ما أثبتنا.

(٥٩) في الأصل والمقابسات: «متشبع»، وفي معجم ياقوت: «متشيع»، وفي كلا اللفظين تصحيف.

(٦٠) هذا الشطر من شعر رؤبة بن العجاج.

(٦١) هذا الشطر صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه:بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل.

(٦٢) في المقابسات: «في منطقك»، وهي أنسب.

(٦٣) هذه العبارة الموضوعة بين مربعين ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات وبها يستقيم المعنى.

(٦٤) هذه العبارة التي بين مربعين لم ترد في الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات.

٦٥ بلح: أعيا وعجز. وجنح: أي مال.

(٦٦) «المختلفة».

(٦٧) «ويجيد».

(٦٨) «يزن».

(٦٩) «لضده».

(٧٠) هذه العبارة التي بين مربعَين لم ترد في الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات إذ بها يستقيم الكلام.

(٧١) في المقابسات «أفضل»، والمعنى عليها يستقيم أيضًا.

(٧٢) عبارة الأصل: «فترجموا لغتهم فهما»، وهو تحريف.

(٧٣) رواية المقابسات: «ألا تعلم»، والمعنى عليه يستقيم أيضًا.

(٧٤) عبارة المقابسات: «مثال ذلك أن تقول»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٧٥) كذا في المقابسات. والذي في الأصل: «بالنقل»، وهو تحريف.

(٧٦) في الأصل: «لنضارته»، وهو تحريف.

(٧٧) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات.

(٧٨) يريد بالزرق الخداع كما يستفاد من كتب اللغة، فقد ورد في اللسان ومستدرك التاج: «رجل زراق» أي خداع. ولم يُذْكَر في هذين الكتابين فعله ولا مصدره.

(٧٩) الزيادة التي بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء.

(٨٠) كذا في المقابسات. والذي في الأصل: «تقولون»، وهو تحريف.

(٨١) في الأصل: «تذكرونه»، وما أثبتناه عن المقابسات.

(٨٢) في المقابسات: «وتدعون»، والمعنى يستقيم عليه أيضًا.

(٨٣) في الأصل: «قولكم»، وهو تحريف.

(٨٤) الهلية والأينية: نسبة إلى «هل» و«أين» الاستفهاميتَين، والنسبة في الألفاظ التي بعدهما معروفة.

(٨٥) الأيسية والليسية: الإثبات والنفي.

(٨٦) في المقابسات: «يتمطون»، أي بتشديد الطاء.

(٨٧) كذا في الأصل، ولعل صحة العبارة: لا «أ» في شيء من «ب» و«ج» في بعض «ب» ف «أ» إذن لا في «ج»، و«أ» لا في كل «ب» و«ج» في بعض «ب» ف «أ» إذن ليس في «ج»، كما يقتضيه علم المنطق.

(٨٨) العبارة التي بين مربعين عن المقابسات.

(٨٩) في الأصل: «زدتكم»، والكاف زيادة من الناسخ.

(٩٠) «عليه».

(٩١) «ما يكون».

(٩٢) في معجم الأدباء: «وسدد».

(٩٣) «ما هو له».

(٩٤) التكملة التي بين مربعين لم ترد في الأصل، وقد أثبتناها عن المقابسات.

(٩٥) «تتقلمش».

(٩٦) كذا في المقابسات. والذي في الأصل: «على من حضرته»، وهو تحريف لا يستقيم به معنى الجملة.

(٩٧) في المقابسات «بهذا».

(٩٨) في الأصل: «يقولون»، والواو والنون زيادة من الناسخ.

(٩٩) في الأصل: «عدم»، وفي بعض المصادر الأخرى: «عدة»، وهي غير واضحة المعنى في كلتا الروايتين. ولعلَّ الصواب ما أثبتنا.

(١٠٠) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل.

(١٠١) في الأصل: «استقصائك»، وهو تحريف.

(١٠٢) في الأصل: «علي بن عيسى»، وهو خطأ من الناسخ.

(١٠٣) اللهازم: جمع لهزمة بكسر اللام، وهي مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن، أو هي العظم الناتئ في اللحية تحت الأذن، وهما لهزمتان. ويريد هنا الشعر النابت عليهما.

(١٠٤) أبو علي الفسوي هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي النحوي، وُلِد بمدينة فسا سنة ثمانٍ وثمانين ومائتين، وكان إمام وقته في علم النحو وله فيه كثير من المؤلفات الوافية النافعة، وتُوفِّي في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة.

(١٠٥) يريد الوزير أبا عبد الله العارض.

(١٠٦) أي وثلاثمائة.

(١٠٧) يريد أبا علي الفسويَّ السابق ذكره.

(١٠٨) يريد بالكتاب كتاب سيبويه.

(١٠٩) يريد بالكتاب كتاب سيبويه، يقول إنه اقتصر على دراسته على الطريقة المعروفة.

(١١٠) الندامة: أي المنادمة على الشراب، بدليل ما يأتي بعد [أسطر].

(١١١) الرباني: المتألِّه العارف بالله. وفي الأصل: «الدَّيَّانِين»، ولم نجده في كتب اللغة بهذا المعنى.

(١١٢) يتأله: أي يتعبد ويتنسَّك.

(١١٣) مجمجم: من جمجم الكلام في نفسه إذا لم يبينه، يريد به المستتر الخافي.

(١١٤) كذا في معجم الأدباء لياقوت، ج٨، ص١٨٣، طبع الحلبي. والذي في الأصل: البقري، وهو تحريف.

(١١٥) «معد».

(١١٦) كذا في معجم الأدباء لياقوت، ج٨، ص١٨٣، طبع الحلبي. والذي في الأصل: «فبان».

(١١٧) في معجم الأدباء: «لمأثورة».

(١١٨) مستخرج الأموال: أي جابيها ومحصِّلها. والجهبذ: الناقد العارف بالجيد والرديء.

(١١٩) يريد بعلي بن عيسى أبا الحسن الرُّمَّاني، وهو إمام في العربية، كان علَّامة في الأدب، إمامًا في النحو، بصيرًا بالمقالات، معتزليًّا. مات سنة ٣٨٤.

(١٢٠) ابن المراغي هو أبو الفتح محمد بن جعفر الهمداني، وكان معلمًا في دولة أبي منصور، وكان حافظًا نحويًّا بليغًا أخباريًّا في نهاية الشرف والحرية. وله من الكتب كتاب البهجة على مثال كتاب الكامل.

(١٢١) بلل الريق: كناية عن الاتساع في الكلام.

(١٢٢) «نحل ... إلخ»: أي أضاف إليه من الفضائل أكثر مما أبذُل في وصفه.

(١٢٣) المرزباني هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، أصله من خراسان، كان من الأدباء الأخباريين المصنِّفين، وله كتب كثيرة في الأدب والتاريخ عدَّها صاحب الفهرست وقال: إنه كان صادق اللهجة، واسع المعرفة بالروايات، كثير السماع. ومات سنة ٣٧٨.

(١٢٤) ابن حيويه هو محمد بن حيويه بن المؤمل، عالم نحوي، من أهل همذان. مات سنة ٣٧٣.

(١٢٥) لم ترد هذه الكلمة في الأصل.

(١٢٦) على دحض: أي على مزلقة ومزلَّة للأقدام.

(١٢٧) السلامي: من أشعر أهل العراق، عربي الأصل من بني مخزوم، وُلِد بكرخ بغداد سنة ٣٣٦، واتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهي ومدحهما، وقد روى له صاحب اليتيمة كثيرًا من شعره. مات سنة ٣٩٤.

(١٢٨) ليطة بالقلب: أي التصاق به وتعلق.

(١٢٩) هو محمد بن الحسين الحاتمي، مدح الخليفة القادر بالله، وله الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ما جرى بينه وبين المتنبي. مات سنة ٣٨٨.

(١٣٠) عبارة الأصل: «على تشابه بينهما في الهوة وقلة السياسة والبعد من الشكوك»، وفي هذا الكلام تحريف لا يستقيم به المعنى في ثلاثة ألفاظ. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(١٣١) خمر: أي أصيب بالخمار، وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر. والكلام هنا على طريق الاستعارة.

(١٣٢) سدر: تحير، أو لم يبالِ ما صنع ولم يهتمَّ، وكلا التفسيرين يستقيم به المعنى.

(١٣٣) في الأصل: «ابن الحليات»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا. وهو أبو القاسم علي بن جلبات، ذكره صاحب اليتيمة في الجزء الثاني، ص٢٧٠، وروى شيئًا من شعره.

(١٣٤) في الأصل: «الرزق»، وهو تحريف. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا، فإنه بصدد الكلام في الشعر لا في الرزق. والزوق بالتحريك: جمع زاووق، وهو ما يحسَّن به الشيء ويزيَّن، والمراد هنا ما يحسَّن به الشعر تحسينًا ظاهريًّا، والزاووق في الأصل: الزئبق، وكان يدخل في التصاوير، ولذلك قالوا لكل مزيَّن مزوَّق.

(١٣٥) الرشاء: الحبل الذي يُستقَى به. والمراد هنا قِصر باعه في الشعر وقصورُه عن الإطالة.

(١٣٦) الغثاء في الأصل: البالي من ورق الشجر المخالط زَبَد السيل. ويريد به هنا ما لا فائدة فيه، ولا يُعْتَدُّ به.

(١٣٧) النفاق بفتح النون: الرواج، ونفَّقه بتشديد الفاء: روَّجه. والمراد رواج شعره وانتشاره بين الناس. وعبارة الأصل: «عزَّه بفاقة وتفقه بفاقة»، وفي كلتا

الجملتين تصحيف، هذا إلى أنهما على هذا الوضع لا يستقيم بهما السجع الذي يريده المؤلف كما يظهر.

(١٣٨) هو أبو علي الحسن بن علي الخالع، شاعر من شعراء الوزير أبي نصر سابور بن أزدشير، وهو من شعراء اليتيمة.

(١٣٩) في الأصل: «مستوسق»، وهو تحريف. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد: «متشابه ... إلخ.»

(١٤٠) انظر التعريف به في [الجزء الأول – الليلة الثانية – حاشية رقم ٢٥].

(١٤١) متح الدلو ومتح بها: استخرجها من البئر عند الاستقاء، وأماه الحافر إماهة: بلغ الماء واستخرجه من الأرض. والكلام كله جارٍ على طريق الاستعارة، يشير بهذه العبارة والتي قبلها إلى أنه يقدم ما حقه التأخير والعكس.

(١٤٢) شدا شدوًا: أخذ طرفًا من العلم والأدب.

(١٤٣) التأتي: التلطف.

(١٤٤) الندامة بكسر النون: حرفة المنادمة على الشراب.

(١٤٥) «وثيقة».

(١٤٦) حائل العقل: أي متغير متحول من الاستواء إلى العوج.

(١٤٧) ابن نباتة السعدي هو عبد العزيز بن محمد بن نباتة، من شعراء سيف الدولة بن حمدان، واتصل كذلك بابن العميد ومدحه. وُلِد سنة ٣٢٧، ومات ببغداد سنة ٤٠٥.

(١٤٨) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج، شاعر ماجن في شعره، مشهور، اتصل بالوزير المهلبي وسابور بن أزدشير وعضد الدولة وابن عباد وابن العميد. لشعره منتخبات في اليتيمة وفي المتحف البريطاني وفي مكتبة باريس. وقد مات سنة ٣٩١.

(١٤٩) «مثال».

(١٥٠) «عرصته».

(١٥١) الغرامة: الخسران.

(١٥٢) في الأصل: «الوركين»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن الكامل لابن الأثير وغيره.

(١٥٣) في الأصل: «من فيه»، بسقوط القاف والواو والألف، ولعل الصواب ما أثبتنا إذ به يستقيم الكلام.

(١٥٤) تهت: أي تحيرت.

(١٥٥) في الأصل: «نجلك»، وهو تحريف.

(١٥٦) في الأصل من هذه الكلمة العين والباء، ورُسِمت الهاء بعيدة عنها.

(١٥٧) «وعفطا».

(١٥٨) في الأصل: «رواصير».

(١٥٩) الكوامخ: جمع كامخ بفتح الميم، وهو إدام يُؤتدَم به يقال له: المُرِّيُّ، ويقال: هو الرديء منه، وقيل: هو خبز بخلٍّ، معرَّب «كامه» بالفارسية. وخصه بعضهم بالمخللات التي تُستعمل لتشهِّي الطعام.

(١٦٠) جميل بن معمر هو المعروف بجميل بثينة العذري.

(١٦١) من ودائع فضلك: أي من فضلك الذي تودعه لدينا فنحفظه لك ونؤديه إليك جزاءً وفاقًا.

(١٦٢) «قال»: أي الوزير أبو عبد الله العارض.

(١٦٣) في الأصل: «يقرض فيخر»، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين. ويريد بهذه العبارة والعبارتين اللتين بعدها أن أثره بالغ غايته في الهجاء.

(١٦٤) المدهوون: أي المبتلون بالدواهي منه.

(١٦٥) الظاهر أن هذا الكلام الذي بين هاتين العلامتين مؤخَّر عن موضعه، وموضعه الكلام في ابن حجاج السابق ذكره، إذ لا مناسبة بينه وبين ما هنا.

(١٦٦) في الأصل «جفل»، ولعل صوابه ما أثبتنا. والجعل هو أبو عبد الله الحسين بن علي، أصله من البصرة وبها وُلِد سنة ٣٠٨، وانتهت إليه الرياسة في علم الكلام في عصره، وكان كذلك فقيهًا، وله كتب في الكلام وكتب في الفقه، من أشهر كتبه في الكلام كتاب نقض كلام الراوندي ونقض كلام الرازي. مات ببغداد سنة ٣٩٩.

(١٦٧) «فيه».

(١٦٨) «وقال»: أي الواسطي.

(١٦٩) «منقر».

(١٧٠) «ونافع».

(١٧١) «يذل».

(١٧٢) ابن المعلم هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، انتهت إليه رياسة الشيعة الإمامية في الفقه والكلام والآثار، وُلِد سنة ٣٣٨.

(١٧٣) ظنين: أي متهم.

(١٧٤) «ولقبه».

(١٧٥) هو أبو علي الحسين بن صالح بن خيران، أحد فقهاء عصره، ألَّف في الفقه كتاب «اللطيف» وكتاب «المقدمات».

(١٧٦) لعله يريد أبا القاسم الداركي — نسبةً إلى دارك قرية في أصفهان — أحد فقهاء الشافعية، وهو بغدادي، أقام بنيسابور مدة، وانتهى التدريس إليه ببغداد، وأخذ عنه عامة شيوخها. مات سنة ٣٧٥.

(١٧٧) في الأصل: «تدر»، ولعل صوابه ما أثبتنا. وند: هرب.

(١٧٨) «ثعل» والنغل: الفاسد السيئ.

(١٧٩) «يلزمون ولا يتفضلون».

(١٨٠) هذه الكلمة مطموسة بالأصل.

(١٨١) متجعجعًا: أي ضاربًا بنفسه الأرض من وجع.

(١٨٢) ابن الباقلاني هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، أحد أعلام المتكلمين، ومن أكبر أنصار مذهب الأشعري، ومؤلف كتاب «إعجاز القرآن». مات سنة ٤٠٣.

(١٨٣) البيت لعمرو بن كلثوم، وهو هنا على طريق المثل.

الليلة التاسعة

وعُدتُ ليلة أخرى فقال: فاتحةُ الحديث معك، فهاتِ ما عندك.

فكان من الجواب أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلِفةٌ في نوع الإنسان، وذلك أن الإنسان صفوُ الجنس الذي هو الحيوان، والحيوان كَدَر النوعِ الذي هو الإنسان، والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوعِ، وما كان صفوًا ومُصاصًا[1] بهذا النظر انتظم فيه من كل ضرب من الحيوان خُلُق وخُلُقان وأكثر، وظهر ذلك عليه وبطن[2] أيضًا بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف، كالكُمُون الذي في طباع السبع والفأرة، والثباتِ الذي في طباع الذئب، والتحرُّز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل، والحذر الذي في طباع الخنزير، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تمثُّلًا بصاحب المقدِّمة.

وكذلك ضد ذلك في الخنزير تمثُّلًا بصاحب الساقة، وكالحراسة التي في طباع الكلب، وكأَوْبِ الطير إلى أوكارها التي تراها كالمعاقل وغيرِها بالدَّغَل[3] والأشَبِ والغِياض.

ولهذا قال بعض الحكماء: خذ من الخنزير بُكورَه في الحوائج، ومن الكلب نُصحَه لأهله، ومن الهرَّة لطفَ نَفْسها عند المسألة.

وقالت التُّرْك: ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان: سخاء الديك، وتحنُّن الدجاجة، ونجدة الأسد، وحَملة

الخنزير، ورَوَغان الثعلب، وصبرُ الكلب، وحراسةُ الكرْكِيِّ، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وسِمَن بعروا،[٣] وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء.

ولما وُهِب الإنسان الفطرة،[٥] وأُعِين بالفكرة، ورُفِد بالعقل؛ جمع هذه الخصال وما هو أكثر منها لنفسه وفي نفسه، وبسبب هذه المزية الظاهرة فَضَل جميع الحيوان حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير[٦] والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراكِ الحاجات بها، وهذه المزية التي له مستفادة بالعقل، لأن العقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصناعات، والفكرُ بينهما مستملٍ منهما ومؤدٍّ بعضها إلى بعض بالفيض الإمكاني والتوزيع الإنساني، فصوابُ بديهة الفكرة من سلامة العقل، وصوابُ رويَّة الفكرة من صحة الطباع، وصحةُ الطباع من موافقة المزاج، وموافقة المزاج بالمَدَد٧ الاتفاقي والاتفاقِ الغيبي، أعني بهذا أن وجه الحادث المجهول عندنا اتفاق، ووجه الحادث المعلوم عند الله عزَّ وجلَّ غيب، فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق، ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب.

فانقسمت الأحداث [بين ما هو] [٨] على جَديلة[٩] واحدة معروفة وبين نادر لا يدوم العهد به، فدلَّ ما ظهر واستمرَّ على ما جاد به ووَهَب، ودلَّ ما غاب واستتر على ما تَفرَّد به وغَلَب.

ولما كان الحيوان كلُّه يعمل صنائعَه بالإلهام على وتيرة قائمة، وكان الإنسان يتصرف فيها بالاختيار؛ صحَّ[١٠] له من الإلهام نصيب حتى

يكون رِفْدًا له في اختياره. وكذلك يكون النحل أيضًا، صحَّ له من الاختيار قسط في إلهامه حتى يكون ذلك مُعِينًا له في اضطراره، إلا أن نصيب الإنسان من الإلهام أقل كما أن قسط سائر الحيوان من الاختيار أَنْزَر. [١١] وثمرة اختيار الإنسان إذا كان مُعانًا بالإلهام أشرف وأَدْوَم وأَجْدَى[١٢] وأنفع وأبقى وأرفع من ثمرة غيره من الحيوان إذا كان مرفودًا بالاختيار، لأن قوة الاختيار في الحيوان كالحُلم كما أن قوة الإلهام في الإنسان كالظلّ.

ومراتب الإنسان في العلم ثلاث تظهر في ثلاثة أنفس: فأحدهم مُلْهَم فيتعلَّم[١٣] ويعمل، ويصير مبدأً للمقتبِسِين منه، المقتدِين به، الآخذين عنه، الحاذِين على مثاله، المارِّين على غِراره، القَافِين على آثاره. وواحد يتعلم ولا يُلْهَم، فهو يماثل الأوَّل في الدرجة الثانية، أعني التعلُّم. وواحد يتعلَّم ويُلْهَم، فتجتمع له هاتان الخَلَّتان فيصير بقليل ما يَتعلَّم مُكثِرًا للعمل والعلمِ بقوة ما يُلْهَم، ويعود بكثرة ما يُلْهَم مصفِّيًا لكل ما يتعلم ويعمل.

والكلام في هذه المواضع ربَّما جَمَح فلم يمكن كفُّه، فينبغي أن يضح العذر إذا عرض تفاوُتٌ في الترتيب، ودخل الخَلَل من ناحية التقريب.

وقال أبو سليمان لنا في هذه الأيام: [الإنسان] [١٤] بين طبيعته وهي عليه وبين نفسِه وهي له كالمنتهَب المتوزَّع، فإن استمد من العقل

نورَه وشعاعَه قَوِيَ ما هو له من النفس وضَعُف ما هو عليه من الطبيعة، [وإلَّا فقد قَوِيَ ما هو عليه(١٥) من الطبيعة] وضَعُف ما هو له من النفس.

وحكى لنا فقال: كان للحكماء الأَوَّلِين مَثَلٌ يضربونه ويكتبونه في هياكلهم ومتعبَّداتهم وهو: «المَلَك الموكَّل بالدنيا يقول: إن ها هنا خيرًا وها هنا شرًّا وها هنا ما ليس بخير ولا شر، فمن عرف هذه الثلاثة حقَّ معرفتِها تخلَّص منِّي، ونجا سليمًا، وبقي كريمًا، وملك نعيمًا عظيمًا.

ومن لم يعرفها قتَلْتُه شرَّ قِتلة، وذلك أني لا أقتله قتلًا وَحِيًّا(١٦) يستريح به مني، ولكن أقتله أولًا فأولًا في زمان طويل، بحَسَرات على فَوْتِ مأمول بعد مأمول، وبلايا يكون بها كالمغلول المكبول.

قال: (١٧) هذا كلام شريف في أعلى ذروة الحكمة، لكنك خَلَّيْتَ يدك من طُرَف الحديث في الخُلُق. قلتُ: إذا طاب الحديث باسترسال السجيَّة ووقوع الطُّمأنينة لَهَا الإنسانُ عن مباديه، وسال مع الخاطر الذي يستهويه، ولِتحفُّظ الإنسان في قوله وعمله من الخَطَل والزَّلَل حَدٌّ إذا بلغه كَلَّ الخاطر واختلَّ.

ثم نعود فنقول: أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث؛ أعني النفسَ الناطقة، والنفسَ الغضبيَّة، والنفسَ الشهوانيَّة. وسماتُ هذه الأخلاق مختلِفة بعَرْض واسع.

ويمكن أن يقال في نعتها على مذهب التقريب: إنها بين المحمودة وبين المذمومة، وبين المشوبة بالحمد والذم، وبين الخارجة منهما. فمن أخلاق النفس الناطقة – إذا صَفَت[١٨] – البحث عن الإنسان ثم عن العالَم، لأنه إذا عَرف الإنسانَ فقد عَرف العالَم الصغير، وإذا عَرف العالَم فقد عَرف الإنسانَ الكبير، وإذا عَرَف العالَمَيْن عرف الإله الذي بجُودِه وُجِد ما وُجِد، وبقدرته ثَبَت ما ثَبَت، وبحكمته ترتَّب ما ترتَّب، وبمجموع هذا كلِّه دام ما دام.

بهذا البحث يتبيَّن له ما تشتمل عليه القوة الغضبية والقوة الشهوية، فإن توابع هاتين القوَّتَين أكثر لأنهما بالتركيب أظهر، وفي[١٩] الكثرة أَدْخَل، وعن الوحدة أَخْرَج، فإذا ساسَتْهما الناطقة حَذَفتْ زوائدهما، ونَفَتْ فواضِلَهما، ووَفَّتْ نواقصهما، وذَيَّلت قَوالِصَهما؛[٢٠] أعني إذا رأت غُلْمةً في الشهوية أَخمدتْ نارَها، وإذا وجدت السَّرَفَ[٢١] في الغضبيَّة قصَّرت عِنانها. [٢٢] فحينئذٍ يقومان على الصراط المستقيم، فيعود السَّفَه حِلْمًا أو تحالُمًا، والحسد غِبْطةً أو تغابُطًا، والغضبُ كظْمًا أو تكاظُمًا، والغيُّ رشدًا أو تَراشُدًا، والطيشُ أناةً أو تآنيًا،[٢٣]وصَرَّفتْ هذه الكوامنَ في المَكامن – إذا سارت سَوْرَتُها، وثارت ثَوْرَتُها –على مناهج الصواب، تارةً بالعظة واللُّطف، وتارةً بالزجر والعنف، وتارةً بالأَنَفة وكِبر النفس، وتارةً بإشعار[٢٤]الحذر، وتارةً بعلوِّ الهمة. وهناك يصير العفو عند القادر ألذَّ من الانتقام، والعفافُ عند الهائج ألذَّ من قضاء الوطر، والقناعةُ عند المحتاج أشرفَ من الإسفاف، والصداقةُ عند الموتور آثرَ من العداوة، والمداراةُ عند المُحْفَظ[٢٥] أطيبَ من المماراة.

وفي الجملة، الخُلُق الحَسَن[٢٦] مشتقٌّ من الخَلْق، فكما لا سبيل إلى تبديل الخَلْق كذلك لا قدرة على تحويل الخُلُق. لكنَّ الحضَّ[٢٧] على إصلاح الخُلُق وتهذيب النفس لم يقع من الحكماء بالعَبَث والتجزيف، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة. ومثالُه أن الحبشيَّ يتدلَّك بالماء والغَسُول لا ليستفيد[٢٨] بياضًا، ولكن ليستفيد نقاءً شبيهًا[٢٩] بالبياض. ويقال للمِهْذار: «اكفُفْ»، لا ليكفَّ[٣٠] عن النطق ولكن ليؤْثِر الصمت.

ويقال للمَوْتُور: «لا تحقد» لا ليزول عنه ما حَنِق[٣١] عليه، ولكن ليتكلَّف الصبر ويتناسى الجزاء على هذا أبدًا.

وقد تقرر بالحكمة الباحثة عن الإنسان وطرائق ما به وفيه أن أحواله مختلفة، أعني أن كل ما يدور عليه ويحور إليه[٣٢] مقابل بالضدِّ[٣٣] أو شبيهٍ بالضدِّ كالحياة والموت، والنوم واليقظة، والحَسن والقبيح، والصواب والخطأ، والخير والشر، والرجاء والخوف، والعدل والجور، والشجاعة والجُبْن، والسخاء والبخل، والحلم والسَّفَه، والطَّيْش والوقار، والعلم والجهل، والمعرفة والنكرة، والعقل والحُمْق، والصحة والمرض، والاعتدال والانحراف، والعفَّة والفجور، والتنبه والغفلة، والذِّكر والنسيان، والذكاء والبلادة، والغبطة والحسادة، والدماثة والكزَازَة،[٣٤] والحق والباطل، والغيِّ والرُّشْد، والبيان والحَصَر، والثقة والارتياب، والطمأنينة والتُّهَمة، والحركة والسكون، والشك واليقين، والخلاعة والوقار، والتوقِّي والتهوُّر، والإلْف والمَلَل، والصدق والكذب، والإخلاص والنفاق،

والإحسان والإساءة، والنصح والغش، والمدح والذم ... وعلى هذا الجرُّ والسَّحْب،[٣٥] ولعل هذه الصفات بلا آخر ولا انقطاع.

فمما ينبغي أن يُعنَى الإنسانُ المحبُّ للتبصرة، المؤْثِر للتذكرة، الجامع للنافع له، النافي[٣٦] للضارِّ به في هذه الأحوال التي وصفناها بأسمائها معرَّفةً – ما استطاع – باجتلاب[٣٧] محمودها، واجتناب مذمومها، وتمييزه مما يكمن[٣٨] فيه أو تقليله، أو إطفاءِ جمرته، أو اجتناء ثمرته. والطريق إلى هذا التمييز واضح قريب، كأن[٣٩] تنظر إلى الحياة والموت فتعلم أن هذين ليسا من الأخلاق ولا مما يُعالَج بالاجتهاد، وإلى النوم واليقظة فتعلم أنهما ضروريان للبدن من وجه وغيرُ ضروريَّيْن من وجه، فتَنفي[٤٠] منهما ما خرج عن حد الضرورة، وتُسلِم البدن ما دخل في حد الضرورة. ولا يكثرنَّ[٤١] الإنسانُ نومَه ولا سهرَه، ولكن يطلب العدل بينهما بقدر جهده.

فأما الحَسن والقبيح فلا بدَّ له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور[٤٢] فيرى القبيحَ حسنًا والحسنَ قبيحًا، فيأتي القبيحَ على أنه حَسن، ويَرفُض الحَسن على أنه قبيح. ومَناشئ الحَسن والقبيح كثيرة: منها طبيعي، ومنها بالعادة، ومنها بالشرع، ومنها بالعقل، ومنها بالشهوة، فإذا اعتبر هذه المناشئ صدَّق الصادق منها وكذَّب الكاذب، وكان استحسانُه على قَدْر ذلك. ومثال ذلك الكِبْر، فإنه مَعِيب بالنظر الأول، لكنه حَسنٌ في موضعه بالعلة[٤٣] الداعية إليه، والحال الموجبةِ له.

وأما الصواب والخطأ فأمران عارضان للأقوال والأفعال والآراء وليسا بخُلُقَين مَحْضَين، ولكنهما موكولان إلى نور العقل فما أشرَق[٤٤] عليه العقل بنوره فهو صواب، وما أَفَل[٤٥] عنه العقل بنوره فهو خطأ.

وأما الخير والشر فهما في العموم والشمول ليسا بدون الصواب والخطأ لهما مناط بكلِّ شيء، ويَغلِبان على الأفعال، وإن كان أحدُهما عَدَمًا للآخَر.

وأما الرجاء والخوف فهما عَرَضان للقلب بأسباب بادية وخافية، ولا يدخلان في باب الخُلُق من كل وجه، [ولا يخرجان أيضًا بكل وجه]، وهما كالعِمادَيْن للإنسان قد استُصلِح لهما، ورُبِط قِوامُه بغلبتهما وضَعْفِهما.

وأما العدل والجَوْر فقد يكونان خُلُقَين بالفِطْرة، ويكونان فِعْلين بالفكرة، وجانباهما بالفعل[٤٦] ألصق، وإلى الاكتساب أقرب.

وأما الشجاعة والجبن فهما خُلُقان متصلان بالخَلْق، ولهذا يعِزُّ على الشجاع أن يتحول جبانًا، ويتعذر على الجبان أن يصير شجاعًا، وكذلك طرفاهما داخلان في الخُلُق أعني التهوُّرَ والتوقِّي. [٤٧]

وأما السخاء والبخل فهما خُلُقان محضان أو قريبان من المَحْض، ولهذا تعلَّق الحمد والذم بهما وبأصحابهما، والمدح والهَجْو سَرَيا[٤٨] إليهما واتَّصلا بهما. وقد يندم السخيُّ على بذله كثيرًا خوفًا من الإملاق،

فلا يستطيع ذلك إذا أخذتْه الأَرْيَحيَّة، وحرَّكته اللَّوْذَعِيَّة. وقد يلوم البخيل نفسه كثيرًا إذا سَلَقته الألسنة الحداد، وجُبِه[٤٩] بالتوبيخ، وشمخ[٥٠] عند رؤيته الأنفُ، وغُضِّن[٥١] الجبين وأُولِمَ[٥٢] بالعذل وقوبل، ومع ذلك فلا يَرْشَح إلا على بطء وكُلْفة وتضجُّر. والكلام في هذين الخُلُقَين طويل، لأنهما أدخل في تلاقي الناس وتعاطيهم في عِشرتهم ومعاملتهم.

وأما الحِلم والسَّفه فهما أيضًا خُلُقان، والأخلاق تابعة للمزاج في الأصل، ولذلك قلنا: إن الخُلُق ابن الخَلْق، والولد شبيهٌ بوالده. وفي الجملة، كل ما يمكن أن يقال فيه للإنسان: «لا تفعل هذا» و«أقلل من هذا وكُفَّ عنه»، فإنه في باب الأفعال أَدْخَل، وكل ما لم يَجُزْ أن يقال ذلك فيه فهو في باب الأخلاق أدخل، ثم لبعض هذا نسبة إلى الخُلُق أو الخَلْق، إما ظاهرة غالبة وإما خفية ضعيفة.

وأما الطَّيْش والوقار فهما يختلطان بالحلم والسَّفَه ويجريان معهما، فليس ينبغي أن يُنْشَر الكلامُ ويطول الشرح.

وأما الجهل والعلم فليسا[٥٣] من الأخلاق ولا من الخَلْق، وإنما[٥٤] يُبْرِزان من صاحب الأخلاق والخَلْق للمزاج أثرَين قويَّيْن[٥٥] واحدهما عَدَم والآخر وجدان، والعدم[٥٦] لا يكون أعدمَ من عدم، والوِجدان يكون أبينَ من وجدان.

وأما المعرفة والنكرة فهما في جوار العلم وضده، ولكنهما أعلق بالحِسِّ وألصق بالنفسَيْن، أي الشَّهْوِيَّة والغضبيَّة.

وأما العقل والحُمق فليسا من الخُلُق، والكلام في تفسير العقل مشهور،[٥٧] وعدمه الحمق.

وأما الصحة والمرض فليسا أيضًا من الأخلاق، ولكنهما يوجدان في الإنسان بواسطة النفس إما في البدن وإما في العقل، ولذلك يقال «أمراض البدن وأمراض النفس» [و«صحة البدن] [٥٨] وصحة النفس».

وأما الاعتدال والانحراف فهما يدخلان في الخُلُق بوجه، ويخلصان منه بوجه، ويعمَّان أعراض البدن وأعراضَ النفس ويُوصَف بهما الإنسان. على أن الانحراف المطلَق لا يوجد والاعتدال المطلق لا يوجد، ولكنْ كلاهما بالإضافة.

وأما العفة والفجور فخُلُقان لهما جَمْرة[٥٩] وهُمُود، والحاجة تمسُّ إلى العدل في استعمال العفة ونَفي[٦٠] الفجور، وإذا قويت العفة حالت عصمة، وإذا غلب الفجور صار عدوانًا.

وأما التنبُّه والغفلة فقريبان من الخُلُق ويغلبان على الإنسان، إلا أن فرط التنبُّه موصولٌ بالوَحْي، وفرطَ الغفلة موصول بالبهيمية.

وأما الذكر والنسيان فليسا بخُلُقين محضَين، ومنشؤهما بالمِزاج، وأحدهما من علائق النفس العالمة، والآخر من علائق النفس البهيمية.

[وأما الذكاء والبلادة] [٦١] فهما خُلُقان، ونعتهما كنعت الذِّكر والنسيان، إلا أن هذين[٦٢] يَعرضان في الحين[٦٣] بعد الحين، والأخريان[٦٤] كالراسخَين في الطينة.

وأما الغِبطة والحسد فخلقان رُسِم الأول منهما بأن تتمنى لنفسك ما أُوتِيَه صاحبُك [ورُسِم الثاني بأن تتمنى زوال ما أُوتِيَه صاحبُك] [٦٥] وإن لم يصل إليك. ورسوم هذه الأخلاق أسهل من تحديدها، لكنَّا تركنا ذلك لأن الكلام الذي كان يجري هو على مذهب الخدمة.

على أن مراتب هذه الأخلاق مختلفة فيبعد أن يعمَّها حد واحد، وإنما اختلفت منازلها لأنها[٦٦] تارة تصفو بقوة النفس الناطقة، وتارة تكدر بالقوَّتَين الأُخْرَيَيْن، ولبعضها حِدَّة بالزيادة ولبعضها كَلَّة بالنقص، فلم يكن التحديد يُفَصِّل[٦٧] كلَّ ذاك، فلم نعرج[٦٨] على شيء عجزْنا عنه قبل أخذنا فيه. ونُتِمُّ بقية ما عَلِق بهذه الجملة فنقول:

وأما الدماثة والكَزَازة فخلُقان محضان تابعان للمزاج، ثم المِران يزيدهما قوَّة وضعفًا. وهما للنعت أقرب كالسهولة والعسر، ولذلك يقال: «ما أَدْمَثَ هذه الأرض!» أي ما أرخاها وألْيَنها! وفي المَثَل: «دَمِّثْ لجَنْبِك قبل النوم[٦٩] مضطجَعًا.»

وأما الحق والباطل فليسا من الخُلُق ولا الخَلْق في شيء، وهما من نتائج المعرفة والنكرة، لأنك تعرف الحق وتنكر الباطل، وذلك لأغراض تتبعهما ولواحقَ تلتبس بهما.

وأما الغَيُّ والرُّشْد فليسا من الخُلُق، لكنهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة، وللرأي والعقل(٧٠) فيهما مدخل قويٌّ وحظٌّ تامٌّ.

وأما البيان والحَصَر فليس بينهما وبين الخُلُق عَلاقة وإنما يتبعان المِزاج، ويزيد فيهما وينقص الجهدُ والتواني والطلب والقُصور.

وأما الثقة والارتياب فخُلُقان يغلبان، ينفعان ويضرَّان، ويُحمدان ويُذَمَّان، ألا ترى(٧١) أنه يقال: لا تثق بكل أحد، «ولا تَرْتَبْ بكلِّ إنسان»، وهكذا الطمأنينة والتُّهَمَة لأنهما في طيِّهما.

وأما الحركة والسكون فليسا(٧٢) من حديث الخُلُق في شيء، لأنهما عامَّان(٧٣) لجميع الأحوال سواء كان العمل مباشرًا أم كان معتقَدًا. وفي الحركة والسكون كلامٌ واسع، وذلك أن ها هنا حركةً إلهيةً، وحركةً عقلية، وحركةً نفسية، وحركةً طبيعية، وحركة بدنية، وحركة فلكيَّة، وحركة كوكبيَّة، وحركةً كأنها سكون، فأما السكون فهو ضرب واحد، لأنه في مقابلة كلِّ حركة ذكرناها. فإذا اعتُبِرتْ هذه المقابلةُ في كلِّ مقابَل لُحِظ الانقسام في السكون، كما وُجِد الانقسام في الحركة.

والحركة أوضح برهان على كلِّ موجود حِسِّيٍّ، والسكونُ أقوى دليل على كلِّ موجودٍ عقليٍّ. وهذا القدر كافٍ في هذا الموضع.

وأما الشك واليقين فمن علائق النفس الناطقة، ولهذا لا يقال في الحيوان الذي لا ينطق: له يقين وشك.

وأما الخلاعة والوقار فقد تقدم البحث عنهما. (٧٤)

وأما التوقِّي والتهوُّر فهما خُلُقان في جميع الحيوان، ويَغلبان على نوع الإنسان، لأن العقل يُبطل(٧٥) أحدهما،(٧٦) والحسَّ(٧٧) يَغلب الآخَر. (٧٨)

وأما الإلف والمَلَل فخُلُقان محضان، يُذَمَّان ويُحْمَدان على قدر المألوف والمملول، وإن كان جَرَيان العادة قد وفَّر الحمدَ على الإلف والذمَّ على الملل.

وقد مُدِح زيد فقيل: هو أَلُوف. وذُمَّ عمرٌو فقيل: هو مَلُول.

وأما الصدق والكذب فمن علائق النفس الناقصة والكاملة، وقد يكونان(٧٩) [راسخَين] (٨٠) فيُلحَقان بالخُلُق. إلا أن الصدق ممدوح، والكذبَ مذموم، هذا في النظر الأول، وقد يَعرِض ما يوجب المصير إلى الكذب ليُنجى به، فهما إذن بعد الحقيقة الأولى وقفٌ على الإضافة، وقد وجدنا مَن كَذَب لينتفع ولم نجد مَن صَدَق ليكتسب الضرر.

وأما الإخلاص والنفاق فهما يُلْحَقان بالخُلُق، ولكنهما يَصدُران عن عقيدة القلب وضمير النفس.

وأما الإحسان والإساءة فهما يعمَّان الأفعال والأقوال، فإذا رَسَخ اعتيادُهما استحالا خُلُقين.

وأما النُّصح والغِشُّ فهما خُلُقان، وطَرَفاهما يتعلَّقان بالخَلق.

وكذلك الطمع واليأس، والحب والبغض، واللَّهَج والسُّلُوُّ، وما شاكل هذا الباب.

ولم يَجْر هذا كلُّه في المذاكَرة بالحضرة، ولكن رأيتُ من تمام الرسالة أن أضمَّ هذا كلَّه إلى حَوْمَته،(٨١) وأَبلُغَ الممكنَ من مقتضاه في تتمَّته.

وقال(٨٢) لي: هاتِ الوداع، فإن الليل قد همَّ بالإقلاع.

قلتُ: قال أبو سعيد الذهبيُّ الطبيب: لو علم الذي يَحمل الباذنجان أن على ظهره باذنجانًا لَصَال على الثِّيران. (٨٣)

فضحِك - أضحَكَ اللهُ سِنَّه، وحقَّق في كلِّ خير ظنَّه - وقال: إن كنتَ تحفظ في غرائب أخلاق الحيوان شيئًا فاذكره إذا حضرتَ، فقد مرَّ في أخلاق الإنسان ما يكفي مجلسَ الإمتاع والمؤانسة، فإذا ضُمَّ هذا إلى ذاك كان للإنسان فيه تبصُّرٌ كافٍ وتذكُّرٌ شافٍ.

وصدق - صدَّق الله قولَه - لأن الإنسان أشرفُ الحيوان، وإنما كان هكذا لأنه حاز جميعَ قوى الحيوان ثم زاد عليه بما ليس لشيء منه، فصار ربًّا له سائسًا، ومصرِّفًا له حارسًا، ونظر إلى ما سُخِّر له منه فاعتبر، وقاد(٨٤) نفسَه إلى حَسَن ما رأى، وعَزَفَها عن(٨٥) قبيح ما وَجَد، ولم يَجُزْ في الحكمة أن يُحْرَم الإنسانُ هذا مع ما فيه من المواهب السَّنِيَّة،

والمنائح الهنية. فإن قال قائل: فالملائكة إذن قد حُرِمتْ هذه الفضيلة، فليعلم هذا القائلُ أن المَلَك لمَّا خُلِق كاملًا لم يكلَّف أن يَكمُل ويَتكامَل ويَستكمل، فصار كل شيء يطلبه ويتوقَّاه سببًا إلى كماله المُعَدِّ له وغايته المقصودة. فإن زاد فقال: فهلَّا خُلِق[٨٦] كاملًا؟ فليعلم أن كلامه على طريق الجدل، لا على طريق البحث عن العلل، لأنه قد جهل أنه بالحكمة وجَب أن يكون الأمر مقسومًا بين ما يحوز الكمال بالجِبلَّة،[٨٧] وبين ما يَكسِب الكمالَ بالقصد.

ولمَّا وجب هذا بالحكمة سَرَت إليه القدرة، وساح به الجود، واشتملت عليه المشيئة، وأحاطت به الحكمة، وشاعت فيه الربوبية.

وها هنا زيادةٌ في شرح الخُلُق يتم بها الكلام، فليس من الرأي أن يقع الإخلال بذكرها لأنها مكشوفة ظاهرة، وهي أن الإنسان إذا غلبت الحرارةُ عليه في مزاج القلب يكون شجاعًا نَزَّالًا[٨٨] ملتهِبًا، سريعَ الحركة والغضب، قليلَ الحقد، زكيَّ الخاطر، حسن الإدراك.

وإذا غلبت عليه البرودة يكون بليدًا، غليظَ الطباع، ثقيلَ الروح.

وإذا غلبت عليه الرطوبة يكون ليِّن الجانب، سمحَ النفس، سهلَ التقبُّل، كثيرَ النسيان.

وإذا غلبتْ عليه اليُبوسة يكون صابرًا، ثابتَ الرأي، صعبَ القبول، يضبط ويحتدُّ،[٨٩] ويُمسِك ويبخل.

وهذا النعت على هذا التنزيل وإن كان مفهومًا فأسرار الإنسان في أخلاقه كثيرة وخفية،[٩٠] وفيها بدائع لا تكاد تنتهي، وعجائبُ لا تنقضي، وقد قال الأول:

كـلُّ امـرئٍ راجـعٌ يومًـا لشـيمتِه وإنْ تخلَّـقَ أخلاقًـا إلـى حِـينِ

وقال آخر:

ارْجِعْ إلى خِيمِكَ المعروفِ دَيْدَنُهُ إنَّ التخلُّـقَ يـأتي دُونَـه الخُلُـقُ

ولولا أن النزوع عن الخُلُق شاقٌّ لمَا قالوا: تخلَّق فلان.

وقد قيل أيضًا: «وخالقِ الناسَ بخلُق حسَن.» وعلى هذا يجري أمرُ الضريبة، والطبيعة، والنَّحيتَة، والغريزة، والنَّحِيزَة، والسَّجِيَّة، والشِّيمة، وربما قيل الطبيعة أيضًا، ثم العادة تاليةٌ لهذه كلِّها، أو زائدة فيما نقص فيها، ومُوقِدَة لما خَمَد منها.

هوامش

(١) المصاص: العصارة.

(٢) «ويظن».

(٣) الدغل والأشب: الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض.

(٤) كذا ورد اسم هذه الدابة في الأصل. ولم نجده فيما بين أيدينا من الكتب.

(٥) «الفكرة».

(٦) «بالتنجير والإقمال».

(٧) «الندد».

(٨) هذه التكملة التي بين مربعين ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٩) الجديلة: الشاكلة، يقال: هم على جديلة واحدة، أي على شاكلة واحدة.

(١٠) «وصح».

(١١) «أكثر».

(١٢) «وأحدُّ».

(١٣) في الأصل: «فيلهم»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا، بدليل قوله بعد في القسم الثاني: «فهو يماثل الأول في الدرجة الثانية، أعني التعلم.»

(١٤) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(١٥) «له».

(١٦) وحيًّا: أي سريعًا.

(١٧) «قال»: أي الوزير.

(١٨) «صغت».

(١٩) «وعن».

(٢٠) ذيلت قوالصهما: أي طوَّلت ما قصر وتقبَّض منهما.

(٢١) «الشرف».

(٢٢) «عنلاتها».

(٢٣) «ثانيا».

(٢٤) «بإشعا والحذر».

(٢٥) «التحفظ».

(٢٦) الظاهر أن قوله «الحسن» زيادة من الناسخ، فسياق الجملة يقتضي أنه يريد الخلق الحسن وغيره.

(٢٧) «لكرا نحص».

(٢٨) «يستعيذ».

(٢٩) «تشبيهًا».

(٣٠) «لتكتفي عنه».

(٣١) «طبق».

(٣٢) «ويجوز عليه».

(٣٣) «بالصدأ».

(٣٤) «الكرارة» بالمهملتين.

(٣٥) «الجراء والسجب».

(٣٦) «الثاني».

(٣٧) «باجتلاب» متعلق بـ «يعنى».

(٣٨) «يمكن».

(٣٩) «كأنك».

(٤٠) «فيستعمل».

(٤١) «يكون».

(٤٢) «يجوز».

(٤٣) «بالغلبة».

(٤٤) «أشرف».

(٤٥) «أقل».

(٤٦) «بالعقل».

(٤٧) في الأصل: «والجبن»، وما أثبتناه هو المناسب لقوله: «وكذلك طرفاهما»، إذ الجبن لا يكون طرفًا للجبن. ويدل على صحة ما أثبتنا ذكره التوقي بجانب التهور فيما سبق في [الجزء الأول – الليلة التاسعة].

(٤٨) «ريا».

(٤٩) «وحبه».

(٥٠) «وسبح».

(٥١) «وعض».

(٥٢) في الأصل: «وأكيل بالعذل وقوتل».

(٥٣) «فليا».

(٥٤) في الأصل: «وإنما كانا يبرزان».

(٥٥) «أثر قوي».

(٥٦) «والعدو».

(٥٧) «يستمر به».

(٥٨) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل، والسياق يقتضي إثباتها.

(٥٩) «حمرة» بالمهملة.

(٦٠) «وتقي».

(٦١) لم ترد هذه العبارة التي بين مربعين في الأصل.

(٦٢) هذين: أي الذكر والنسيان.

(٦٣) «الجبن بعد الجبن».

(٦٤) الأخريان: أي الذكاء والبلادة. وفي الأصل: «والأوليان.»

(٦٥) هذه العبارة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، والسياق يقتضي إثباتها.

(٦٦) «لأن».

(٦٧) «بنقص».

(٦٨) «يمرح».

(٦٩) في الأصل: «الترب». وهذا صدر بيت، وعجزه:

... ... لا تســلكن طريقًــا غيــر مــأمون

(٧٠) «والعقد».

(٧١) «إلا أن ترى».

(٧٢) «فليا».

(٧٣) «علمان».

(٧٤) يُلاحَظ أنه لم يرد فيما سبق ذكر للخلاعة والوقار ولا ما يفيد معناهما.

(٧٥) «تظل».

(٧٦) يريد بقوله «أحدهما»: التهور.

(٧٧) «والحسن».

(٧٨) يريد بقوله «الآخر»: التوقي.

(٧٩) «يكرَّان».

(٨٠) هذه الكلمة التي بين مربعين أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، والسياق يقتضي إثباتها كما يرشد إليه ما يأتي بعد في الكلام على الإحسان والإساءة: «فإذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقين.»

(٨١) «حرمته».

(٨٢) «وقال»: أي الوزير.

(٨٣) «النيران».

(٨٤) «وعاد».

(٨٥) «**من**».

(٨٦) **خلق: أي الإنسان.**

(٨٧) «**بالحيلة**».

(٨٨) «**دالًا**».

(٨٩) «**ويحقد**».

(٩٠) «**وحقيقة**».

الليلة العاشرة

ولما عدتُ في الليلة الأخرى ونَعِمتُ بهذه الفضيلة، تفضَّل وقال: ما في العلم شيءٌ إلا إذا بُدِئ بالكلام فيه اتصل وتسلسل حتى لا يوجد له مَقطَع ولا منفذ. ثم قرأتُ عليه نوادرَ الحيوان وغرائبَ ما كنتُ سمعتُه ووجدتُه فزاد عجبًا، وأنا أرويه في هذا المكان حتى يكون تذكرةً وفائدة إن شاء الله تعالى:

يقال: إن أسنان الرجل اثنتان وثلاثون سنًّا.

وأسنان المرأة ثلاثون سنًّا.

وأسنان الخَصِيِّ ثمانٍ وعشرون سنًّا.

وأسنان البقر أربعٌ وعشرون سنًّا.

وأسنان الشاة إحدى وعشرون سنًّا.

وأسنان التَّيْس ثلاث وعشرون.

وأسنان العنز تسع عشرة سنًّا.

الذي ذُكِر من أصناف الحيوان أنه يكتسب معاشه ليلًا: البومة والوَطواط.

ومن الحيوان الوحشيِّ ما يُستأنَس سريعًا: الفيل.

ويُحكَى أن الحيوان الذي أسنانُه قليلة عمره قصير، والذي أسنانه كثيرة عمره طويل.

الفيل إذا وُلِد نبتتْ أسنانُه في الحال، فأما أسنانه الكبار وأنيابه الكبار فتظهر إذا شَبَّ وكبِر.

قلب جميع الحيوان موضوعٌ في الوسط من الصدر ما خلا الإنسان، فإن قلبه مائل إلى الجانب الأيسر.

الأفعى تبيض في رحمها، ثم يصير هناك حيوانًا.

الشعر المولود مع الإنسان شعرُ الرأس والأشفار والحاجبَين.

وأول ما ينبت بعد ذلك شعر العانة وشعر الإبطين وشعر اللحية.

إن خُصِي الإنسانُ قبل احتلامه لم ينبت في جسده الشعر الذي يتأخر نباته، وإن خُصِي بعد احتلامه فإن ذلك الشعر يزول ما خلا شعر العانة فإنه يبقى.

المرأة إذا احتبس طَمثُها ربما خرج لها شعرٌ يسيرٌ في موضع اللحية.

شعر الحاجبَين ربما طال عند الكِبَر.

وشعر الأشفار لا يطول.

للأرانب في داخل أشداقها شعر، وكذلك تحت أرجلها.

القنفذ في فيه خمس أسنان في عمقه.

والبرِّيَّة منها تَسْفَد قائمة وظهر الأنثى لاصق بظهر الذكر.

الرجال يشتاقون إلى الجماع في الشتاء، والنساء في الصيف.

الخنزير إذا تمت له من ولادته ثمانية أشهر ينزو على الأنثى.

الكلبة تحمل وتبقى ستين يومًا ويومًا، وهذا أطول ما يكون، ولا تضع قبل أن يتم حملها ستين يومًا، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا تربِّي ولا يبقى لها ولد.

الفيل الذَّكر ينزو إذا تمت له خمس سنين، وزمان هياجه ونزوه أيام الربيع، والأنثى تحمل سنتين ولا تضع إلا واحدًا.

إذا باض الطائر وما كان من أصنافه يخرج من البيضة الطرف العريض ثم يرقُّ بعد ذلك.

كل ما كان من البيض مستطيلًا محدَّد الطرف فهو يفرخ الإناث، وما كان مستديرًا عريض الأطراف يفرخ الذكور.

وجُرِّب من إناث الطير أنها إذا لم تجلس على البيض[١] تمرض.

القَبْج[٢] إذا هاج ووقفت الأنثى قبالة الذكر وهبت الريح من ناحية الذكر مقبلة إلى ناحيتها، حملت من ساعتها.

الحمامة إذا نُتِفَت ريشة من ريشها احتبس بيضها أكثر مما لها بالطبع.

مبدأُ خَلق الفَرخ من بياض البيضة، وغِذاؤه من الصُّفرة، فإذا خرج فرخان كان أحدهما أكبر جثةً من الآخر، والذكر منهما من البيضة الأولى ومن الثانية الأنثى.

الفاخِتة[٣] تعيش أربعين عامًا.

والحَجَل[٤] يعيش عشرين عامًا.

الرخَمَة تُفرخ على صخور مشرفة عالية لا ينالها أحد، ولا توجد رخمة وفراخها إلا في الفَرْط.[٥]

العُقاب يجلس على البيض ثلاثين يومًا، وكذلك كلُّ طائر عظيم الجثة مثل الإوزّ وما أشبهه، والمتوسط الجثة يجلس على البيض عشرين يومًا كالحِدَأة والبُزاة وما أشبه ذلك.

إناث الغِرْبان تجلس على البيض جلوسًا دائمًا، والذكر يأتيها بالطعم حينئذٍ.

الحَجَل تعمل عُشَّين يجلس الذكر على واحد والأنثى على واحد.

الطاووس يعيش خمسًا وعشرين سنة، وفي هذه المدة تنتهي ألوانُ ريشِه، ويحضُن بيضَه ثلاثين يومًا، قيل: وربما أكثرَ قليلًا، ويبيض في كلّ سنة مرة واحدة، وعدد بيضه [اثنتا] عشرة بيضة، ويُلقِي ريشَه في زمن الخريف وبعدَه قليلًا وذلك حين يُلقِي الشجرُ ورقَه، فإذا بدا أولُ الشجر وظهرتْ فروعه ونبت ورقُه بدأ ريشُه يَنبُت.

الدُّلْفِين(٦) له لبن، ويُرضِع، ويَحمِل عشرة أشهر، وتلد في الصيف ولا تلد في زمانٍ آخر البتة، وربما غاب تحت الموج في الماء ثلاثين يومًا لا يظهر. وهو محبٌّ لخُرئِه يأكله.

الجمل الذكر يكره قُربَ الفَرَس ويقاتله إذا تمكن منه.

الشاة إن مُطِرتْ بعد نَزْوِها انتَقَض حَملُها.

الغنم إذا أُنْزِيتْ والريحُ جَنوبٌ تضع أولادها إناثًا، وإن كانت العُروق التي تحت ألسُن الكِباش الفُحُول بيضًا فإن إناث الغنم تضع حُمْلانًا بيضًا، وإن كانت العروق سُودًا فإنها تضع حُمْلانًا سُودًا، وإن كانت لونَين تكون مختلفة، وإن كانت شُقْرًا خرجتْ شُقْرًا.

الغنم إذا هاجت المُسِنَّة منها أولًا فالسنة ذاتُ خِصْب، وإن هاجت الفَتيَّةُ أولًا فالسنة رديئةٌ على الغَنَم.

الكلب السَّلوقيُّ [ينزو] (٧) إذا تم له ثمانية أشهر، والأنثى منها تحمل ستين يومًا وربما زادت يومًا أو يومين، وجِراؤها عُمْيٌ(٨) اثنين وعشرين يومًا. ومنها ما تحمل ثلاثة أشهر، وتكون جِراؤها عُمْيًا سبعة عشر يومًا.

إناث الكلاب تَطْمَث في كل سبعة أيام وتبول جالسة، ومنها ما ترفع رجلها عند البول.

ذكور الكلاب ترفع أرجلها للبول إذا تمت لها من ولادتها ثمانية أشهر، وبعضها في ستة أشهر.

ذكور الكلاب السلوقية تعيش عشر سنين، وإناثها اثنتي عشرة سنة، ومن أجناسها ما تعيش عشرين سنة، وإناثها كلها أطول أعمارًا من الذكور.

قال أوميروس الشاعر: إن كلب إديوس هلك وهو ابن عشرين سنة.

وليس تُلقِي الكلاب شيئًا من أسنانها سوى النابَين، فإذا تم للكلب أربعة أشهر أبقاهما.

البقر تُلقي أسنانها لسنتين، وإذا كثر نَزْوُ الذكور منها وحملُ الإناث يكون ذلك علامةَ شتاء وَجُود أمطار وخصب، وإناثُها تَطْمَث.

إناث الخيل تضع أولادها في أحد عشر شهرًا أو في الثاني عشر.

الحيَّات رَغِبَةٌ نَهِمة، قليلة شرب الماء لأنها لا تضبط أنفسها، وإذا شمت الشراب فإنها تشتاق إليه جدًّا.

الأسد إذا بال رفع رجله كما يرفع الكلب.

البقر تشتهي شرب الماء الصافي النقي، والخيل على الضد فإنها تشرب مثل الجمال الماءَ الكَدِر الغليظ.

الغنم في الخريف تشرب الماء الذي تصيبه ريح الشمال، وذلك الوقت أوفق لها.

الدُّرَّاج إذا هبت الريح شمالًا تتزاوج[٩] وتُخصِب، وإن كانت جنوبًا ساءت حالها ومرضت.

السمك الذي يأوي إلى الشطوط من ناحية البَرِّ ألذُّ من الذي يأوي اللُّجَج. وما كان منها مستطيلَ الجثة فهو يُخصب في الصيف وهبوب الشمال، والعريض الجثة على ضد ذلك. وأكثر ما يُصاد السمك قبل طلوع الشمس لكلَبه على الرعي وطلب الطُّعْم.

والسمك الجاسي الجلد يخصب في السنة المطيرة، لأن ماء البحر يحلو فيها.

الكلب له ثلاثة أمراض: الكَلَب، والذُّبَحَة[١٠]– وهو القاتل لها – والنِّقْرس.

والداء الذي يقال له الكَلَب يَعرض للجمال أيضًا، فإذا كَلِب الجمل بَخِرَ ولم يؤكل لحمه.

الخيل إذا ألقت حوافرها وقت تَنْصُل[١١] نبت لها حافر آخرُ عاجلًا، لأن نباته يطلع مع نصول الحافر، وعلامة ذلك اختلاج الخصية اليمنى.

ويعرض للخيل داء شبيه بالكَلَب، وعلامته استرخاء آذانها إلى ناحية أعرافها، وامتناعها من العَلَف، وليس لهذا الداء علاج إلا التسكين.

لا يكون في بلد الهند خنزير، لا أنيسٌ[١٢] ولا برِّيٌّ. وفي أرض تُعرَف بكذا يُجَزُّ البقر كما يُجَزُّ الغنم. وفي أرض النُّوبة تُولَد الكباش نابتة[١٣] القرون.

وإناث الكلاب السلوقية أسرع إلى الأدب من الذكور.

جميع أجناس الحيوان إناثها أقل جرأة وأجزع، ما خلا الذئبة فإنها أصعب خُلُقًا وأجرأ من الذكور.

العُقاب والتِّنِّين يتقاتلان، والعُقاب تأكل الحيَّات حيثما وجدتها.

الغُداف[١٤] يخطف بيض البومة نصف النهار فيأكله، لأن البومة لا تبصر بصرًا حادًّا في ذلك الوقت. فإذا كان الليل شدَّت البومة على بيض الغداف فأكلته.

بين العنكبوت وبين الحِرْذَوْن[١٥] شر، لأن الحرذون يأكل العنكبوت.

عصفور الشَّوْك يقاتل الحمار، لأن الحمار إذا مر بالشوك أفسد عشه، فإذا نهق بالقرب منه وقع بيضه، وإن كان فيه فراخ خرجت منه، فلهذه العلة يطير هذا العصفور حول الحمار وينقره.

الغراب يعادي الثور والحمار وينقرهما.

والحيَّة تعادي الخنزير وابن عرس، لأنهما يأكلان الحية حيث وجداها.

الغداف مصادق للثعلب، والثعلب مصادق للحية.

«والسبب[١٦] في عداوة العصفور للحمار أن معاش العصفور من بزر الشوك وفيه يبيض وهو وكره، والحمار يرعى ذلك الشوك إذا كان رطبًا.»

البقر يكون في الجبال إذا ضلَّت بقرة تبعتْها الأخرى، ولذلك الرعاة إذا لم يجدوا بقرة واحدة وعدموها طلبوا سائر البقر وفقدوها من ساعتهم.

الخيل إذا ضلت الأنثى منها أو هلكت ولها ولد فإن إناث الخيل ترضعه وتربيه، وذلك أن جنس الخيل في طباعها حب أولادها.

الأيايل تُلقِي قرونها في أماكن عَسِرَة صعبة لا تُرْتقَى لئلا تُؤْخَذ، ولذلك قيل في المثل: حيث تلقي الأيايل قرونها، فإذا ألقتها توقَّت أن تظهر إلى أن تنبت كأنها قد ألقت سلاحها. وقيل: إنه لم يعاين أحد القرن الأيسر من قرنَيْها لأن فيه منفعة عظيمة.

وإذا وضعت أولادها أكلتْ مشائمها من ساعتها، ولا يمكن أخذها لأنها تأكلها من قبل أن تقع على الأرض.

والأُيَّلةُ تصاد بالصَّفير والغِناء، ويفعل ذلك رجلان أحدهما يغني ويصفِّر والآخر يرشقها بالسهام، فلإصغائها(١٧) إلى الصفير والغناء لا تحذر السهام.

ويقال إن الأُيَّل إذا كانت أذناه قائمتَين فهو يسمع كل شيء ولا يخفى عليه ما يُراد به، وإن كانتا مسترخيتَين خفي ذلك [عليه].

الفهد إذا أكل العشبة التي تُسمَّى خانقة(١٨) الفهود يطلب زبل الإنسان فيأكله ويتعالج به.

ابن عرس إذا قاتل الحية أكل السَّذَاب مخالفة للحية.

اللقالق إذا خرجت من قتال بعضها بعضًا تضع على الجرح صعترًا برِّيًّا.

يقال إن ذكور العصافير تبقى سنة فقط، والدليل على ذلك أنها من قبل أطواقها التي في أعناقها لا تظهر في الربيع، بل بعد ذلك بأيام، لأنها لا تُبقي شيئًا من الذكور التي كانت من العام الماضي، فأما إناثها فهي أطول أعمارًا.

إذا دنا الصياد من عش القَبْج تخرج الأنثى من بين يديه وتُطْمِعُه في صيدها حتى تهرب فراخها، ثم تطير وتدعو فراخها إليها.

وإناث القبج تبيض خمس عشرة بيضة، والذكر منها يطلب موضع بيض أنثاه فيدحرجه مخافة أن تقعد عليه وتشتغل عنه فيفسده، وهي تحتال أبدًا في الهرب منه وتُخفِي موضع عُشها فتبيض في أماكن خفية، ومتى١٩ قصدها قامت عنه وأطمعت في نفسها حتى تبعد عن أماكن بيضها، فإذا بعد طارت ثم احتالت في الرجوع إليه.

الهدهد يعمل عشه من زبل الإنسان، فلذلك رائحته كريهة.

العُقاب تصيد منذ حين الغداة إلى وقت الرواح، فأما من أوان الرَّوَاح[٢٠] إلى أن يترحل النهار فهي قاعدة في مكانها لا تتحرك.

ومنقار العقاب الأعلى ينشأ ويعظم ويتعقَّف حتى يكون ذلك سببَ هلاكها لأنها لا تنال به الطُّعْم، فإذا فضلتْ للعقاب فضلةٌ من طُعمه وضعها في عُشِّه لحاجة فراخه إليها.

أصناف الطير المعقَّفة المخالب لا تجلس على الصخر إلا في الفَرْط، لأن خشونة الصخر مخالفةٌ لتعقُّف مخالبها.

النحل تعمل عُشَّها في زمانين: في الربيع والخريف. والعسل الذي تعمله في الربيع أشدُّ بياضًا وأجود من الذي تعمله في الخريف.

وأضعف العسل يكون أبدًا في أعلى الإناء، والنقيُّ الطيب في أسفله.

الأسد عظامه جاسية جدًّا، وإن دُلِّكتْ بعضُ عظامه ببعض خرجت منها نار كما تخرج من الحجارة.

الحيوان الذي له شعر [في أشفار(٢١) عينيه] ليس في أشفار عينيه شعر إلا الشعر الأعلى.

والنعامة لها أشفار في الجفنَين الأعلى والأسفل.

القنفذ تبيض خمس بيضات، وليس هو بيضًا بالحقيقة بل هو على صورة البَيض يشبه الشحم.

قلب كلِّ حيوان طرَفه حادٌّ وهو أصلب من سائر جسده، وهو موضوع في وسط الصدر سوى الإنسان فإنه مائل فيه إلى الناحية اليسرى؛ لأنه يكون بإزاء(٢٢) الجانب(٢٣) الأيسر فيعادل الناحية اليمنى، فإن اليسرى من الإنسان أكثر بردًا.

وليس في قلوب جميع الحيوان عظم إلا في الخيل وفي جنس من البقر، فإن في قلب هذين عظمًا دون غيرهما من الحيوان.

وكلُّ حيوان له قلبٌ كبيرٌ يكون جزوعًا.

الكلاب الهندية تتولَّد من كلب وسبع شبيه بالكلب.

والحمار حيوان بارد، ولذلك لا يكون الوحشيُّ منها [إلا] (٢٤) في المكان البارد.

ذكور البغال لا تشمُّ أبوال إناثها كسائر ذوات الحافر.

بيض الطير فيه لونان: بياض وصُفرة.

وبيض السمك فيه لون واحد.

إذا كانت الريح جنوبًا كان المولود أنثى، لأن الجنوب إذا هبَّت رَطَّبت، وإذا أَشملتْ كان المولود ذكرًا.

عيون جميع الصبيان ساعة ولادتهم شُهْل،[٢٥] ثم تنتقل إلى الطباع الغالبة عليها.

وعيون جميع الحيوان لون واحد، كالبقر فإن عيونها سود. وعيون البشر[٢٦] ألوان كثيرة.

صاحب العين الناتئة[٢٧] لا يُبْصِر ما بعد عنه بصرًا جيدًا، والغائرة تُبْصِر ما بَعُد عنها، لأن حركتها لا تتفرق ولا تتبدد.

الفهد ربما نكح الدُّبَّ فيتولد بينهما سَبُع مختلِف المنظر لا يتناول الناس، ويصيد الكلاب ويأكلها ويَستخفي في البحر، فإذا مر به أُيَّلٌ مفاجأة وثب عليه وأنشب[٢٨] مخالبه في أكتافه ومصَّ دمه حتى يضعف الأُيَّل[٢٩] ويسقط، فيجتمع عليه هذا الصنف من السباع فيأكله، فإن اجتاز بها أسد نهضت عنه وتركت الفريسة له تقربًا إليه.

بأرض يونان مِعزَى جعدة الصوف يقال لها: المعزَى البرِّيَّة، فإذا أصابت قرونُها شيئًا من قُضبان الكرم لم يَنبت ورقُه ولا ثمره، بل يجفُّ مكانه ويسقط ما عليه من الورق والثمر.

السُّلَحْفاة تخرج من البحر إلى الرمل فتبيض فيه، حتى إذا بلغ أوانه وخرج أولادها فما كان ناظرًا إلى ناحية البحر كان بحريًّا، وما كان وجهه إلى ناحية البرِّ كان برِّيًّا.

والسَّلاحف تمتنع من الذُّكران فيأتيها بعود يحمله في فمه ويدنو منها، فإذا رأت ذلك العود سكنت له.

وما كان من السلاحف بحريًّا فخرج إلى البر وأصابه حرُّ الشمس، لم يستطع الرجوع إلى البحر وبقي حتى هلك. وما كان برِّيًّا فوقع إلى ناحية البحر تَلِف ولم يستطع الرجوع إلى البرِّ وهلك.

الثعلب يهيئ عُشَّه ووكره ذا سبعة أجحرة، فإذا(٣٠) طرقته الكلاب وغيرُها مما يَتخوَّف [في جحر] (٣١) خرج من غيره.

وإذا قارب الزرع أن يُسنبِل(٣٢) دخل الثعلب فيه وتمعَّك فرحًا به فيفسد ذلك الزرع، ولذلك سُمِّي احتراق(٣٣) الشعر داء الثعلب لأنه(٣٤) يُسقِطه كما يُذهب ورق السنبلة والشوكة.

القنفذ يعمَد إلى الكرمة فيحركها فيقع منها العنب، فيتمرَّغ فيه حتى يملأ شوكه ويعود إلى عُشه، فإذا بصرت به جِراؤه أطافت به تلتقط ذلك الحب من شوكه وتأكله.

الذئب إذا هُيِّئَ من مِعاهُ وَتَرٌ وهُيِّئَ من مِعَى الشاة وَتَر، ثم عُلِّقَا بآلات الملاهي ثم ضُرِب بهما، صوَّت المعمول من الذئب وخَرِس الوتر المعمول من الشاة.

وكلُّ شاة يتناول الذئب من لحمها يكون لحمها حلوًا لذيذًا. وكل جزَّة صوف تُهَيَّأ من الشاة التي قد تناول الذئب منها قَمِل الثوب المعمول منها من قِبَل سُمِّ(٣٥) أسنانه.

الكلب إذا مَرِض أكل حَلْفاءَ رَطْبةً.

والأُيَّل إذا مرض أكل حية.

والضَّبع إذا مرض أكل كلبًا.

الأسد إذا أكل كلبًا فإنه يكون قد ضرس فيزول ذلك.

الرخمة إذا ضعف بصرها بقرتْ مرارة إنسان.

الأعنز البرية [تألف] (٣٦) حيتانًا بحرية، وتدع الجبال وتسلك طريقًا بعيدًا حتى تأتي البحر لمكان تلك الحيتان، فلما عرف ذلك الملاحون سَلَخوا جلود تلك الأعنز ودنَوْا(٣٧) بها من شاطئ البحر على ظهورهم، فإذا نظرت(٣٨) تلك الحيتان إليها خرجتْ مسرعة إليها فيصيدها الملَّاحون.

ليس من السباع شيء صُلْبه عَظْم واحد بلا خَرَز إلا الأسد والضبع.

من ربط على بدنه سِنًّا(٣٩) من أسنان الذئب ولبسه لم يَخَف الذئاب.

والفَرس الذي يُعلَّق عليه شيء من أسنان الذئب يكون سريعَ الجري.

المِعْزَى البرية تكون صُلْبة القرون، تأوي أطراف الجبال وما كان مُشرِفًا من الصخور على أودية، فإن بصرت بالصياد ألقت أنفسها من تلك الصخور لتقيها بقرونها، فإن سقطت على غيرها هلكت، وفي قرونها خرزات مستديرات على قدر ما يكون عددُ سنيها. [٤٠]

والعجب أنها تحفظ إناثها عند الكِبَر وتتعهَّدها بالمطعم والمشرب تحمله على أفواهها.

المعزى البرية إذا صيد شيء من سِخالها تبعته ورضيت بالعبودية مع ولدها، وفي أطراف قرونها جِحَرة تتنفس منها، فإن سُدَّتْ هلكتْ مكانها.

الوَرَشان[٤١] يتحرَّز بأن يضع ورق الغار في عُشِّه.

والحِدَأة تضع في عُشِّها ورق العُلَيْق تتحرَّز به.

الخطَّاف يضع في عشه قضيبَ كَرَفْس.

التُّدْرُج[٤٢] يضع في عُشِّه سرَطانًا نهريًّا.

جميع السباع والدوابِّ عند المشي تقدِّم اليد اليمنى والرجلَ اليسرى.

لا تكون الزرافة إلا في أرض قليلة الماء.

إذا همَّ أصحاب الخيل أن يُنْزُوا[٤٣]حمارًا على فرس جَزُّوا عُرفها فتقرُّ[٤٤] حينئذٍ، وتذلُّ لكَدْم[٤٥] الحمار لها.

بيونان ثيران لها أربعة قرون لا تَرضى بمجامعة البقر، بل تجامع إناثَ الخيل، ويتولد بينهما خيول عجيبة المنظر.

الجاموس لا ينام أصلًا وإن أرخى عينيه إرخاء يسيرًا، لكنَّه ساهرٌ الليل والنهار.

الجمل إذا وَقَع على الناقة وَقْع الضراب سُتِر عن الرجال، فإن نظر إليه رجل غَضِب.

قالت الروم: إن السِّنَّوْر يتولد من مجامعة الفهد لبعض السباع.

[لا ينام] [٤٦] البوم إلا إغفاءة. [٤٧]

ومن العجب أن السِّنَّوْر يكون صافيَ العين كثيرَ البريق عند امتلاء الهلال، وينقص ذلك الصفاء[٤٨] والبريق عند نقصان الهلال.

الأفعى إذا جامعها الذكر واسمُه الأُفْعُوان تحوَّلت إليه، فإن ظفرتْ به أكلتْ رأسَه من شدة عِشقها له.

ذكر العقرب اسمه عُقْرُبان، أسود صغير، سريع المشي، جادٌّ[٤٩] الذهاب.

الحِرْذَوْن[٥٠] تفسيره بالعربية الذي يخرج من الزعفران.

التمساح لا يكون إلا في النيل ونهرٍ بأرض الهند يقال له الرَّسِيس، ويبيض كبيض الإوَزِّ، وربما يُولَد منه حَراذِينُ صغار، ثم يكبر حتى يبلغ طوله عشر أذرع، ويزداد طولًا كلما ازدادت سِنُو حياته.

وسنُّه اليسرى نافعة لحمَّى النافض.

وذُكر أنه يجامع ستين مرة في حركة واحدة ومحلٍّ واحد.

الحمار الوحشيُّ يتولد بين الفرس والفيل، وله قرن يَنبت من أنفه كأنه سيف، وإن ضرب شجرةً قطعها وبه يقاتل الفيل ويبعج[٥١] بطنه بقرنه، ولم يُعايَن من هذا الجنس أنثى قط.

في البحر حوت يقال له «البوس» يتولَّد من الصاعقة إذا كانت في البحر، وإن وُضع ذلك الحوت بين اثنين فأكلا منه تحابَّا ولا يحقد أحد على صاحبه، ويتآخيان أحسن الإخاء.

كلب الماء أبدًا ذنَبه على ظهره واقع مع انطباق والتواء، يرعى نبات الأرض، وهو شديد الجزع من النار، فإذا كان الليل خرج الصيادون بأيديهم شُعَل النار فيأتون مَجْثَمها، وتلك لا تتحرك لجزعها من النار حتى تُؤخذ، وإن كان منها ذكر لم يجامع أنثى قط، وإذا أرادت المجامعة فإنها تجتمع وتَجلِد(٥٢) فتُفرِخ.

وإن أخذ منها صياد بشبكة واحدًا وثبتْ كلُّها حتى تدخل الشبكة آبية فراقَ بعضها بعضًا.

ومن لبس جوربًا من جلودها وبه نِقْرس انتفع به جدًّا.

وإذا ابتُلِي إنسان برُعاف ثم أخذ قطعة من جلدها، ثم انعقد في لبن واشتمَّه انقطع ذلك الرُّعاف.

اليرابيع إذا اجتمعت في موضع ارتفع رئيس لها حتى يكون في موضع مشرف أو على صخرة أو تلٍّ ينظر منه إلى الطريق من كل ناحية، فإن رأى أحدًا مقبلًا أو سَبُعًا صَرَّ(٥٣) بأسنانه وصوَّت، فإذا سمعتْه انصرفت عن الموضع إلى جِحَرتها، فإذا أغفل ذلك وعاينت البقية سبعًا أو راجلًا قبل أن يراه ذلك الرئيس انصرفت إليه وقتلته لتضييعه أو غفلته.

وإذا كان حسَن الرصد مضت اليرابيع فقطعت أطرأ ما يكون من الخضرة وأطيب العشب، فحملته بأفواهها حتى تأتيه تحيةً وتكرمة.

وإذا كانت في جِحَرتها خرج الرئيس أولًا فيبصر الطريق، فإن لم يرَ أحدًا صَرَّ بأسنانه وصوَّت لها لتخرج فترعى.

في البحر حوت يقال له «موفي»، ضعيف الجسد، قليل القوة، إذا جاع خرج إلى الشاطئ فاستلقى على الرمل فأقام شوكة في رأسه، فإذا نظر إليه حوت آخر جاء مسرعًا ليأكله يظن[٥٤] أنه ميت، فيُدخل بطنَه تلك الشوكةَ فيقتله بها ويأكله.

وإذا ألقى الملَّاح صِنارته ولقيت ذلك الحوت رَمَى مكانَه بتلك الشوكة الحادَّة يدَ الملَّاح فتَخدَر ويَطرَح أداة صيده.

فإذا رأى الحوت أن الصِّنارة داخلت أضلاعه غلبت الظلمة على بصره ومات من ساعته.

وفي جلد هذا الحوت عجب، وهو أن الصاعقة لا تدنو من جلده، والملَّاحون يغطُّون سفنهم به عندما يتبيَّنون[٥٥] الصواعق ووقوع المطر، ويدنو هذا الحوت إلى طرف مقدَّم السفينة فيمسك بطرفه[٥٦] اللطيف، فلو اجتمعت الرياح كلها بأشد هبوبها لم تستطع تحريك تلك السفينة، فمن أخذ من جلدها وسمَّر به شراع السفينة لم يخف على سفينته[٥٧]غرقًا.

السريع الحُضْر أربعة: النَّمِر والحَريش[٥٨] وعنز الجبل وكباشها.

عدوُّ الحيات أربعة: القنفذ والفيل والأُيَّل والعَقْعَق.

الجبان اثنان: الأرنب والأُيَّل.

ذو الزهو ثلاثة: الفرس والديك والطاووس.

ذو حدة السمع ثلاثة: الذئب والحمار والخُلْد. (٥٩)

القادر في التزاوج ثلاثة: العصفور والحمام والعَقْعَق. (٦٠)

ذو الشهوة ثلاثة: العصفور والثور والباشَق. (٦١)

المتحارس بالليل اثنان: الكركيُّ والبط.

نافي فراخه ثلاثة: النعام والغُداف والعُقاب.

محب الظُّلمة ثلاثة: البوم والخفَّاش والخُلْد.

ذو حدة البصر ثلاثة: العقاب والظبي والباشق.

من أخذ لسان ضبع ومر به بين الكلاب لم تكلب عليه.

من مر بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلًا من أصول عِنَب الحية هربت منه. وعنب الحية هو الحنظل.

وذكر الحُبارَى يقال له: الخَرَب.

إذا أراد إنسان أن يتزوج امرأة فلينظر إلى أبيها وأخيها، فإنها بعِيانه[٦٢] وبين يديه أحدهما.

من الحيوان ما لا يشبه الولدُ الوالدَ كالدببة والنحل والدَّبْر. [٦٣]

أما الدببة فتضع أولادَها توائمَ لا صور لها حين تولد، غير أن أمها تهيئ صُوَرها،[٦٤]وتسوِّيها بلحسها إياها بألسنتها ...[٦٥]

وأما الدَّبْر فإنها تلد دودًا يتصوَّر بعد ذلك.

الضفادع والغيالم[٦٦] والسرطانات لا ضرر عليها في ماء ولا يبس، لكنهما عندها سيَّان لا تهلك في برٍّ ولا تُخنَق في بحر.

كلُّ ما أكل اللحمَ فهو ذو أسنان قواطع صِلاب، وأعناقٍ قصارٍ شداد، ومخالب وأظفارٍ حداد، ومناقير معقَّفةٍ جذَّابة.

للأسد ثلاث طبائع: الأولى منها أنه إذا مشى فشمَّ ريح الصيادين عَفَّى على آثاره بذَنَبه لكيلا يتبعه الصيادون ويقفوا عليه في عَرينه فيتصيَّدوه.

والثانية أن اللبؤة تلد شِبْلها ميتًا، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه في اليوم الثالث فينفخ في مَنْخِره فيبعثه.

والثالثة أنه يفتح عينيه إذا نام وهما يقِظتان.

ومن تمسَّح بشحم كُلَى الأسد ومشى بين السباع لم يخَفْها ولم تَقْرَبه، وإن افترس(٦٧) الأسدُ الفريسةَ ولم يأكلها ميَّز أن ريحها منتِنة جدًّا.

وأصناف الحيوان التي تَلَغ الدمَ بألسنتها: الكلابُ والسنانير.

الأُسْد تضع أولادَها غيرَ منفتحة العيون، وإنما تنفتح بعد ذلك.

وأما الأسد(٦٨) خاصَّة فليس له من جنسه قرين، ولا يرى شيئًا من السِّباع كفئًا له فيصحبَه، ولا يَقرب شيئًا من بقايا فريسته بالأمس ولو جهده الجوع، ويُهِرُّ(٦٩) زئيرُه كثيرًا من الحيوان الذي هو أعظم منه جسمًا وقوة.

وإنما تلد اللَّبُؤة واحدًا ويخرق(٧٠) بطن أمه بأظفاره ويخرج منه.

الثعلب إذا جاع فلم يَقدِر على صَيدٍ عَمَد إلى أرض شديدة الحرِّ وإلى موضع الطير(٧١) إذا حَمِيَ، فاستلقى على ظهره ونظر إلى فوق، ثم اختلس نَفَسه وأخذ به داخلًا حتى ينتفخ انتفاخًا شديدًا، فيحسَبُه الطير قد مات فيقع عليه ليأكل منه كما يأكل الجيفة، فإذا اجتمع الطير انتفض سريعًا وقبض على ما وَجَد فأكله، لأنه ذو خِبٍّ(٧٢) ومكر. كذلك طبيعته إن أصابه ضرر فأثَّر فيه آثارًا وكلَم فيه كُلُومًا أخذ من صمغ شجرة تدعى قَنْطُوريا(٧٣) فأبرأها به.

القرد أهيأ الحيوان لقبول التعليم، وهو لعوب غضوب سريع الحِسِّ، لا يكون في بلد كثير السباع، عدوٌّ لجميع الحيوان، مليح الإهاب،

نَهُوشٌ خطوف، إلا أنه إذا شبع نام في غاره ثلاثة أيام، فإذا خرج صاح بصوت عالٍ تخرج منه رائحة طيبة، فيجتمع إليه الحيوان لحسن صوته.

ومن أراد ختْله(٧٤) فليتمسَّح بشحم الضبع ويدخل عليه في غارِه فإنه لا يمتنع. خفيفُ الجِرم، حديدُ الشدِّ،(٧٥) يقظان.

دابة يقال لها بالفارسية «درباست»، إذا طلبه القانص(٧٦) استلقى لظهره وأراه أنه لا خُصية له، كأنه قد علم ما يُطلَب منه.

خُلِق الجبانُ من الحيوان الخائفِ سريعَ الحُضْر سريعَ الحركة، وجُعِل الصِّنف الجريء العادِي بطيءَ الحُضْر(٧٧) مبلَّدًا.

الضبع مخالفة(٧٨) لجميع أجناس الحيوان، وذلك أنها تصير مرة ضبعًا ذكرًا ومرة أنثى، تُلقِّح أحيانًا كالذكر وتقبل اللِّقاح أحيانًا كالأنثى.

وطبيعتها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مقمرة مشتْ على الآثار ووطئتْ ظلَّه(٧٩) فوقع.

«ومن قتل ضبعًا وأخذ لسانها ومرَّ بين الكلاب لم تَكْلَب عليه، ولم تَعرِض له. ومن مرَّ بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلًا من حنظل أسكتَها عنه وهربتْ منه.» (٨٠)

القنفذ عدو الحيات، إذا قبض على حية تركها تضطرب على شَوْكه حتى تموت، فإذا ماتت قطَّعها قِطَعًا.

الدُّبُّ يقتل[٨١] الثور، والغالب عليه الانجحار في مغارته.[٨٢]

الفيل ليس له شهوة السِّفاد،[٨٣] فإذا أراد الولدَ أتى رياضًا وجِنانًا[٨٤] فيها اللُّفَّاح[٨٥] هو وإناثه فهيَّج له اللفَّاح برائحته وقوة حرارته شهوته فتسافدت، فإذا ولدتْ ولدتْ قائمة لأن أوصالها ليست مواتيةً كأوصال التي تلد باركة ورابضة، غير أنها تلد في الماء حذرًا على دَغْفَلِها أن يموت إذا وقع على الأرض، فلذلك تدخل ساحل البحر حتى يبلغ الماءُ بطنَها فتضع ولدها على الماء كالفِراش الوثير، والذَّكر في ذلك يحرسها وولدَها من الحية.

ما أشدَّ عداوةَ الفيل للحية! حيثما أصاب الفيلُ الحية وطئَها وقتلها.

وإن هو سقط على جَنْبه لم يستطع القيامَ، إنما نومُه إذا اتَّكأ على شجرة.

ومن هناك – لمَّا عرَف أهلُ تلك البلاد[٨٦] كيف نومُه – يأتون الشجرةَ فينشرونها بالمِنشار، فإذا أتاها الفيل واتكأ عليها وقَعَا على الأرض معًا، وحينئذٍ يشتد صياحُه بصوت رفيع، ويجتمع إليه لذلك فِيَلةٌ كثيرة تحاول معاونتَه على النهوض والانبعاث فلا تقدر على ذلك، فتصيح جماعتُها بصوت واحد جزَعًا من ضعف حيلتها وعجزها حتى يأتي الفيلُ الذي هو في الجسم أصغر وفي الحيلة أكبر منها، فيُدخل مِشْفَرَه[٨٧] تحت الفيل الساقط، وتفعلُ كفعله جميعًا في إدخال

مشافيرها٨٨ تحته حتى تَدْعَمه فينبعث. وإنما كُوِّن رأسُ الفيل في عنق قصير، وكُوِّن له بدلَ العنق الطويل المشفرُ الطويل ليَكتفي به من الضيق، وبه يتناول طعامَه وشرابَه.

وخُلِقتْ قوائمُه غيرُ منفصلة، لكنها كالأساطين المصمَتة والسَّوارِي الوثيقة لتحمِلَ الكثيرَ الثقيل، ورُبِطتْ بعراقيبَ صغارٍ غيرِ منحنية ولا منثنية على الأوصال، لكن عظامَه مفرَغة إفراغًا.

تطول أعمارُها إلى ثلاثمائة سنة. غير أن الجُرْذان والبقَّ تَعْلَق بالفيَلة فتؤذيها.

السَّمَنْدَل: [٨٩] دابة لا تخاف النار لأنَّها لا تحرقها، وإن دخلت أُخْدُودًا متأجِّجًا مضطرمًا بالنار لم تَحفِل بذلك، وصارت النار التي تُبِيد الأجسامَ مَبعثًا لهذه الدابة المَهينة الحقيرة، تستلذ التقلب فيها استلذاذ القلب بالهواء البسيط وهبوب أرواحه[٩٠] الطيبة، ونضارة جلدها وتنقيته بالنار، فيزداد بالنار حُسنَ لون.

الأرنب من طباعها الجبن والخوف، وهي كثيرة الولادة.

الكلب ذو فحص واقتفاء للأثر، وبشَمِّه يَسترشد[٩١] ويهتدي ويَستدلُّ، إذا شمَّ المَوْلى عرفه إن كان له أو لغيره.

ومن طباعه الترضِّي والبصبصة والهشاشة[٩٢] لمن عرفه.

ليس في الحيوان أشدُّ حبًّا لصاحبه منه، فإن أشار له[٩٣] على صيد وثب ناصبًا رأسه رافعًا ذنَبه مستعدًّا كالفارس البطل والشجاع النَّجِد، مع نشاطه في الطلب وهو يعلم أن الصيد ليس بحاضر، لكن ذلك منه حسن طاعة.

فأما حب بعض جِرَاء الكلاب لبعض إذا كان أخاه لأمٍّ ولأب فمما قد عُهِد وشوهِد، وذلك أنه حيث كان يُطرح لها الطعامُ في الوسط فلا يخطف واحد منها ذلك، لكنها تتعاطاه بينها بسكون وتمكين بعضها لبعض، غيرَ مستأثرة به ولا محاربة عليه.

الفَرَس من طباعه الزَّهو والحرارة وشهوة الإناث للسِّفاد. وإن وَطئ الفرس أثرَ وطء الذئب ارتعد وخرج الدخان من جسده كلِّه.

الذئب إذا رأى الإنسان مبطئًا خَطوَه وهو ساكنٌ سكت عنه، فإن رآه خاف وجبُن اجترأ[٩٤] وحمل عليه وكَبَسه.

وليس كلُّ ذئب يعدو ولكن هو الذي يكون ضاريًا، وفيه خَلَّتان: إحداهما أن يكون منفردًا يمشي وحده، والأخرى حدَّةُ سَمْعِه، إن خفي عليه مكانُ الغنم أتى مكانًا وعوى صوتين[٩٥] أو ثلاثة، ثم سكت منصِتًا لأصوات الكلاب التي مع الغنم ونباحِها حين سمعتْ عُواءه،[٩٦] فإذا سمع نباحَ الكلاب شدَّ[٩٧] مسرِعًا نحوها قاصدًا إليها، فإذا قرب من الغنم مالَ إلى ناحية أخرى خالية من مَحْرَس[٩٨] الكلاب، فاختطف ما أمكنَه خطفُهُ من الغنم.

حمار الوحش إذا ولَدَتِ الأنثى الأولادَ الذكور جاء الفحلُ فانتزع خُصَى تلك الذكور وقطعها بأسنانه لكيلا[٩٩] تُصَاد أو تشاركه في طَرُوقَةٍ،[١٠٠] إلا أن الأنثى ربما وَضعتْ ولدها في مكان غامضٍ حتى يشتدَّ جسمُه وتَصلُب حوافره، ويَقْوَى بالشدِّ على النجاة من الفحل، ولهذا السبب يقلُّ منها الفحول.

الحَرِيش[١٠١]دابة صغيرة في جِرم الجَدي ساكنةٌ جدًّا، غير أن لها من قوة الجسم وسرعة الحُضْر ما يُعجِز القناص[١٠٢] عنها، ثم لها في وسط رأسها قرن واحد منتصِب مستقيم، به تُناطح جميعَ الحيوان فلا يغلبها شيء.

احتَل لصيدها بأن تعرض لها فتاةً عذراء وضيئةً، فإذا رأتها وَثَبتْ إلى حِجْرها كأنها تريد الرضاع، وهذه محبة فيها طبيعية ثابتة، فإذا هي صارت في حِجر الفتاة أرضعتْها من ثديها على غير حضور اللبن فيها حتى تصير كالنَّشوان من الخمر والوَسْنان من النوم، فيأتيها القَنَّاص[١٠٣]على تلك الحال فيشدُّ من وَثاقها على سكون منها بهذه الحيلة.

الأُيَّل عدوُّ الحيات إن قربتْ منه حية فانْجَحرتْ في صَدْع صَفا ملأ الأُيَّلُ فاه من الغدير أو من حيث وَجد فدفَعه في ذلك الصَّدْع، ثم اجتذب الحية إليه بالقوة حتى يقتلها، وإن كانت فوق أنْزَلَها، وكذلك إن كانت أسفل، فإن كان جائعًا أكل ما أصاب منها وإن لم يكن به جوع

قَتَلها وتركها، فصارت الحيات ذوات السُّمِّ الزُّعاف المميت لكل من أصابه أو خالط بدنه غذاءَ هذه الأيايل، ويكون ملائمًا لها لذيذًا عندها.

وإن دُخِّن البيت الذي فيه الحيَّات بدخان حريق قرن الأُيَّل فَرَّت منه كلُّها خوفًا.

على أن الأُيَّل نفسه جبانٌ شديد الرعب، إذا أكل الحية بدأ بذنَبها حتى ينتهي إلى رأسها ثم يقطعه بأسنانه، وأكبرُ(١٠٤) من ذلك [أنه] يتعلَّق برءوسها وتبقى في الهواء. وتكثر فيه المِرَّة(١٠٥) ويَعْطَش عطشًا شديدًا فيَعوجِ إلى غدير الماء.

الغزال: يقال ليس في الحيوان أبصر من الظِّباء، ويقال لها باليونانية النَّظَّارة والمُبصِرة.

الثور دابَّة عَمولٌ كَدُودٌ، مقدَّرٌ جسمُه بقدر قوته. من طبيعته كثرةُ المنيِّ وتوقُّدُ شهوة السِّفاد، إن لم يُخْصَ لم يذَلَّل للعمل ولم يَسكُن ولم يصحَّ جسمُه لأن الغُلْمَة تحلُّ(١٠٦) جسمَه وتنحِله، والخِصَاء يقطع ذلك كلَّه. وبينه وبين الدُّبِّ(١٠٧) عداوةٌ شديدة.

أَعنُزُ(١٠٨) الجبل وكِباشُه وهي الأَرْوَاء والتَّياتِل هذا جنس متمرد في الجبال سريع الحُضْر في الشواهق والتوقُّل(١٠٩) فيها،(١١٠) وطبيعتُها أن تلد توائم.

قد يوجد من البهائم ما لا يَحمِل، فأما أنثى الخيل إذا كانت حاملًا فوَطِئتْ أثرَ الذئب بحافرها أجهضتْ حملَها.

الحمارُ في طبيعته معرفة صوت الإنسان الذي اعتاد استماعَه وإيناسه، لا يضلُّ عن طريق سلكه مرة ولا يخطئه، إذا ضلَّ راكبُه الطريقَ هداه وحمله على المَحَجَّة.

وأما حِدَّة السمع فليس في البهائم فيما يُذكَر أحدَّ سمعًا منه.

اليامُورة[١١١] دابة وحشية نافرة، لها قرنان طويلان كأنهما منْشاران تَنشُر بهما الشجر. إذا عَطِشتْ وردت الفرات وعليه غَياطِل[١١٢]وغِياض ملتفَّةٌ أشجارُها تفرَّعت من أغصانها غصونٌ طوال دقاق مشبَّكة، فإذا شربت رِيَّها وأرادت الصَّدَر اشتهت الاستتار[١١٣] والعدْو بين تلك الأشجار «ولجَّت[١١٤] هناك» فعلق قَرْناها بتلك الغصون اللَّدْنة المتينة وكلما عالجتْها لتُفلِت ازدادت ارتباطًا، فإذا ضَجرتْ مما وقعت فيه عجَّت جزعًا، وسمع القُنَّاص صوتَها فأتَوْها فقتلوها.

الجَمَل: حقود، يرتصد من ضارِبه الفرصة والخَلْوة لينتقم منه، فإذا أصاب ذلك لم يستبقِ صاحبَه. فأما ظهرُه فذو سَنام مقبَّب يكون لكثرة الحَمل واحتمال الثِّقْل، وأوصالُ ركبتِه وعراقيبُه كبارٌ صلاب، وأوتارها وعروقُها متينة شديدة، وعَصَبه وثيق لم يشتد[١١٥] بضغط التحام مفاصله واتصالها ولم يسترخِ مطويًّا،[١١٦] لكنها هُيِّئتْ على الاعتدال[١١٧] ليهون عليه بذلك البُرُوك والنهوضُ بحمله، مع تسهيل الارتقاء عليه في ذلك.

البغال: نوعٌ هَجِين قد أُنبِئنا أنه لا يَلد، إلا أنه أهدى للطريق[١١٨] للناس وأثبت حفظًا.

الثيران وكلُّ ذي قرن لا يأخذه الفُوَاق.

وأما سباع الطير وآكلات اللحم منها فصِلاب الأظفار، حُجْنُ[١١٩] المناقير ذات حدة وقوة، قوية الأجنحة.

والنواهض[١٢٠] التي فيها القوادم أكثر طيرًا.

الديك صَلِف في طبيعته، غير أن له مع ذلك إيقاظًا للنائم بصياحه في آناء الليل، والتبشيرَ بإقبال الصبح وطلوعِ الشمس، يؤنس السيارات في السَّفَر[١٢١] بصياحه في الليل، ويحرِّضهم على السير، مع إيقاظه الفلَّاحين لعملهم والصُّنَّاع لصناعتهم، وإذا سمع المرضى صوتَه داخَلَهم من[١٢٢] ذلك رَوْحٌ وخفَّة من مرضهم.

الطاووس يحب الزينة، غيرُ عفيف الطبيعة، يدعوه زهوه وحرصُه على التزيُّن إلى نشر ذنَبه وعقدِه كالطاق لتراه الأنثى بحسن زينته.

الكراكيُّ تتحارس[١٢٣] بالليل، ويجعل الحارس منها يتردد في المحلة ويهتف بصوت يُسمَع محذِّرًا،[١٢٤] فإذا قضى نوبتَه استراح وأعقبه الذي كان مستريحًا نائبًا عنه حتى تقضي كلُّها ما يلزمها من الحراسة، فإذا طارت لم تَطِر متقطعةً لكنها تطير نَسَقًا غير مشتَّتة، يَقدُمها واحد منها كالرأس والهادي لها حتى تتلوه كلُّها لازمةً صفَّها، ثم يعقبه

بعده آخَر متقدِّم حتى يصير المتقدم الأول متأخرًا في آخرها، وتقتسم كرامة المتقدم كلُّها بالسويَّة. وفيها ما يبعد سفرُه وينتقل عن مصيفه إذا هجم الشتاء.

البطُّ له يقظة حارسة تدل على حدة حسِّه.

الجراد معروف الحال.

العُقاب تطلب عين[١٢٥] الماء، فإذا أصابتها تحلِّق طائرةً إلى حر الشمس وهو موضع دورانها فيحترق ريشها وما كان من جناح، ثم تغوص في تلك العين فإذا هي قد عادت شابَّة[١٢٦] «وتذهب ظلمة عينيها».[١٢٧]

وأما الطريح[١٢٨] فيقيِّض الله له طائرًا يقال له «قاس»[١٢٩] فيضمه إليه ولا يدعه يهلك، ولكنه يقوِّيه ويربيه مع أفراخه.

وأجنحة العِقْبان مفصَّلة شِبْه ريشها.

وبصرها قوي بعيد تحت الشعاع المستنير.

ويقال إنها أبصر الطير.

الحَجَل يأتي أعشاش نظرائه فيسرق بيضها ثم يحضُنها، فإذا تحرَّكَتِ الفراخُ وطارت لحقتْ بأمهاتها.

البُوم مأواه ومحلُّه الخراب، يوافقه الليل لأنه بالليل بصير وبالنهار كَلِيل، مع حبِّه التوحُّد والخلوةَ بنفسه. وبينه وبين الغِربان عداوة ما تنقضي.

النَّسر يتَّخذ وكره في المكان العالي المرتفع وعليه يقع وفيه ينام كالراصد، إما في ذروة الجبل أو في وسطه من شظاياه[١٣٠] وثناياه وموضع المَنَعة.

وإذا حملتْ زوجتُه مضى إلى الهند فأخذ من هناك حجرًا كهيئة الجَوزة، إذا حُرِّك سُمِع به صوتُ حَجرٍ آخَر – يتحرك في وسطه[١٣١] – كصوت الجَرس، فإن عسرتْ على زوجته الولادةُ جَعلتْ ذلك الحجر تحتها وعَلتْ عليه فيذهب عنها العُسْر.

قال: ورأيتُ مرة أنثى من جنس الطير مات زوجها فامتنعت من الطعام والنوم ليالي[١٣٢]كثيرة، صارت فيها كالنائحة الباكية على زوجها بتنفُّس الصعداء وزَفَرات الحُزن لا تَلقُط أيامًا متتابعة شيئًا.

البُزاة من طبيعتها أن تداوي أنفسها وفراخَها فلا تموت، لأنها تَستعمل في بعض المرض والداء[١٣٣] نَبْتَةً تعرفها وتعرف طبَّها ... «ومنه ما ينقص ويزيد».[١٣٤]

النعام: لا يَعول أفراخه إلا أيامًا يسيرة، ثم يُدحِضُها[١٣٥] ويطردها من عنده إنكارًا لها.

الغُداف لا يبيض ولا يُفرِخ من سِفاد، فإذا أفرخت أُنثاه فراخًا لم يَزُقَّها[١٣٦] ولم يُطعمْها، إلا [أن] [١٣٧] البقَّ والبعوض يقع عليها لزهومتها ونتن لحمها، فتفتح أفواهها وتَبلع ما دخل فيها من ذلك البقِّ فهو يمسكها ويقوِّيها.

أنحاء طيران الطير مختلفةٌ كاختلاف الطير؛ بعضها يطير قريبًا من الأرض كالبط وما أشبهه، وبعضها يرتفع غير أنه لا يُبعِد كالحمام والغِرْبان، وبعضها يحلِّق تحليقًا كالعُقاب والصُّقور[١٣٨] والأجادِل والبُزاة.

وما كان من الطير بدنه أعظم من جناحه فهو قريب الطيران من الأرض، لسرعة إخْناء أجنحته واضطراره إلى الوقوع على الأرض.

البيضانيُّ[١٣٩] والأَبْغَث: [١٤٠] هذا طائر يحب ولده، فإذا تحركت فراخه ودَرَجتْ ضربت وجهه بأجنحتها فيدعوه المَحْك والغضب المطبوعان فيه إلى قتلها، فإذا ماتت اكتأب عليها الأبوان وأقاما عليها شبه المأتم ثلاثة أيام، ثم إن الأم في اليوم الثالث تشقُّ جَنْبَها حتى يَقطُر دمُها على تلك الفراخ فيصير ذلك نشورًا لها بعد موتها.

مالك الحزين[١٤١] يَنشُل الحيتانَ من الماء فيأكلها وهي طعامه. لا يُحسِن السباحة، فإن أخطأه انتشالٌ فجاع طرح نفسه على شاطئ النهر في بعض ضحضاحه، فإذا اجتمعت إليه السمك الصغار لتأكله أسرع [لأكل] [١٤٢]ما يؤكل منه.

من الطير ما يَلقَح من هبوب الريح، لا يحتاج إلى تزاوُج ولا إلى سِفاد.

والخفَّاش له خصيتان كخُصَى الحيوان، وله أربع قوائم وأسنان حداد كأسنان ذوات الأربع، يُرضِع ولدَه من اللبن إرضاعًا، وجِلدُه أملس.

العَقْعَق لا يأوي تحت سقف ولا يستظلُّ به، ولكنه يهيِّئ وكْره في المواضع المشرفة العالية والعراء الكاشف وجهَ الهواء الفسيح، وطبيعته الزنا وخيانة الزوج، فإذا باضت الأنثى بيضها حصَّنتْه بوَرَق الدُّلْب وغطَّتْه كيلا يقربَه الخفاش، فإن مسَّه مَرِق(١٤٣) البيضُ من ساعتِه وفسد.

النحل يلد من غير لقاح الذكور.

الحية إذا هَرِمتْ وكَلَّ بصرها واسترخى جلدها دخلت في صَدع صفاة ضيِّق أو جُحْر ضاغط يعسر عليها النفوذ فيه حتى ينسلخ عنها جلدها، فتأتي عين الماء فتنغمس فيها حتى يقوى لحمها وينعصب، فإذا هي فعلت ذلك عادت شابَّة كما كانت. فإذا أرادت أن تضيء(١٤٤) عينها أكلت الرازِيانج الرطب فاشتفت عيناها واحتد بصرها. وإن ضُربتْ ضربة بقصبة استرخت فلم تستطع الفرار، فإن ثنيتَها وَثَبتْ وسعتْ هاربة.

إن أُنْقِع الحَسَك(١٤٥) في الماء ثم نُضح ذلك الماء بين يدي جُحر الحية فرت من هناك.

وإن وُضِعَ في جُحْرها أصل حِمَّصٍ رطْب فرَّت أيضًا.

وإن رأت الحية إنسانًا عُريانًا استحيتْ منه ولم تقرَبْه.

وإن رأته كاسيًا[١٤٦]حملتْ عليه بجرأة شديدة، وما أشدَّ طلبَها لثأرها، وإن شُدِخ رأسُها ماتت من ساعتها.

السِّمْسِمَة، وهي حية حمراء براقة، إذا كبرتْ وأصابها وجعُ العين وكَمِدتْ[١٤٧] التمست حائطًا مقابل المشرق، فإذا تبدَّت الشمس أحدَّت إليها بصرها قدرَ ساعة، فإذا دخل شعاع الشمس عينَها كشط عنها العَمَى والإظلام، ولا تزال تفعل ذلك سبعة أيام حتى يتجدد بصرُها تامًّا.

الأفعى تُزاوج دابَّةً بحريةً، تأتي الأفعى شفيرَ البحر فتصوِّت، وصوتها مُهَيِّجٌ لتلك الدابَّة البحرية.

من أحرق عَقربًا طَرَد برائحة حريقِها عقارب ذلك البيت.

فأما حُمة العقرب فهي جوفاء كهيئة المزمار معقَّفة الرأس مكوَّنة للَّدغ، فإذا ضربتْ شيئًا تحركتْ فخرج سمُّها وجرى في حُمتِها وسَرَى في المَلْدُوغ.

الإناث من بنات عِرسٍ إنما تَلقَح من أفواهها وتلد من آذانها.

من عادة هذا الجنس أن يسرق ما وَجد من حُليِّ الذهب والفضة ويَخبَؤه في جِحَرته، فإن وَجد أيضًا في البيت حُبوبًا[١٤٨] خلط بعضها ببعض، كأن عملَه عملُ الطباخين في خلط التوابل.

الفار الفارسيُّ أطيبُ رِيحًا من كلِّ طِيب.

وإن أخذ إنسان جرذًا فربطه في بيت فرَّت منه الجُرْذان كلُّها.

وإن وُضع في جُحر الجرذ البريِّ ورقُ الدِّفْلَى(١٤٩) ماتت الجرذان.

الدودة الهندية هي دودة القزِّ، لها في رأسها قرنان، ثم تتحول بيضة ثم تتصور في هيئة أخرى، ذات جناحَين عريضَين منتصبَين، وصناعتُها دِمَقْس الحرير.

النمل عَمول مواظب، فإذا جَمع الحبَّ قطَّعه كيلا يَنبت إذا أصابه النَّدَى والبِلَّة، ويُخرِجُه ويبسطُه عند فم الجُحر، فإذا يَبِس أَدخله.

ومن جرَّب طبائع النمل أدرَك عِلمَ أزمان المطر والصَّحْو.

ومن أراد أن يقتل النمل فليدقَّ الكِبريت والحَبَق(١٥٠) ويذرَّهما في جِحَرَته. ولا يُولَد من تزاوُج،(١٥١) ولكنه يخرج منه شيء قليل صغير فيقع في الأرض فيصير بيضًا، ثم يتصوَّر من البيض بالهيئة التي تُرى، وإذا شمَّت الورد مُوِّتت وأجنحتها مُدمَجةٌ لاصقةٌ بها.

البقُّ والبعوض لا نِتاج لهما، وإنما تُنْجَل(١٥٢) من عفن الماء ووَسخِه ونَتْنِه.

ومن وضع غصن العنب في موضعٍ تحت سريره لم يقربْه بقٌّ ولا بعوض.

ومن أراد ألا يتأذَّى بالبراغيث فليَحفِر في وسط البيت حفرة ويملأْها دم تيس فإن البراغيث تجتمع هناك.

وإن وَضع في الحفرة ورق دِفْلَى ماتت البراغيث.

الخُلْد غير ذي عينَيْن، دائم الحَفْر في غير نفع، وطعامُه من أصول النبت وعروقِه الذاهبة في الأرض، فهو يصيب ذلك في خلال حَفْرِه.

يقال: إن في بلد كذا نهرًا ماؤه في البحر منحدرًا إليه على حال طبيعته ستَّ ساعات، وفي الست الثانية يَحتبس ماؤه في ينبوعه ويُرَى جوفُه ناضبًا(١٥٣) قد يَبس.

ونهرًا آخرَ يجري في كل سبع سنين نهر كبريت، ولا يكون فيه سمك لأن ماءه يتغير في كل يوم ثلاث مرات، وينبعث(١٥٤) منه شبه ثور ليس له رأس.

وأهل الشأم إذا أرادوا أخذَه ألقَوْه في سفينة، ولا يستطيعون قطعَه بفأس ولا كسرَه بحجر، إنما يُؤتَى بالماء المُنْتِن ودمِ الحيض فيُخلَطان جميعًا ثم يُنضَحان عليه، فإذا وقعا عليه تحلَّل وتكتَّل كُتَلًا(١٥٥) صغارًا، وتُستعمَل في أشياء يُنتفَع بها.

عين النار تنبع منها نارٌ تضيء بالليل للسيَّارات فلا تَطْفَأُ[١٥٦] ولا تحتاج إلى شيء يمسكها، لكنها محفوظة بالحجارة، إن حَمَل إنسانٌ منها شُعلةَ قَبَسٍ إلى موضع لم تُوقد.

البحر الميت يقال له ذلك لأنه يموت فيه كلُّ حي.

السَّرَطان ينسلخ جلده في السنة سبعَ مرات، ويتخذ بجُحْرِه بابين: أحدهما شارعٌ إلى الماء، والآخَر إلى اليُبْس، وإذا سُلخ جلده سَدَّ عليه الشارعَ إلى الماء لكيلا يَدخل السمكُ فيأكلَه، إلا أنه يدع الذي إلى اليبس مفتوحًا فتصيبه الريح وما ينفع لحمَه ويَعصِمه، فإذا اشتد لحمه وعاد إلى حاله فتَح ذلك المسدود وسَلَك في الماء وطلب طعمَه وما يقيم حياته.

الزامور حوت صغير الجسم إِلْفٌ لأصوات الناس، مستأنِسٌ باستماعها، ولذلك يصحب السفن متلذِّذًا بأصوات الناس، فإذا رأى الحوت الأعظم يريد الاحتكاكَ بها وكسرَها، وَثَب الزامور ودخل أذنَه فلا يزال زامرًا فيها حتى يفرَّ الحوت إلى الساحل يطلب خَزَفًا أو صخرة، فإذا أصاب ذلك لا يزال يَضرب به رأسَه حتى يموت.

وركَّاب السفينة يحبونه ويُطعمونه ويتفقدونه ليدوم إلفُه لهم وصحبتُه لسفينتهم، ويَسلَموا به من ضرر السمك العادي.

وإذا ألقَوا شبكةً ليصطادوا السمك فوقع فيها الزامور خلّوه حيًّا وأخذوه[١٥٧] وأعتقوا لكرامته أصناف السمك الواقع في الشبكة أحياءً.

وإني [قرأت] [١٥٨] هذا الفصل على الوزير – كبت الله كلَّ شانئٍ له – في ليلتَين، فتعجب وقال: ما أوسعَ رحمة الله! وما أكثرَ جندَ الله! وما أغربَ صنعَ الله! قلتُ: نعم، وما أغفلَ الإنسانَ عن حق الله الذي له هذا المُلك المبسوط،[١٥٩] وهذا الفَلَك المربوط، وهذه العجائب التي تصعد[١٦٠] فوق العقول التامَّة بالاعتبار والاختبارِ بعد الاختبار! وإنما بثَّ الله تعالى هذا الخَلق في عالَمه على هذه الأخلاق المختلفة والخِلَق المتباينة، ليكون للإنسان المشرَّف[١٦١] بالعقل طريقٌ إلى تَعرُّف خالقِها، وبيانٌ لصحة توحيده له بما يشهد من أعاجيبها، ونَيلٌ لرضوانه بما يتزود من عِبَره التي يجد فيها، وليكون له موقظٌ منها، وداعٍ حادٍ[١٦٢] إلى طاعة مَن أبداها وأبرزها، وخلطها وأفرَدَها.

فقال: قد كنتَ قلتَ إنه يجري كلامٌ في النَّفْس منذ ليالٍ، فهل لك في ذلك؟

قلتُ: أشدُّ الميل[١٦٣]وأوحاه، لكن بشرط أن أحكِي ما عندي، وأروي ما حصَّلتُ من هذه العصابة بسماعي وسؤالي. فقال: نستأنف[١٦٤]الخوض في ذلك – إن شاء الله – فإن النَّعْسة[١٦٥]قد جذبت العين فأنا كما قال:

قد جَعل النُّعاس يَغْرَنْدِيني[١٦٦] أدفعُه عني ويَسْرَنْدِيني

أنشِدْني أبياتًا ودِّعني بها، ولتكن من سَرَاة[١٧٦]نَجْد ليُشتمَّ منها رِيحُ الشِّيح والقَيْصُوم.

فأنشدتُه لأعرابيٍّ قديم:

مُطِرْنا فلما أن رَوِينا تهادرت ... شَقاشِقُ منها رائبٌ وحليبُ[١٦٨]

ورامتْ[١٦٩] رجالٌ من رجالٍ ظُلامةً ... وعادت ذُحولٌ بيننا وذُنوب[١٧٠]

ونَصَّتْ رِكابٌ للصَّبا فتروَّحت ... لهنَّ بما هاج الحبيبَ حبيبُ[١٧١]

وطِئن[١٧٢] فِناء الحيِّ حتى كأنه ... رجا[١٧٣] منْهلٍ من كَرِّهِنَّ نَخِيب

بني عمِّنا لا تعجلوا ينضب الثَّرى ... غليلًا ويَشْفِي المُسْرِفِين طبيبُ[١٧٤]

فلو قد تولَّى النبت وامْتيرت القُرى ... وحُثَّت رِكابُ الحيِّ حين تئوب[١٧٥]

وصار[١٧٦] عَيُوفَ الخُودِ وهي كريمةٌ ... على أهلها ذو جِدَّتَين قشيبُ[١٧٧]

وصار الذي في أَنفِه خُنْزُوانَةٌ[١٧٨] ... يُنادَى إلى داعي الرَّدَى فيجيب

أولئك أيامٌ تُبيِّن ما الفتى ... أَكابٍ[١٧٩]سُكَيْتٌ[١٨٠] أم أَشَمُّ نجيبُ؟

فعجب وقال: هذا جَنَى غَرْسٍ قد جُذَّ أصلُه، ونزيح قَليبٍ قد غار مَدُّهُ وجَزْرُه. وانصرفتُ.

هوامش

(١) «الطير».

(٢) القبج: الكِرْوان.

(٣) الفاختة: ضرب من الحمام المطوَّق.

(٤) الحجل: طائر على قدر الحمام كالقطا، أحمر المنقار والرجلين، ويُسمَّى دجاج البر، وهو صنفان: نجديٌّ وتهاميٌّ، فالنجديُّ أخضر اللون أحمر الرجلين، والتهامي فيه بياض وخضرة.

(٥) الفرط: الجبل الصغير أو رأس الأكمة.

(٦) الدلفين: من دواب البحر، اشتُهر بأنه ينجي الغريق، وصفتُه كالزِّقِّ المنفوخ، وله رأس صغير جدًّا، ولا يؤذي أحدًا، وهو كثير بأواخر نيل مصر.

(٧) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٨) «على».

(٩) «تتراوح».

(١٠) «والدجة».

(١١) نصول الحوافر: خروجها من مواضعها.

(١٢) «إلا أنس ولا يرى».

(١٣) «ناتئة».

(١٤) الغُداف: غراب كبير يكون ضخم الجناحين.

(١٥) الحرذون: دويبة شبيهة بالضب، وقيل: ذكر الضب.

(١٦) يُلاحَظ أنه قد سبق ما يفيد معنى هذه العبارة التي بين هاتين العلامتين.

(١٧) «ملاصقًا لها».

(١٨) «خائفة».

(١٩) «ومن».

(٢٠) «الصبح»، وهو تبديل وقع من الناسخ يناقض ما قبله.

(٢١) هذه التكملة التي بين مربعين لم ترد في الأصل، والسياق يقتضيها.

(٢٢) «بإناء».

(٢٣) «الخبائث».

(٢٤) هذه الكلمة التي بين مربعين ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٢٥) شهل: من الشهلة بضم الشين، وهو أن يشوب سواد العين زُرقة، وقيل أن تشوب الحدقة حمرة وليست خطوطًا.

(٢٦) «السر».

(٢٧) «الثانية».

(٢٨) «وأنبت».

(٢٩) الإبل.

(٣٠) «كما إذا».

(٣١) هذه التكملة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٣٢) «يسيل».

(٣٣) «اختراق».

(٣٤) «لأنه»: أي داء الثعلب. «يسقطه»: أي يسقط الشعر.

(٣٥) «شم».

(٣٦) في الأصل: «الأعنز البرية حيتانًا»، بسقوط كلمة «تألف» أو ما يفيد معناها.

(٣٧) «وذبوا».

(٣٨) [ظهرت].

(٣٩) «شيئًا».

(٤٠) «سنوها».

(٤١) الورشان: طائر شبه الحمام، وهو نوبي وحجازي، والنوبي أشجاها صوتًا.

(٤٢) التدرج: طائر كالدراج حسن الصوت يغرد في البساتين.

(٤٣) «يشتروا».

(٤٤) «فيفرُّ»، وهو تحريف.

(٤٥) «لكرم». والكدم: العض.

(٤٦) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٤٧) «أغطاه».

(٤٨) «السفا».

(٤٩) «حادُّ».

(٥٠) لم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا ما يفيد أن لفظ الحرذون غير عربي ولا أن تفسيره بالعربية ما ذكره المؤلف، كما أننا لم نجد ذلك فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة في الحيوان.

(٥١) «وينفخ».

(٥٢) في الأصل: «وتخلد وتفرح.» والمراد بالجلد هنا جلد عميرة.

(٥٣) «سر».

(٥٤) «فظن».

(٥٥) وردت هذه الكلمة في الأصل هكذا: «يبنون».

(٥٦) بطرفه: أي طرف مقدَّم السفينة. واللطيف: الدقيق.

(٥٧) «لسفينتها».

(٥٨) الحريش: دابة صغيرة في جرم الجدي ساكنة جدًّا، غير أن لها من قوة الجسم وسرعة الحركة ما يُعجز القناص، ولها في وسط رأسها قرن واحد مصمت مستقيم تناطح به.

(٥٩) الخلد: دويبة تحت الأرض، وهي ضرب من الجرذان.

(٦٠) العقعق: طائر على قدر الحمامة وعلى شكل الغراب، وجناحاه أكبر من جناحي الحمامة، ذو لونين أبيض وأسود، طويل الذَّنَب.

(٦١) الباشق: ضرب من بزاة الصيد، وهو طائر خفيف المحمل شديد الهلع، يأنس حينًا ويستوحش حينًا.

(٦٢) الواو في قوله «وبين يديه» واو الحال، أي كأنه يعاينها حال كون أحدهما ماثلًا بين يديه يعاينه. وفي الأصل: «يعيانه وبين يديه بأحدهما.»

(٦٣) «الدين». والدبر: الزنابير.

(٦٤) «سورها».

(٦٥) الظاهر أن هنا كلامًا سقط من الناسخ، إذ كان مقتضى السياق أن يتحدث عن النحل بعد الدبة.

(٦٦) الغيالم: ذكور السلاحف، الواحد غيلم بفتح أوله.

(٦٧) «وإن لم يفترس».

(٦٨) يفيد قوله: «وأما الأسد خاصة ... إلخ» أن هنا كلامًا قبل ذلك في أصناف الحيوان الذي له قرين من جنسه، وسقط هذا الكلام من الناسخ.

(٦٩) يهر: أي يجعلها تصوت من الفزع والخوف.

(٧٠) «ويحرو».

(٧١) «البير».

(٧٢) الخب بكسر الخاء وتشديد الباء: الخداع والمكر.

(٧٣) كذا في الأصل. والذي في ابن البيطار: «قنطوريون، وهو صنفان: كبير وصغير، فالكبير له ورق شبيه بورق الجوز أخضر مثل ورق الكرنب، وله ساق

شبيهة بساق الحمَّاض طولها ذراعان أو ثلاث، وله شعب كثيرة من أصل واحد، عليها رءوس شبيهة بالخشخاش ... إلخ»، وهذا هو المراد هنا.

(٧٤) «قتله».

(٧٥) «السر».

(٧٦) «القابض».

(٧٧) «الحذر».

(٧٨) «مخالف».

(٧٩) عبارة حياة الحيوان: الضبع إذا وطئت ظل الكلب في القمر وهو على سطح وقع الكلب فأكلته.

(٨٠) يُلاحَظ أنه قد سبق [قريبًا] ما يفيد معنى هذا الكلام الذي بين هاتين العلامتين، الجزء الأول، الليلة العاشرة.

(٨١) في الأصل: «يصل»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه ما يأتي [قريبًا].

(٨٢) «مغادرته».

(٨٣) «الفساد».

(٨٤) «وحصانًا».

(٨٥) «اللقاح» بالقاف.

(٨٦) تلك البلاد: أي التي تكون فيها الفيلة.

(٨٧) «منقره».

(٨٨) «مناقيرها».

(٨٩) السمندل: دابة دون الثعلب خلنجية اللون، حمراء العين، ذات ذنب طويل. وقيل: طائر.

(٩٠) «وأرواح هبوبه».

(٩١) «يستزيد».

(٩٢) «والحشاشة».

(٩٣) عبارة الأصل: «وضع أشلاءه»، والكلمة الأولى زيادة من الناسخ، وفي الثانية تحريف.

(٩٤) «واجترأ».

(٩٥) «قوتين».

(٩٦) «عداه».

(٩٧) «مدَّ».

(٩٨) «محرمن».

(٩٩) يريد بقوله «لكيلا تصاد» أنها إذا خصيت قويت على الجري، فلا يقوى الصيادون على اصطيادها.

(١٠٠) يريد بالطروقة: الأتان التي يطرقها الفحل.

(١٠١) «الحرس».

(١٠٢) «القياس».

(١٠٣) «الناس».

(١٠٤) أي وأكبر مما مرَّ من دلائل جبنه أنه لا يقطع رءوسها بأسنانه كما سبق، بل يتعلق بها فلا يأكلها خوفًا ولا يلقيها من فيه فتبقى رءوسها معلقة في الهواء. هذا ما يلوح لنا من معنى هذه العبارة.

(١٠٥) المرة: خلط من أخلاط البدن، وهي الصفراء.

(١٠٦) «تدخل».

(١٠٧) «الذئب».

(١٠٨) «أنعج»، ولم نجد هذا الجمع في كتب اللغة.

(١٠٩) التوقل: الصعود.

(١١٠) «في الما».

(١١١) «التامورة».

(١١٢) الغياطل: الكثير الملتف من الشجر والنبات.

(١١٣) «الانتيار».

(١١٤) وردت هذه العبارة في الأصل مؤخَّرة عن هذا الموضع، والسياق يقتضي وضعها هنا.

(١١٥) «لم يستبد».

(١١٦) «مطريًّا».

(١١٧) في الأصل: «الاقتدار»، وهو تحريف. والمراد بالاعتدال هنا أن أعصابه ليست شديدة ولا مسترخية، بل هي بين ذلك.

(١١٨) أهدى للطريق للناس: أي أكثر هداية لراكبه من الناس إلى طريقه.

(١١٩) حجن المناقير: أي مُعْوَجَّتها، الواحد أحجن، والأنثى حجناء.

(١٢٠) النواهض: فراخ العقبان التي وفرت أجنحتها وقويت على الطيران، الواحد ناهض. وفي الأصل: «والمناهض»، ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة.

(١٢١) «يؤنس في السفر والسيارات لصياحه».

(١٢٢) «مع».

(١٢٣) «تتحاربن».

(١٢٤) «محددًا».

(١٢٥) «من».

(١٢٦) «مثابة».

(١٢٧) وردت هذه العبارة في الأصل قبل هذا الموضع.

(١٢٨) يريد بالطريح: الملقى الذي لا يقدر على الطيران لضعفه من المرض ونحوه.

(١٢٩) لم نجد اسم هذا الطائر فيما راجعناه من الكتب.

(١٣٠) شظايا الجبل: قطع ضخام تنقلع من عرضه ولم تنفصل انفصالًا تامًّا، تشبيهًا لها بالشظايا المعروفة. وثناياه: العقبات فيه.

(١٣١) «صوته».

(١٣٢) «ليال».

(١٣٣) «والدانيتة».

(١٣٤) لم يتضح لنا وجه الاتصال بين هذه العبارة وما قبلها. فلعل هنا كلامًا سقط من الناسخ.

(١٣٥) يدحضها: يدفعها.

(١٣٦) «يدقها».

(١٣٧) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضي إثباتها.

(١٣٨) «والسنور».

(١٣٩) كذا ورد هذا اللفظ في الأصل، ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة والكتب المؤلَّفة في الحيوان.

(١٤٠) وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط، والصواب إثباتها على هذا الوجه. والأبغث: طائر من طير الماء كلون الرماد، طويل العنق، وسُمِّي أبغث لبغثته وهي بياض إلى الخضرة، وهو من شرار الطير.

(١٤١) مالك الحزين: من طير الماء، وهو البلشون، طويل العنق والرجلين.

(١٤٢) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها لم ترد في الأصل.

(١٤٣) مرق البيض: صار ماءً وفسد. وفي الأصل: مرت.

(١٤٤) «تفنى».

(١٤٥) الحسك محركًا: نبات له ثمرة شائكة مدحرجة تعلق بأصواف الغنم.

(١٤٦) «كابسًا».

(١٤٧) كمدت عينها: أي ذهب صفاؤها، من الكمدة وهي تغير اللون وذهاب صفائه.

(١٤٨) «جنوبًا».

(١٤٩) الدفلى: نبت مر الطعم جدًّا، وهو بري ونهري، فورق البري كورق الحمقاء بل أرق، وقضبانه طوال منبسطة على الأرض، وعند الورق شوك، والنهري ينبت في شطوط الأنهار، وشوكُه خفي، وورقه كورق الخلاف وورق اللوز عريض، وزهره كلُّه كالورد الأحمر، وحمله يشبه الخرنوب.

(١٥٠) الحبق محركة: نبات طيب الرائحة، حديد الطعم، ورقه كورق الخلاف، منه سهليٌّ ومنه جبليٌّ، وهو الذي يقال له الفوتنج. وقال أبو حنيفة: إنه يشبه الريحانة التي تُسمَّى النمَّام، ويكثر نباته على الماء، وهو أنواع كثيرة.

(١٥١) «يراوح».

(١٥٢) تنجل: أي تولد.

(١٥٣) «ناصبًا».

(١٥٤) «ينبع».

(١٥٥) «وتكيل كيلًا».

(١٥٦) «يطفئها».

(١٥٧) عبارة الأصل: «وأخذوا أصناف السمك.» وقوله: «وأخذوا» واقعة في غير موقعها، وقد أثبتناها في الموضع اللائق بها لاستقامة الكلام بذلك.

(١٥٨) عبارة الأصل: «وأن هذا الفصل على الوزير كتب الله.» وفيها نقص وتحريف كما هو ظاهر.

(١٥٩) «المسبوط».

(١٦٠) «تصد».

(١٦١) للشرف.

(١٦٢) «صام».

(١٦٣) «المثل».

(١٦٤) «نستأذن».

(١٦٥) «النقس».

(١٦٦) يغرنديني ويسرنديني: يريد أن النعاس يغلبه ويعلوه. وفي الأصل: «يعرنديني» بالعين المهملة. ولم يرد في اللسان قائل هذا الشعر.

(١٦٧) «سرارة».

(١٦٨) تهادرت: أي تساقطت. والشقاشق: جمع شقشقة، وهي جرة البعير، معروفة، وكنى بتهادر الشقاشق عن الخصومة بين القوم وتنمر بعضهم لبعض، يقول: لما أخصبت أرضنا تنمر بعضنا لبعض وتهيَّأ كل فريق منا لمحاربة فريق، كما يدل على ذلك البيت الذي يليه.

(١٦٩) «رانت».

(١٧٠) الذحول: جمع ذحل بفتح الذال، وهو الثأر.

(١٧١) ونصَّت ركاب للصبا: أي رفعت أعناقها لريح الصبا تستروحها. وفي الأصل: «وفضت»، وهو تحريف.

(١٧٢) «وطين».

(١٧٣) رجا البئر: ناحيته. وفي الأصل: «وحا»، وهو تحريف. والنخيب: المنخوب، أي المنزوع الجوف، وفي الأصل: «يجيب»، شبه فناء الحي وقد وطئته هذه الركائب بجانب منهل منخوب الجوف مهدَّم من كثرة ما تطؤه أقدام الوُرَّاد.

(١٧٤) نضوب الثرى: كناية عن التقاطع بين القوم، قال جرير:

فلا توبسوا بيني وبينكم الثرى فإن الذي بيني وبينكمُ مثرى

(١٧٥) امتيرت القرى: انتُجِعت وطُلِبت منها الميرة.

(١٧٦) صاره يصوره: أي ضمَّه إليه وأماله نحوه، يشير إلى حلول الجدب وإرخاص الفقر أقدار العلية، فيستطيع من له ثوبان أن يضم إليه أكرم العقائل الكريمة على قومها بما له من يسير غنًى وإن اتَّضَع نسبه.

(١٧٧) «مشيب».

(١٧٨) الخنزوانة: الكبر.

(١٧٩) «أكان».

(١٨٠) السكيت: الذي يجيء آخر خيل الحلبة.

الليلة الثالثة عشرة[1]

فلما حضرتُ ليلةً أخرى قال: هاتِ. قلتُ: إن الكلام في النفس صعب، والباحثون عن غيبها وشهادتها وأثرها وتأثُّرها في أطراف متناوحة،[2] وللنظر فيهم مجال، وللوهم عليهم سلطان، وكلٌّ قد قال ما عنده بقدر قوَّته ولحظِه، وأنا آتي بما أحفظه وأرويه،[3] والرأي بعد ذلك إلى العقل الناصح والبرهان الواضح.

قال بعض الفلاسفة: إذا تصفَّحنا أمرَ النفس لحظناها[4] تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن، لأن الإنسان إذا تصوَّر بالعقل شيئًا فإنه لا يتصوره بآلة كما يتصور الألوان بالعين والروائح بالأنف، فإن الجزء الذي فيه النَّفْس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يستحيل من جهة [إلى] [5] أخرى عند تصوره بالعقل، فيظن الظانُّ منا أن النفس لا[6] تفعل بالبدن، لأن هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسمية.

وقد تعرف النفس أيضًا الآن من الزمان والوحْدة واليقظة، وليس لأحد أن يقول: إن النفس تعرف هذه الأشياء بحس من الإحساس، ففِعل النفس إذن يفارق البدن، وتأليف البرهان أن يكون على أن يقال: للنفس أفعال تخصُّها خلوٌّ من البدن، مثل التصور بالعقل، وكلُّ ما له فعل يخصُّه دون البدن فإنه لا يَفسد بفساد البدن عند المفارقة.

وقال أيضًا: وجدنا الناس متفقين على أن النفس لا تموت، وذلك أنهم يتصدقون عن موتاهم، فلولا أنهم يتصورون أن النفس لا تموت، ولكنها تنتقل من حال إلى أخرى إما إلى خير وإما إلى شر؛ ما كانوا يستغفرون لهم، وما كانوا يتصدقون على موتاهم ويزورون قبورهم.

وقال أيضًا: النفس لا تموت، لأنها أشبه بالأمر الإلهي من البدن، إذ كان يدبِّر البدن ويرأسه.

والله جلَّ وعزَّ المدبِّر لجميع الأشياء، والرئيسُ لها. والبدن أشبهُ شيء بالشيء الميت من النفس، إذ كان البدن إنما يحيا بالنفس.

وقال أيضًا: النفس قابلة للأضداد فهي جوهر، فالفائدة أن النفس جوهر.

وقال: النفس ليست بهَيُولَى، فلو كانت هَيُولى لكانت قابلةً للعِظَم، فليست النفس إذن بهَيُولَى.

وقال: ليست النفس بجسم، لأن النفس نافذة في جميع أجزاء الجسم الذي له نفْس، والجسم لا ينفذ في جميع أجزاء الجسم. (٧)ولا هيولى، لأن النفس لو كانت هيولى لكانت قابلة للمقادير والعِظَم، (٨) وفائدة هذا أن النفس جوهر على طريق الضرورة.

وقال آخر: حركةُ كلِّ متحرك تنقسم قسمين: أحدهما من داخل، وهو قسمان: قسم كالطبيعة التي لا تسكن البتة، كحركة النار ما دامت

نارًا، وقسمٌ هو كحركة[٩] النفس تهيج أحيانًا وتسكن أحيانًا، وكحركة جسد الإنسان التي تسكن إذا خرجتْ نفسه وصار جيفة.

والقسم الآخَر من خارج، وهو قسمان: أحدهما يُدفع دفعًا كما يُدفع السهم ويُطلَق عن القوس، والآخَر يُجَرُّ جَرًّا كما تُجَرُّ العَجَلة والجيفة.

وقال: فنقول: ليس يَخفى أن جسدنا ليس مدفوعًا دَفعًا ولا مجرورًا جرًّا، [ولمَّا] [١٠]كان كلُّ مدفوعٍ أو مجرور متحرك من خارجٍ متحرِّكًا لا محالة من داخل، فالجسد إذن متحرك من داخل اضطرارًا.

وقال: إن كان جسدنا متحركًا من داخل، وكان كل متحرك من داخل إما متحركًا حركةً طبيعية لا تسكن، وإما نفسية تَسْكن.

فليس[١١] يَخفَى أن حركة جسد الإنسان ليست بدائمة لا تسكن، بل ساكنة [لا] [١٢] تدوم، وكانت حركةُ كل ما سكنتْ حركتُه فلم تدم ليست حركةً طبيعية لا تسكن، بل نفسيةً من قِبَل نفسٍ تحرِّكه وتحسِّسه.

وقال: إن كانت النفس هي التي تُحيي الإنسان وتحرِّكه، وكان كلُّ محرِّك يحرِّك غيره حيًّا قائمًا موجودًا، فالنفس إذن حيةٌ قائمة موجودة.

وقال أيضًا: النفس جوهر لا عَرَض، وحدُّ الجوهر أنه قابل للأضداد من غير تغيُّر، وهذا لازم للنفس لأنها تقبل العلم والجهل، والبِرَّ والفُجور، والشجاعة والجبن، والعفة وضدها. وهذه أشياء أضدادٌ، من غير أن تتغير

في ذاتها، فإذا كانت النفس قابلةً لحدِّ الجوهر، وكان كلُّ قابل لحد الجوهر جوهرًا؛ فالنفس إذن جوهر.

وقال: قد استبان أن النفس هي المحيية المحرِّكة للجسد الذي هو الجوهر، و[لما] كان كلُّ مُحْيٍ محرِّكٍ للجوهر جوهرًا فالنفس إذن جوهر.

وقال: لا سبيل أن يكون المُحْيا المحرَّك جوهرًا ويكون المحيي المحرِّكُ غيرَ جوهر، فإذا كانت هي المحيية المحركة للجسد، وكان لا يمكن أن يكون المحيِي المحرِّك للموجود غيرَ موجود، فالنفس إذن لا يمكن [أن تكون] (١٣) غير موجودة.

وقال: إن كانت النفس بها قُوى وحياةُ الجسد، فيمتنع أن يكون قوامها بالجسد، بل بذاتها التي قامت بها حياة الجسد.

وقال: إن كانت النفس قائمة بذاتها التي قامت بها حياة الجسد، فما كان قائمًا بذاته فهو جوهر؛ فالنفس إذن جوهر.

وقد أملى علينا أبو سليمان كلامًا في حديث النفس هذا موضعه، ولا عذر في الإمساك عن ذكره ليكون مضمومًا إلى غيره، وإن كان كلُّ هذا لم يجْر على وجهه بحضرة الوزير – أبقاه الله ومد في عمره –لكن الخوض في الشيء بالقلم مخالفٌ للإفاضة باللسان، لأن القلم أطولُ

عِنانًا من اللسان، وإفضاءُ(١٤) اللسان أحرَج من إفضاء القلم، والغرض كلُّه الإفادة فليس يكثر الطويل.

قال: ينبغي أن نعرف باليقظة التامة أن فينا شيئًا ليس بجسم له مَدَّات ثلاث: أعني الطول والعرض والسَّمْك، ولا يُجزَّأ من جسم ولا عَرَض من الأعراض، ولا حاجة به إلى قوة جسمية، لكنه جوهر مبسوط غيرُ مُدرَك بحِسٍّ(١٥) من الإحساس. ولمَّا وجدنا فينا شيئًا غير الجسم وضدَّ أجزائه بحِدَته وخاصَّته، ورأينا له أحوالًا تُباين أحوال الجسم حتى لا تُشارِك في شيء منها، وكذلك وجدنا مباينته للأعراض، ثم رأينا منه هذه المباينة للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام أجسامًا والأعراض أعراضًا؛ قضينا أن ها هنا شيئًا ليس بجسم ولا جزءٍ من الجسم، ولا هو عَرَض، ولذلك لا يَقبل التغير ولا الحيلولة، ووجدنا هذا الشيء أيضًا(١٦) يطَّلع على جميع الأشياء بالسواء ولا يناله فتور ولا ملال، ويتضحُ هذا بشيء أقوله: كل جسم له صورة فإنه لا يَقبل صورةً أخرى من جنس صورته الأولى البتة إلا بعد مفارقته الصورةَ الأولى، مثال ذلك أن الجسم إذا قبل صورةً أو شكلًا كالتثليث، فليس يقبل شكلًا آخر من التربيع والتدوير إلا بعد مفارقة الشكل الأول. وكذلك إذا قَبِل نقشًا أو مثالًا فهذا حاله، وإن بقيَ فيه من رسمِ الصورة الأولى شيء لا يَقبل الصورة الأخرى(١٧) على النظم الصحيح، بل تُنْقَش فيه الصورتان ولا تتم واحدة منهما، وهذا يطَّرد في الشَّمَع(١٨) وفي الفضة وغيرها إذا قبل صورة نقشٍ في الخاتم. ونحن نجد النفس تقبل الصورَ كلَّها على

التمام والنظام من غير نقص ولا عجز، وهذه الخاصة ضدٌ لخاصة الجسم، ولهذا[١٩] يزداد الإنسان بصيرةً كلما نظر وبحث وارتأى وكشف.

ويتضح أيضًا عن كثب[٢٠] أن النفس ليست بعرَض، لأن العرَض لا يوجد إلا في غيره، فهو محمول لا حامل وليس هو قِوامًا، وهذا الجوهر الموصوف بهذه الصفات هو الحامل لما لها أن تَحْمِل، وليس له شبه من الجسم ولا من العرَض.

وكان يقول: إذا صدق النظر، وكان الناظر عاريًا من الهوى، وصحَّ طلبُه للحق بالعشق الغالب؛ فإنه لا يخفى عليه الفرق بين النفس المحرِّكة للبدن، وبين البدن المتحرِّك بالنفس.

قال: ولمَّا عرضت الشبهة لقوم قصر نظرهم، ولم يكن لهم لحظ ولا اطِّلاع؛ فظنوا أن الرباط الذي بين النفس والبدن إذا انحلَّ فقد بَطَلَا جميعًا.

وهذا ظن فيه عَسْف، لأنهما لم يكونا في حال الارتباط على شكل واحد وصورةٍ واحدة، أعني أنهما تباينا[٢١] في تصاحبهما وتصاحبا في تباينهما. [٢٢]

ألا ترى أن البدن كان قِوامُه ونظامُه وتمامه بالنفس؟ هذا ظاهر.

وليس هذا حكْم النفس في شأنها مع البدن، لأنها واصلَتْه في الأول عند مسقط النطفة، فما زالت تربِّيه وتغذِّيه وتُحْييه وتُسَوِّيه حتى بلغ

البدنُ إلى ما ترى، ووُجِد الإنسانُ بها لأن النفس وحدها ليست بإنسان، والبدن وحده ليس بإنسان، بل الإنسان بهما إنسان، فإذن الإنسانُ نصيبُه من النفس أكثر من نصيبه من البدن.

وهذه الكثرة توجد في الأول من ناحية شرف النفس في جوهرها، وتوجد في الثاني من جهة صاحب النفس الذي هو الإنسان بما يستفيده من المعارف الصحيحة، ويضمُّه إلى الأفعال الواجبة الصالحة. فأمر المعارف الصحيحة معرفة الله الواحد الحق باليقين الخالص، وأمرُ الأفعال الواجبة الصالحةِ العبادةُ له والرضوانُ عنه.

وغاية المعرفة الاتصالُ بالمعروف، وغايةُ الأفعال الواجبة الفوز بالنعيم والخلود في جوار الله، وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إلى الجَواز عليه كلُّ من رجع إلى بصيرة وآوَى إلى حُسْن سيرة.

فأمَّا مَن هو عن هذا كلِّه عَمٍ[٢٣] وعما يجب عليه ساهٍ؛ فهو في قطيع النَّعَم، وإن كان متقلبًا في أصناف النِّعَم.

وكان يقول كثيرًا: الناس أصناف في عقولهم: فصنفٌ عقولهم مغمورة بشهواتهم، فهم لا يبصرون بها إلا حظوظَهم المعجَّلة، فلذلك يكدُّون[٢٤]في طلبها ونيلها، ويستعينون بكل وُسْع وطاقة على الظَّفَر.

وصنف عقولُهم منتبهة،[٢٥] لكنها مخلوطة بسبات[٢٦] الجهل، فهم يحرضون على الخير واكتسابه ويخطئون كثيرًا، وذلك أنهم لم يَكمُلوا في

جِبِلَّتِهم الأولى، وهذا نعتٌ موجود في العبَّاد الجَهَلة والعلماء الفَجَرة، كما أن النَّعْت الأول موجودٌ في طالبي الدنيا بكل حيلة ومَحالة.

وصنفٌ عقولهم ذكيةٌ ملتهِبة، لكنها عَمِيَة عن الآجلة، فهي تدأَب في نيل الحظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللطيفة والسُّمْعة الربانية، وهذا نعت موجود في العلماء الذين لم تثلج صدورهم بالعلم، ولا حَقَّ عندهم الحقُّ اليقين، وقصَّروا عن حال أبناء الدنيا الذين يَشهَرون في طلبها السيوف الحداد، ويطيلون إلى نَيْلها السواعدَ الشِّداد[٢٧] فهم بالكيد والحيلة يسعَون في طلب اللذة وفي طلب الراحة.[٢٨]

وصنف عقولهم مضيئة بما فاء عليها من عند الله تعالى باللطف الخفيِّ، والاصطفاء السنيِّ، والاجتباء الزكي، فهم يحلمون بالدنيا ويستيقظون بالآخرة، فتراهم حضورًا وهم غَيَب، وأشياعًا وهم متباينون.

وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة، وإن كان الوصف قد جمعهم باللفظ.

وهذا كما تقول: «الملوك ساسةٌ، ولكل واحد منهم خاصة»، وكما يقولون: «هؤلاء شعراء، ولكل واحد منهم بحر»، «وهؤلاء بلغاء، ولكل واحد منهم أسلوب»، وكما تقول: «علماء، ولكل واحد منهم مذهب.»

وعلى هذا أبو سليمان – حفظه الله – إذا أخذ في هذا الطريق أطرب، لسعة صدره بالحكمة، و[فيض] صوبه من المعرفة، وصحة طبيعته بالفطرة.

وقال: إنا بعد هذا المجلس تركنا صنفًا لم نرسمه بالذكر ولم نعرض له(٢٩) بالاستيفاء، وهم الهمج الرَّعاع الذين إن قلت: «لا عقول لهم» كنت صادقًا، وإن قلت: «لهم أشياء شبيهة بالعقول» كنت صادقًا، إلا أنهم في العدد، من جهة النسبة العنصرية والجبلة الطينية والفطرة الإنسية، وفي كونهم في هذه الدار عمارة لها ومصالح لأهلها، ولذلك قال بعض الحكماء: «لا تسبوا الغوغاء فإنهم يُخرجون الغريق، ويطفئون الحريق، ويُؤنسون الطريق، ويَشهدون السوق.»

فضحك – أضحك الله ثغره، وأطال عمره، وأصلح شأنه وأمره – فقال: قد جرى في حديث النفس أكثر مما كان في النفس، وفيه بلاغ إلى وقت، وأظن الليل قد تمطَّى٣٠ بصلبه وناء بكلكله. وانصرفتُ.

هوامش

(١) يُلاحَظ أننا ذكرنا في الليلة السابقة أنها الليلة الحادية عشرة، والصواب أنهما ليلتان الحادية عشرة والثانية عشرة، كما يتبين ذلك من قوله في الجزء الأول، الليلة العاشرة: «وإني قرأت هذا الفصل على الوزير – كبت الله كل شانئ له – في ليلتين.» ولهذا جعلنا هذه الليلة الثالثة عشرة.

(٢) متناوحة: أي متقابلة.

(٣) «وأرومه».

(٤) «لحقناها».

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضي إثباتها.

(٦) في الأصل: «إنما»، والتعليل الآتي بعد يقتضي أداة النفي كما أثبتنا.

(٧) «النفس».

(٨) يُلاحَظ أن هذا الكلام مكرر مع ما سبق من قوله: النفس ليست بهيولي ... إلخ.

(٩) «حركة».

(١٠) هذه الكلمة ساقطة من الأصل.

(١١) في الأصل: «وقال ليس»، والظاهر أن قوله «وقال» زيادة من الناسخ.

(١٢) لم ترد هذه الكلمة في الأصل.

(١٣) هذه العبارة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، والسياق يقتضي إثباتها.

(١٤) «وقضا».

(١٥) «يحسن».

(١٦) هذه الكلمة وردت في الأصل في غير موضعها اللائق بها من العبارة، والسياق يقتضي وضعها في هذا الموضع.

(١٧× «الأولى».

(١٨) «السمع».

(١٩) «ولهاما».

(٢٠) «ونصح أيضًا عن كسب».

(٢١) «تثابتا».

(٢٢) «تثابتهما».

(٢٣) «عميم».

(٢٤) «يكسبون»

(٢٥) «متبه».

(٢٦) «بسيئات».

٢٧ «السداء».

(٢٨) «البرحة».

(٢٩) «عليه».

(٣٠) يشير إلى قول امرئ القيس يخاطب الليل:

فقلــت لــه لمَّــا تمطَّــى بصــلبه		وأردف أعجــازًا ونــاء بكلكــل

كنى بذلك عن طول الليل.

الليلة الرابعة عشرة

ومَرَّ بعد ذلك في عرض السَّمَر: ما تقلَّد امرؤ قلادةً أفضل من سكينة.

فقال: ذكَّرتني شيئًا كنتُ مهتمًّا به قديمًا، والآن قرعتَ إليَّ بابه؛ ما السكينة؟ فإني أرى أصحابنا يرددون هذا الاسم ولا يبسطون القول فيه. فكان من الجواب:

سألت أبا سليمان عن السكينة ما هي؟ فقال: السكائن كثيرة: طبيعية، ونفسية، وعقلية، وإلهية، ومجموعة من هذه بأنصباء مختلفة ومقادير متفاوتة ومتباعدة.

والسكينة الطبيعية اعتدال المزاج بتصالح الأُسْطُقُسَّات، تحدث به لصاحبه شارةٌ تُسمَّى الوقار، ويكون للعقل فيها أثر بادٍ، وهو زينة الرُّواء المقبول.

والسكينة النفسية مماثَلة الرَّوِيَّة للبديهة، ومواطأة البديهة للروية، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة، يحدث بها لصاحبها سَمْتٌ ظاهر ورُنُوٌّ دائم وإطراقٌ لا وجوم(1) معه، وغَيبة لا غفلة معها، وشهامة(2) لا طيش فيها.

والسكينة العقلية حُسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة. ومعنى هذا أن القابل مستغرَق بقوة المقبول منه، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفكر في طلب الحق مع سكون الأطراف في أنواع الحركات.

والسكينة الإلهية لا عبارة عنها على التحديد، لأنها كالحُلْم في الانتباه وكالإشارة في الحلم، وليست حلمًا ولا انتباهًا في الحقيقة، لأن هذين نعتان محمودان في عالم السيلان والتبدُّل، جاريان على التخيل والتجوز بزوائد لا ثبات لها ونواقص لا مبالاة بها، رُوحانية في رُوحانية كما يقال: «هذا صفوُ هذا»، و«هذا صفوُ الصَّفْو.» ومن لحظ هذه الكيفية(٣) وبُوشِر صدرُه بهذه الحقيقة، استغنى عن رسوم محدودة بألفٍ ولام، وحقائق مكنونة في عرض الكلام. وإذا جهلنا أشياء هي لأهل الأُنْس(٤) بلُغات قد فُطروا عليها، وعبارات أَنِسوا بها؛ كيف نجد السَّبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها؟

فهذا باب واضح، والطمع في نيله نازح. وإذا كان المَنال صعبًا(٥) في الموضع الذي عمدنا إليه، فكيف يكون حالنا في البحث عما في حيِّز الألوهية وبحبوحة الربوبية، ولا كون هناك ولا ما نِسبتُه للكون؟ وأقوى ما في أيدينا أن نتعلَّل بالوجود فالموجودِ والوجدان والجود، وهذه كلُّها غليظة بالإضافة إلينا وفوق الدقيقة بالإضافة إلى أعيانها.

فعلى هذا الصمتُ أوجَدُ للمراد من النطق، والتسليمُ أظفرُ بالبِغية من البحث.

قال البخاريُّ: [٦] فشيء كهذا[٧] بدقيقه وإشكاله وغموضه وخفائه كيف يَظهر على جِبِلَّة بشرية وبنية طينية وكَمِّيَّة مادِّية وكيفية عنصرية؟

فقال: يا هذا، إنما يشع من هذه السكينة على قدر ما استُودع صاحبُها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار، واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السر ومساواته للعلانية، وغلبتِه بالتوحد، وانتظام كلِّ صادر منه ووارد عليه.

وها هنا تمَّحي الجِبِلَّة البشرية، وتتبدد الجبلة الطينية، وتَبيد الكَمية المادِّيَّة، وتعفو الكيفية[٨] العنصرية، ويكون السلطان والولاية والتصريف والسياسة كلُّها لتلك السكينة التي قدَّمْنا وصفنا لها، واشتدَّ وجدُنا بها، وطال شوقنا إليها، ودام تحديقنا نحوها، واتصل رُنُوُّنا إليها، وتناهت نَجْوانا بذِكرها.

وهذا هو الخَلع الذي سمعتَ بذكره، واللِّباس الذي سألتَ عنه، أعني خَلع ما أنت منه إنسان، ولبِس ما أنت به مَلَك. [الله] المستغاثُ منكم، ما أشدَّ بلواي بكم! لمَ [لا] تتحركون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه؟ ولمَ تسألون عمَّا لا اطِّلاع لكم عليه؟ سلوا ربكم أعينًا بصيرة،

وآذانًا واعية، وصدورًا طاهرة، وقوة متتابعة، فإنكم إذا مُنِحتموها هُدِيتم لها، وإذا حُرِمتموها قُطِعتم دونها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال البخاري: وقد تركنا يا سيدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصباء مختلفة.

فقال: لا عجب أن يُنشأ العالَمُ بكلٍّ ما فيه في هذه الحومة(٩) التي لُذْنا بها وحاولنا الوصولَ إليها. وأي شيء أعجَبَ(١٠) في هذا المقام، رسم أو قوام، أو ثبات أو دوام، إلا(١١) له نصيب من عناية الله تعالى الكريم.

نعم، والسكينة المجموعةُ من كلٍّ ما سلف القول فيه تَقاسَمَها نوع الإنسان بالزيادة والنقصان، والغموض والبيان، والقلة والكثرة، والضَّعف والقوة، وهذا يتبيَّن بأن تَقسِم الطيشَ والحدَّة والعجلة والخفة على أصحابها، فتجدُ التفاوتَ ظاهرًا.

وكذلك إذا قسمت الهدوءَ والقرار والسكون والوقار على أهلها، فإنك تجد التباين مكشوفًا والاختلاف ظاهرًا.

ثم قال: أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البَشَر، وليس لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسية والعِشرة البشرية، وإلا فهم في ذِرْوة عالية، ومحلَّة إلهية.

قال: وأما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها، لأنها مرتبات تنقسم بين المنام واليقظة انقسامًا متفاوتًا بالعَرض الحامل للصدق وللشبيه بالصدق، وللحق وللقُرْب من الحق، وللصحيح والتالي للصحيح، ثم يختلف بيانهم عن[١٢] ذلك بالتعريض والإيضاح، والكناية والإفصاح، والتشبيه والاستعارة.

قال: فأما السكينة التي تتلو هذه فهي التي تظهر على طائفة تَخلُف الأنبياء، وذلك أن بقايا قُواهم يرثها الذين صحِبوهم، واستضاءوا بنورهم، وفهموا عنهم، ولُقِّنوا منهم، ودخلوا في زُمْرتهم، وحاكوهم في الشمائل والأخلاق، وسلكوا منهاجهم في القياد والسياق، وصَلحُوا سفراء بين الأبعدين، كما كانوا سُجَراء[١٣] للأقربين، وهم الذين يفسِّرون الغامض، ويوضِحون المشكِل، ويَبسُطون المطويَّ، ويشرحون المكنَّى، ويُبرزون المراد والمعنى، ويوطِّدون الأساس، ويرفعون الالتباس، وينفون الوَحشة ويحدثون الإيناس.

وأما السكينة الباقية فهي مفضوضة على أتباع هؤلاء بالسهام العُلوية، والمقادير العَدلية، والمناسيب العقلية، من غير جَوْر ولا حَيْف، ولا انحراف ولا ميل.

فقال البخاري: أهي – أعني السكينة – في معنى فاعلة أو مفعولة؟ فقال: الفضاء أعرض[١٤] مما تظن، وإن كان في غاية العَرض، والذِّروة أعلى من أن تُرام وإن كان الإنسان يطلبها بالبسط والقبض.

هي بوجه في معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها، وبوجه آخَر في معنى مفعولة إذا شعرت بتأثرها.

وبوجه آخر، ليست من هذين القبيلين في شيء إذا لحظتها في معانيها قبل تأثيرها وتأثرها، وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب، بشائع العادة وقائم العُرف، والسكينة وراء هذا كلِّه بالحق والواجب والصحة والتمام فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه، فإذا شهدتَ المخصوصَ بها كانت عبارتك عن الملحوظ منها مشاكِلَةً لعبارتك عن أخلاق رضيَّة وأحوال مرضيَّة، وإذا شهدتَ ذلك المعنى من معاني الحق كانت عبارتك متلجلجةً لا نظام لها ولا تَعادُل ولا اتِّساق على العادة الجارية والحال الطارئة، فأحقُّ ما ينبغي لطالب الحكمة واللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر، ويكشف وينقِّر، ويستقصي ويَسْبُر،[١٥] ويسأل ويستبصر، حتى إذا بلغ هذه الآفاق، وشهِد هذه الأعلام، ووَجد الصواب الذي لا شَوْب فيه، وصادف اليقين الذي لا ريب معه، وعرف الاستبانة التي تغني عن البيان، وذاق المعنى الذي هو فوق العِيان؛ أمسك وانتهى، ووقف واستغنى، لا لعَرَض ظلام غَشِيَه، ولكن لسلطانِ شعاعٍ مَلَكه، لأن ذلك النور محيط بكل شيء دونه، ومستَوْلٍ على كلِّ شيء تحته.

وكان يقول في هذا الفن إذا جدَّ به الكلام، وبدا منه المكتوم، وشرد عنه الخاطر؛ ما لا يُوعَى بحفظ، ولا يُرْوَى بلفظ.

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثورَه بهذه الحروف لفظًا لينظموا منه شذرًا وعقدًا، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا في تقويم ذلك كلِّه، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا [على] مفهومهم منه، وتجنَّبوا المنازَعة والشغَب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى، ولا يتحيرون في المنتهى.

وسأله الأندلسي في هذا المجلس عن الأمم وأحوالها، ونقصها(١٦) وكمالها، فقال: اشتركت الأمم في جميع الخيرات والشرور، وفي جميع المعاني والأمور، اشتراكًا أتى على أول التفاوت ووسطِه وآخره، ثم استبدَّت كلُّ أمة بقوالب ليست لأختها، واشتراكهم فيها كالأصول واستبدادهم كالفروع، وفيما اشتركوا فيه المحمود والمذموم.

ولم يَجُزْ في الحكمة الإلهية غيرُ هذه القسمة، لأن الاشتراك لو سبق بلا تفاوت لم يكن اشتراكًا، والتقاسمَ لو عَرِي من الاتفاق لم يكن تقاسمًا، فصار ما مِن أجله يفترقون به يجتمعون، وما من أجله ينتظمون به ينتشرون.

فعلى هذا اشتركوا في الأخلاق واللغات، والعقائد والصناعات، وجرِّ المنافع ودفع المَضارِّ، مع اختلافهم فيها بنوعٍ ونوعٍ.

ألا ترى أن لغة الهند غيرُ لغة الروم، وكذلك الصناعةُ والعقيدةُ وما يجري مجراهما؟ إلا أنهم مع هذه الأصول والقواعد تقاسَموا أشياء بين الفطرة والتنبيه، وبين الاختيار والتقدمة، فصار الاستنباط والغوص والتنقير

والبحث والاستكشاف والاستقصاء والفِكْر [ليونان]، (١٧) والوهم والحَدْس والظن والحيلة والتحيُّل والشعبذة [للهند]، (١٧) والحصافة(١٨) واللفظ والاستعارة والإيجاز والاتساع والتصريف والسِّحْر باللسان للعرب، والروية والأدب والسياسة والأمن والترتيب والرسوم والعبودية والربوبية للفرس.

فأما التُّرك فلها الشجاعة، والعرب تشاركها إما بالزيادة وإما بالمساواة، وليس للترك بعد هذا حظٌّ ولا دراية إلا بقسط من الظل من الشخص.

والعرب مع منطقها البارِع لها المزيَّة المعروفة على التُّرك بعدُ [في](١٩) السياسة وإن كانت قاصرةً. وأما الزَّنج والسودان فغلبت عليها الفُسولة وشاكلت البهائمَ الضعيفة، كما شاكلت التركُ السِّباعَ القوية.

قيل له: إن أبا زيد قد عمل كتابًا في أخلاق الأمم. قال: قد رأيته وقرأتُه وقد أفاد، وكلُّ من تكلم على(٢٠) طريقة الحكماء الذين يتوخَّوْن من الأمور لَبابَها، ويصرفون عنها قشورها؛ فله السابقة والتقدم على من يخبط كفلان وفلان.

ومن جَحَد بلاغة العرب في الخطابة وجَوَلانها كلَّ مجال وتَميُّزها باللسان فقد كابر، ومن أنكر تقدم يونان في إثارة المعاني من أماكنها وإقامة الصناعات بأسرها، وبحثِها عن العالم الأعلى والأوسط والأسفل؛ فقد بَهَت.

ومن دفع مزية الفرس في سياستها وتدبيراتها، وترتيب الخاصَّة والعامَّة بحقٍّ ما لها وعليها؛ فقد عاند.

وهكذا مَن دفع ما للهند، فليس من شخص وإن كان زريًّا قميئًا إلا وفيه سرٌّ كامنٌ لا يَشْرَكه فيه أحد، وإذا كان هذا في شخص على ما قلنا فكيف إذا نظرتَ إلى ما يحويه النوع؟ وهكذا إذا ارتقيتَ إلى الجنس، وهذا لأن عرْض الجنس أوسع من عرْض النوع، كما أن عرْض النوع أوسع من عرْض الشخص، وليس دون الشخص تحت، كما أنه ليس فوق الجنس فوق. (٢١) وأما انقسام هذه الثلاثة على هذا فلِيكون فضاء العالم غاصًّا بالطَّرَف والوسط والأفق، وليكون سَحًّا بالغًا من المَصدر إلى المَورد.

وعلى هذا لولا الجنس لم يوجد نوعٌ، ولولا النوع لم يوجد شخص، وكذلك العكس.

قال أبو سعيد الطبيب: أللعالم العُلوي أجناس وأنواع وأشخاص؟ قال: كيف يخلو العالَم العُلويُّ من هذا التقسيم، وإنما هذا الذي لحقنا في العالم السفلي حكايةُ ذلك العالم العلوي حَذْوَ النعل بالنعل والقُذَّة بالقُذَّة؟ فقال له مستزيدًا: فهل في البسائط الإلهية أجناس وأنواع وأشخاص؟ فقال: لا، إلا أن يَتخذ شيء من هنالك قرارَه في معارض العالَم السفلي بقوة العالم العلوي، وذلك كالبرق إذا خَطَف، والنسيم إذا لطف.

قال: فهل ينال البسائط نقصٌ بالإخبار بالأجزاء المركبة عنها كما ينال المركَّبات كمالٌ بالأجزاء البسيطة عنها؟

فقال: لا، لأن ما علا يؤثِّر ولا يقبل التأثير، وما سَفُل يتأثر، ألا ترى أن ما علا من الكواكب لا يتصل بشيء دونه، وما سفل منها يتصل بما علا عنه؟

وقال له أيضًا: إذا قلنا الرُّوحانيات، فماذا ينبغي أن يُلحظ منها؟ فقال: الروحانيات على أقسام؛ فقسم منها متبدِّد في المركَّبات من الحيوان والجماد، وقسم منها مكتنِفٌ للحيوان والجماد، وبحسَب هذا الاكتناف هو أبسط وألطف من القسم الأول المتبدِّد. وقسمٌ منها فوق القسم المكتنِف، وهو الذي منه مادَّة المحيط، وقسم آخَر فوق هذا الممتد، ثم فوق هذا ما لا يملكه وهم، ولا يدركه فهم، وذلك أنه في جناب القدس، وحيث لا مَرَام لشيء من قُوَى الجن والإنس.

وسألت أبا سليمان فقلت: إن عليَّ بن عيسى الرماني ذكر أن التمكين من القبيح قبيح، لأن التمكين من الحسَن حسَنٌ، فلو كان التمكين من القبيح قبيحًا مع كونه من الحسَن حسنًا كان حسنًا قبيحًا، وهذا تناقض، كيف صحة هذا الذي أومأ إليه؟

فقال: أخطأتَ،(٢٢) لأن التمكين وحده اسمٌ مجرَّد لشيء محدد، والأسماء المحددة دلالتُها على الأعيان لا على صفات الأعيان أو ما يكون من الأعيان أو ما يكون في الأعيان.

والتمكين معتبَر بما يُضاف إليه ويُناط به، فإن كان من القبيح فهو قبيح، لأنه علة القبيح، وإن كان من الحسَن فهو حسَن، لأنه سبب الحسَن.

وهذا كما تقول: هذا الدرهم نافع أو ضارٌّ؟ فيقال: إن صرفتَه فيما ينبغي فهو نافع، وإن أنفقتَه فيما لا ينبغي فهو ضار، وكذلك السيف في الآلات، وكذلك اللفظ في الكلمات. والإضافة قوة إلهية سرت في الأشياء سريانًا غريزيًّا قاهرًا متملكًا قاسرًا، فلا جرم لا ترى حسيًّا أو عقليًّا أو وهميًّا أو ظنيًّا أو علميًّا أو عرفيًّا أو عمليًّا أو حُلْميًّا أو يَقَظيًّا إلا والتصاريف سارية فيها، والإضافة حاكمة عليها.

وهذا لأن الأشياء بأسرها مصيرها إلى الله الحق، لأن مصدرها من الله الحقِّ، فالإضافة لازمة، والنسبة قائمة، والمشابَهة موجودة. ولولا إضافة بعضنا إلى بعض ما اجتمعنا ولا افترقنا، ولولا الإضافة بيننا الغالبة علينا ما تفاهمنا ولا تعاونًا.

قال: إذا كنا بالتضايُف نتوالَى فبأي شيء بعده نتعادَى؟[٢٣] قال: هذا أيضًا بالإضافة، لأن الإضافة ظلٌّ، والشخص بالظل يأتلف، وبالظل يختلف.

وقال: ويزيدك بيانًا أن العدَم والوجود شاملان لنا، سائران فينا، فبالوجود نتصادق، وبالعدَم نتفارق.

وسأل[٢٤] مرة عن الطَّرَب على الغناء والضرب وما أشبههما.

فكان من الجواب: قيل لسقراط فيما ترجمه أبو عثمان الدمشقي: لم طَرَبُ الإنسان على الغناء والضرب؟ فقال: لأن نفسه مشغولةٌ بتدبير الزمان من داخل ومن خارج، وبهذا الشغل هي محجوبة عن خاصٍّ ما لَها.

فإذا سمعَتِ الغناء انكشف عنها بعض ذلك الحجاب، فحنَّتْ إلى خاصٍّ ما لَها من المِثالات الشريفة والسعادات الرُّوحانية من بعد ذلك العالَم، لأن ذلك وطنُها بالحق.

فأما هذا العالَم فإنها غريبة فيه، والإنسان تابع لنفسه وليست النفس تابعة للإنسان، لأن الإنسان بالنفس إنسان وليست النفس نفسًا بالإنسان، فإذا طربت النفس – أعني حنَّت ولَحَظت الرُّوح الذي لها – تحرَّكت وخفَّت فارتاحت واهتزَّت.

ولهذا يطرح الإنسان ثوبَه عنه وربما مزَّقه كأنه يريد أن ينسلَّ من إهابه الذي لَصِق به، أو يُفْلِت من حصاره الذي حُبِس فيه، ويهروِل إلى حبيبه الذي قد تجلَّى له وبرز إليه.

إلا أن هذا المعنى على هذا التنضيد إنما هو للفلاسفة الذين لهم عناية بالنفس والإنسان وأحوالهما.

وأما غيرهم فطرَبُهم شبيهٌ بما يعتري الطيرَ وغيرها. وانصرفتُ.

هوامش

(١) «وجوه».

(٢) «وشهادة».

(٣) «الكفَّة».

(٤) يريد الأنس بمعرفة الله. وفي الأصل: «أندلس».

(٥) «صدقا».

٦ البخاري هو أبو العباس البخاري، تلميذ أبي سليمان المنطقي وصديقه، كثير السؤال والمجادلة له كما يتبين مما حكاه أبو حيان عنه في المقابسات.

(٧) «فشا هذا».

(٨) «الكمية».

(٩) «الحرمة».

(١٠) عبارة الأصل: «أعجب له»، ويلوح أن قوله «له» زيادة من الناسخ.

(١١) عبارة الأصل: «إلا ما له»، وقوله «ما» زيادة من الناسخ.

(١٢) «ما بهم على».

(١٣) «سحرًا». والسجراء: الأصدقاء الأصفياء.

(١٤) «الفضا أغض».

(١٥) «ويصبر».

(١٦) «ونفعها».

(١٧) يلوح لنا أن هاتين الكلمتين اللتين بين مربعين ساقطتان من الأصل كما يدل على ذلك ما يأتي بعد من قوله: «ومن أنكر تقدم يونان في إثارة المعاني ... إلخ»، كما يدل عليه أيضًا كلام سبق في المفاضلة بين العرب وغيرهم من الأمم في أوائل هذا الجزء.

(١٨) «والحصملة».

(١٩) كلمة «في» زيادة منا يدل عليها المعنى.

(٢٠) في الأصل: «غير طريقة».

(٢١) «تحت».

(٢٢) «أخطأ».

(٢٣) «تنقاد».

(٢٤) «سأل»: أي الوزير.

الليلة الخامسة عشرة

وجرى مرة كلامٌ في الممكن، فحكيتُ عن ابن يعيش الرَّقيِّ فصلًا سمعتُه يقوله لا بأس برسمه في هذا الموضع، فإن التشاور في هذا الحرف دائم متصل وينبغي لنا أن نبحث عنه بكلِّ زَحْف وحَبْو،[1] وبكل كدٍّ وعَفْو.

قال: الممكن شبيهٌ بالرؤيا لا بدنَ له يستقلُّ به، ولا طبيعة يتحيَّز فيها، ألا ترى أن الرؤيا تنقسم على الأكثر والأقلِّ والتساوي؟ وكما أن الرؤيا ظلٌّ من ظلال اليقظة والظلُّ يَنقُص ويزيد إذا قِيس إلى الشخص، كذلك الممكن ظلٌّ من ظلال الواجب، فطَوْرًا يزيد تشابهًا للواجب، وطورًا ينقص تَشَاكُهًا للممتنع، وطورًا يتساوى بالوسط.

قال: والواجب لا عَرَض له، لأنه حدٌّ واحد، وله نصيب من الوَحدة بدليل أنه لا تغيُّر له ولا حيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل، بل العقل ينقاد له، والطبيعة تُسلِم إليه، والوهم يَفْرَق منه، وصورة الواجب لا يَحْدُسها الظن، ولا يتحكَّم فيها تجويز، ولا يتسلط عليها دامغ ولا ناسخ. وهذا الحُكم يطَّرد على الممتنِع، لأنه في مقابلته على الضد، أعني أنه لا بدن له فيكون له عَرَض، والعرَض كلُّه للممكن بالنعت الذي سلف من الكثرة والقلة والمساواة.

ولهذا تعلَّقت التكاليف به في ظاهر الحال وبادئ الأمر وعارض الشان، واستولى الوجودُ عليه بباطن الحال وخفيِّ الأمر وراتب(٢) الشان، لكن هذا الفصل الذي اشتمل على الظاهر والباطن ليس ينكشف للحس كما ينكشف للعقل.

ولمَّا كنا بالحس أكثر – وإن كنا لا نخلو في هذه الكثرة من آثار العقل – لزِمَنا الاعترافُ بعوائد الممكِن وعلائقِه، والعمل عليه، والرجوع إليه إذا أَمَرْنا أو نَهَيْنا أو ائْتَمَرْنا [أو انتهينا]. (٣)

ولمَّا ظهر لنا بإزاء هذا الذي كنا به أكثر أن لنا شبحًا آخر نحن به أقل، وهو العقل، يشهد لنا بأن صورة الوجوب استولت من مبدأ الأمر إلى منقطعه الذي هو في عَرض الواجب إلى آخر الممتنِع.

وكما لزمَنا الاعترافُ الأول لنكون به عاملين ومستعملين، ورافعين وواضعين، ولائمين ومَلومين، ونادمين ومُندِمين؛ كذلك لزمَنا الاعترافُ بسلطان الواجب الذي لا سبيل إلى عزله، ولا محيصَ عن الإقرار به، ولا فكاك من اطِّراده بغير دافع أو مانع.

واتصل كلامُ ابن يعيش على تقطُّع في عبارته التي ما كانت أداتُه تُواتِيه فيها مع تدفُّق خواطره عليها؛ فقال: الرؤيا ظلُّ اليقظة، وهي واسطةٌ بين اليقظة والنوم، أعني بين ظهور الحسِّ(٤) بالحركة وبين خفائه بالسكون.

قال: والنوم واسطة بين الحياة والموت، والموتُ واسطةٌ بين البقاء الذي يتصل بالشهود(٥) وبين البقاء الذي يتصل بالخلود.

قال: وهذا نعتٌ على تسهيل اللفظ وتقريب المراد والتصور. و[دون] الثقةُ شوك القَتاد، وازدرادُ العَلْقَم والصاب، للحواجز القائمة والموانع المعترِضة من الإلف والمَنشأ وغير ذلك مما يطول تعديده ويشقُّ استقصاؤه.

فقال: (٦) هذا كلامٌ ظريف، وما خِلتُ أن ابنَ يعيش مع فدامته،(٧) ووَخامَتِه يسحب ذيلَه في هذا المكان، ويُجري جوادَه بهذا العِنان.

قلتُ له: إن له مع هذه الحال مَراميَ بعيدة، ومَقاصدَ عالية، وأطرافًا من المعاني إذا اعتلقها دَلَّ عليها، إما بالبيان الشافي وإما بما يكون طريقًا إلى الوَهم الصافي.

وقلتُ: لقد مر له اليومَ شيءٌ جرى بينه وبين أبي الخير اليهوديِّ استُفيد(٨) منه.

قال: وما ذاك؟ انثُرْ علينا دُرَرَ هذه الطائفة التي نميل إليها بالاعتقاد وإن كنا نقع دونها بالاجتهاد، ونسأل الله أن يرحم ضعفَنا الذي منه بُدِئْنا(٩) ويبدِّلَنا قوةً بها نجد قُربَنا في آخرنا!

قلتُ: ذكر أن العقل لا غَناء(١٠) له في الأشياء التي تغلب عليها الحيلولة والسَّيَلان والتطوُّل، كما أن الحس لا ينفُذُ في الأمور التي لا

تطوُّر لها بالحيلولة والتطول، ولذلك عُرفت الحِكمةُ في الكائنات الفاشيات،[١١] وخفيت العِللُ والأسبابُ في بُدُوِّها وخُفْيتِها وتبدُّدها وتآلُفِها، لكن هذا الفرق والخفاءَ مسلَّمان للقدرة المستعلِية والمشيئة النافذة.

قال: ولهذا الترتيب سرٌّ[١٢] به حَسُن هذا النعت، وإليه انتهَى هذا البحث، وذلك أن خَفاء ما خَفِيَ بحَقِّ الأول أُلْحِق، وبدوِّ ما بدا من نصيبٍ أُطْلِق للذي[١٣] لا يحتمل غير هذا الثقل، ولو خُفِّف عنه هذا لَلَحِق الإنسانُ البهائمَ، ولو ثقُل عليه هذا لَلَحِق الملائكة، فكان حينئذٍ لا يكون إنسانًا. وقد وجب في الأصل أن يكون إنسانًا كاملًا بالنَّصَب والدَّأَب، ويَمتعِض من أن تكون صورة الإنسان عنده مُعارة، لأنه في الحقيقة حيوان غير ناطق، بل يجتهد بسعيه وكدحه أن يصير إنسانًا فاضلًا، ويكون في فضله وكمالِه ملَكًا، أعني بالمشاكَهة الإرادية لا بالمشاكَهة النوعية.

قال: وغاية الحكمة منها للمباشرين لها أن المعرفة تقف على حَيْلولتها ولسيلانها فقط، لا على تصفُّح أجزائها، لأن الترتيب فيها يستحيل مع الزمان.

ألا ترى أن الرَّقْم على الماء لا صورة له؟ لأن صفحة الماء لا ثبات لها، وكذلك الخط في الهواء، وكذلك الكائنات البائدات[١٤] لا صورة لها لأنها لا ثبات لها، وأنت إذا وجدتَ شيئًا لا ثبات له لم تضمَّ إليه

شيئًا آخر لا ثبات له طمعًا في وقوع الثبات بينهما، هذا ما لا يدين به وَهْمٌ، ولا ينقاد له ظنٌّ، ولو ساغ هذا لساغ أن يُجمع بين ما له ثبات وبين ما له أيضًا ثبات، فيحدث هناك سَيَلانٌ واستحالة.

وقال: وصفُ العقل بشهادة الحس، كما يكون وصف الحسِّ بشهادة العقل، إلا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى، وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد. على أن هاتين الشهادتين لا تطَّردان ولا تستمران، لأن لكل واحد من الحس والعقل تفرَّدًا بخاصِّ ما لَه، ولذلك ما وُجد حيوانٌ لا عقل له البتة، ووُجد في مقابلته حيٌّ لا حسَّ له.

ثم قال: بل العقل يحكم في الأشياء الرُّوحانية البسيطة الشريفة من جهة الصُّوَر الرفيعة. والعلائقُ التي بين المعقولات والمحسوسات مانعت العقل، والعاقل من خلَّص[١٥] الباقيات الخالدات الدائمات القائمات الثابتات من حومة الكائنات الفاسدات البائنات[١٦] الذاهبات الحائلات الزائلات المائلات البائدات.

ودخل في هذا التلخيص ضربٌ من الشكِّ والتماري والخصومة والتعادي والتعنُّت إلى اختلاف عظيم، ووقفتُ عن الحُكم بعد اليقين.

وقال – أدام الله سعادته: ما السَّجيَّة؟[١٧] قلتُ: سمعتُ الأندلسيَّ يقول: فلان يَمشي على سجيَّته، أي طبعه.

قال: هل يقال: ظفِرتُ عليه؟ قلتُ: قد قال شاعرهم:

وكانت قريش لو ظفِرنا عليهمُ		شفاءً لما في الصَّدر والنقصُ ظاهرُ

قال: هذا حسَن. قلتُ: الحروف التي تتعدَّى إلى الأفعال، والأفعالُ التي تتعدَّى بالحروف؛ يُراعَى فيها السماعُ فقط لا القياس، هذا كان مذهب إمامنا أبي سعيد.

وقد جاء أيضًا «ظَفِر به»، وجاء «سخِرتُ به ومنه.»

ومن لا اتِّساع له في مذهب العرب يظنُّ أن «سخِرُت به» لا يجوز وهو صحيح، حكاه أبو زيد.

قال: كيف يقال في جَمَل به غُدَّة؟ فكان من الجواب: جَمَلٌ مُغِدٌّ. قال: فكيف يُجمع؟ فكان الجواب بأنه في القياس ظاهر، ولكن السماع قد كفى: قال الشاعر – وهو خِراش بنُ زُهير:

فقــذْتُكمو[١٨] ولَحْظكمــو إلينــا		ببَطْن عُكـاظَ كالإبـل الغِـدادِ[١٩]

ضَــربْناهمْ بــبطن عكــاظَ حتَّــى		تَولَّــوْا طــالِعِين مِــن النِّجــادِ

وقال – حرس الله نفسه: من لقبه[٢٠] الخُرَسِيّ إلى أي شيء يُنْسَب؟

فكان من الجواب: يقال: رجل خُراسانِيٌّ وخُرَسِيٌّ وخُراسِيٌّ، فنُسِبتْ[٢١] إلى رجل نزلها[٢٢] فاشتُهِرت به.

فقال: القَذال كيف يُجْمع؟ فكان من الجواب أن فَعالًا وفِعالًا وفُعالًا وفعيلًا وفُعولًا أخوات تُجْمع في الأقل على أَفْعِلة، يقال: حِمار وأَحْمِرة، وغُراب وأَغْربة، وقَذال وأَقذِلة، وعمود وأَعمدة.

قال: نسيتُ[٢٣] أسألك عن المسألة الأولى – أعني الخُرَسيَّ – من أين لك تلك الفُتْيا؟

فكان من الجواب: قرأتُه على أبي سعيد الإمام في شرحه كتابَ سيبويه.

قال: برَّدْتَ غَليلي، فإن الحجة في مِثل هذا متى لم تكن بأهلها كانت متلجلِجة.

قال: أنشدْني شيئًا نختم به المجلسَ فقد مرَّت طرائف.

فأنشدتُه لعُمارةَ بن عَقيل في بنت[٢٤] له:

حبُّك يا ذاتَ الأُنَيْف الأَكْشَمِ[٢٥] حبٌّ تَساقاه مُشاسُ[٢٦] أَعْظُمِي
ودبَّ بين كَبِدي ومَحْزِمي وساطَهُ[٢٧] اللهُ بلَحْمِي ودمي
فليس بالمَذْقِ ولا المكتَّمِ ولا الذي إنْ يَتَقَادَمْ يُسْأَمِ
لقد نزلتِ من، فؤادي فاعلمي منزلةَ الشيءِ المُحَبِّ المُكْرَمِ

وانصرفتُ.

هوامش

(١) «حبو وزحف».

(٢) «ورأيت».

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٤) «والحركة».

(٥) «بالبنود».

(٦) «فقال»: أي الوزير.

(٧) «قدامته» بالقاف.

(٨) في الأصل: «ما استفيد»، و«ما» زيادة من الناسخ.

(٩) «ورينا». وبدئنا: أي خلقنا.

(١٠) «عنانه».

(١١) «الفاسدات».

(١٢) «شربه».

(١٣) «الذي».

(١٤) «الباترات».

(١٥) «في تخليص».

(١٦) «البائدات».

(١٧) وردت هذه الكلمات الثلاث التي تحت هذا الرقم في الأصل هكذا: «السه»، «حسه»، «لحفظه»، والتحريف فيها ظاهر.

(١٨) في اللسان مادة «غدد»: «عدمتكم ونظرتكم.»

(١٩) في كتب اللغة مادة «غدد» أن غدادًا جمع «غادٍّ» لا جمع سماعي لـ «مُغِدٍّ» كما تفيده عبارة المؤلف.

(٢٠) «لعه».

(٢١) أي نُسِبت كورة خراسان إلى رجل اسمه خراسان، كما في كتب اللغة.

(٢٢) ورد في الأصل بعد قوله «نزلها» هذه الكلمة: «سه»، مهملة الحروف من النقط، ولم نتبين الصواب فيها.

(٢٣) «لست».

(٢٤) هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط.

(٢٥) الأكشم: المقطوع، يريد وصفها بصغر الأنف حتى كأنه قد قُطِع منه جزء.

(٢٦) المشاس: كل عظم لا مخ فيه.

(٢٧) ساطه: خلطه.

الليلة السادسة عشرة

ثم عدتُ وقتًا آخر فقال: كنتَ حكيت لي أن العامريَّ صنف كتابًا عنونَه بـ «إنقاذ البَشَر من الجَبر والقَدَر»، فكيف هذا الكتاب؟

فقلتُ: هذا الكتاب رأيتُه بخطه عند صديقنا وتلميذه أبي القاسم الكاتب ولم أقرأه على العامريِّ، ولكن سمعتُ أبا حاتم الرازيَّ يقرؤه عليه، وهو كتاب نفيس، وطريقة الرجل قويمة، ولكنه ما أَنقذ البَشَر من الجَبْر والقَدَر، لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما والناظرين فيهما.

قال: لمَ قيل الجَبْر والقَدَر ولم يقل الإجبار.

فكان الجواب: أن الإجبار[1] لغة قوم والجبر لغة تميم، يقال: جبر الله الخلق وأجبر الخلق، وجبر بمعنى جَبَلَ، واللام تعاقب الراء كثيرًا.

قال: فتكلَّمْ في هذا الباب بشيء يكونُ غير ما قاله العامريُّ، وانقد له إن كان الحق فيما ذهب إليه ودلَّ عليه.

فكان من الجواب: أن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأواتي من معدن الإلهيات أقرَّ بالجبر وعَرَّى نفسَه من العقل والاختيار والتصرُّف والتصريف، لأن هذه وإن كانت ناشئةً من ناحية البَشَر فإن

مَنْشَأَها الأول إنما هو من الدواعي والبواعث والصوارف والموانع التي تُنْسَب إلى الله الحقِّ، فهذا هذا.

فأما من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسبين الفاعلين المحدثين اللائمين الملومين المكلَّفين؛ فإنه يعلِّقها بهم ويُلْصِقها برِقابهم، ويرى أن أحدًا ما أُتِي إلا من قِبَل نفسِه وبسوء اختياره وبشدة تقصيره وإيثار شقائه.

والملحوظان صحيحان واللاحظان مصيبان، لكنَّ الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف، لأنه ليس لكل أحد الوصولُ إلى هذه الغاية، ولا لكلِّ إنسان اطِّلاع إلى هذه النهاية.

فلما وقعت البينونة(٢) بين الناظرين بالطبع والنسبة لم يرتفع القال والقِيل من ناحية القول والصفة، فهذا هذا.

قال – أطال الله بقاءه: فما الفرق بين القضاء والقدَر؟

فكان من الجواب: أن أبا سليمان قال: إن القضاء مصدرُه من العِلم السابق، والقَدَر مَوْرِدُه بالأجزاء الحادثة.

فقال: لمَ ورَد في الأثر: «لا تخوضوا في القدَر فإنه سرُّ الله الأكبر؟»

فكان من الجواب أن أبا سليمان قال لنا في هذه الأيام: إن الناموس ينطق بما هو استصلاح عام، ليكون النفع به شائعًا في سكون النفس وطِيب القلب ورَوْح الصدور.

فإن كان هذا هكذا فقد وضَح أن حكمة هذا السرِّ طَيُّه، لأن عجز الناظرين يفضي بهم إلى الحَيْرة، والحَيْرة مَضَلَّة، والمَضَلَّة هَلَكة. وإذا كانت الراحة في الجهل بالشيء كان التعب في العلم بالشيء، وكم علمٍ لو بدا لنا لكان فيه شقاء عيشنا! وكم جهل لو ارتفع منا لكان فيه هلاكُنا! [والعلم] (٣) والجهل مقسومان بيننا ومفضوضان علينا على قدر احتمال كلٍّ واحد منا للذي سبق إليه وعَلِق به، ألا تَرى أن علمَنا لو أحاط بموتنا متى يكون، وعلى أي حال تحدث العلة(٤) أو المحنة أو البلاء، لكان ذلك مفسدةً لنا، ومحنةً شديدةً علينا؟

فانظر كيف زَوى الله الحكيمُ هذا العلم عنا، وجعل الخِيرة فيه لنا.

ألا ترى أيضًا أن جهلنا لو غلب علينا في جميع أمورنا لكان فسادُ ذلك في عظم الفساد الأول، والبلاءُ منه في معرض البلاء المُتقدِّم؟ فمن هذا الذي أشرفَ على هذا الغيب المكنون والسرِّ المخزون فيغفُل عن الشكر الخالص، والاستسلام الحسَن، والبراءةِ من كل حَوْل وقوة؟

فالاستمداد ممن له الخلق والأمر، أعني الإبداء والتكليف والإظهار والتشريف والتقدير والتصريف.

قال: هذا فن حسن، وأظنك لو تصديت للقصص والكلام على الجميع[٥] لكان لك حظ وافر من السامعين العاملين والخاضعين والمحافظين.

فكان من الجواب: أن التصدي للعامة خلوقة[٦] وطلب الرفعة بينهم ضعة والتشبه بهم نقيصة، وما تعرض لهم أحد إلا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولوثته ونفاقه وريائه أكثر مما يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم.

وليس يقف على القاص إلا أحد ثلاثة.

إما رجل أبله فهو لا يدري ما يخرج من أم دماغه.

وإما رجل عاقلٌ فهو يزدريه[٧] لتعرضه لجهل الجهال، وإما له نسبة[٨] إلى الخاصة من وجه وإلى العامة من وجه، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجانب للهجر والاعتراف الجالب للوصل، فالقاص[٩] حينئذٍ ينظر إلى تفريغ الزمان لمداراة هذه الطوائف، وحينئذٍ ينسلخ من مهمَّاته النفسية، ولذَّاته العقلية، وينقطع عن الازدياد من الحكمة بمجالسة أهل الحكمة، إما مقتبِسًا منهم، وإما قابسًا لهم. وعلى ذلك فما رأيت مَن انتصب للناس قد ملك إلا درهمًا وإلا دينارًا أو ثوبًا، ومناصبةً شديدةً لمماثليه وعُداته.

قال: إن الليل قد دنا من فجره، هاتِ مُلْحةَ الوداع.

قلت: قال يعقوب صاحب «إصلاح المنطق»:

دخل أعرابي الحمَّام فزلق فانشجَّ، فأنشأ يقول:

وقــالوا تطهَّــرْ إنــه يــومُ جمْعــةٍ فرُحْـتُ مـن الحمَّـام غيـرَ مُطهَّـر
تَردَّيْـتُ منـه [شـاريًا] [١٠] شَـجَّ مَفْرِقـي بفَلْسَيْن إنِّي بئسَ ما كان مَتْجَري
وما يُحْسِنُ الأعرابُ في السُّوقِ مِشْيَةً فكيـف ببَيْـتٍ مـن رَخـامٍ ومَرْمَـرِ؟
يقــول لــيَ الأنْبــاطُ إذْ أنــا نــازلٌ [١١] «به لا بظَبْيٍ بالصَّرِيمَة أَعْفَرِ» [١٢]

وقال – حرس الله نفسَه: كنتُ أَرْوِي قافية هذا البيت «أعفرا»، وهذه فائدة كنتُ عنها في ناحية. وانصرفتُ.

قد رأيتُ أيها الشيخ – حاطك الله – عند بلوغي هذا الفصل أن أختم الجزء الأولَ بما أنتهي إليه، وأَشفعَه بالجزء الثاني على سِياج ما سلف نظمُه ونثرُه، غيرَ عائجٍ على ترتيبٍ يحفظ صورة التصنيف على العادة الجارية لأهله، وعذري في هذا واضح لمن طلبه، لأن الحديث كان يَجري على عَواهِنِه بحسب السانح والداعي.

وهذا الفن لا ينتظم أبدًا، لأن الإنسان لا يَملك ما هو به وفيه، وإنما يَملك ما هو له وإليه.

وهذا فصل يحتاج إلى نفَسٍ مديد، ورأيٍ يصدُر عن تأييد وتسديد.[١٣] والسلام، والحمد لله وحده، وصلواتُه على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

هوامش

(١) «من الإجبار»، «ومن» زيادة من الناسخ.

(٢) «السوية».

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٤) في الأصل: «أو العلة»، و«أو» زيادة من الناسخ.

(٥) يريد بالجميع: العامة.

(٦) يريد بالخلوقة هنا معنى التبذل والامتهان، يقال: خلق الثوب (بتثليث اللام) خلوقة [و]خلاقة: إذا بلي.

(٧) يزدان به.

(٨) ورد في الأصل بعد هذه الكلمة قوله: «له»، وهي زيادة من الناسخ.

(٩) «فالعاص».

(١٠) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل، وبقية البيت تقتضي ما أثبتنا.

(١١) «تارك».

(١٢) هذا مثل يُضرَب في الشماتة بالرجل، يريدون أن المكروه ينزل به ولا ينزل بظبي أعفر، كأنه من الخسة والهوان بحيث يفضَّل عليه الظبي الأعفر.

(١٣) في نسخة ميلانو بعد قوله «وتسديد» ما نصه: أُنشِئت هذه الرسالة في رجب سنة أربع وسبعين وثلاثمائة.

الفهرس